صدام الحضارات

حتمية قدرية أم لوثة بشرية...؟



د. حسن الباش



صدام الحضارات

حتمية قدرية ام لوثة بشرية...؟

الطبعة الثانية
1426 هـ ـ 2005م



للطباعة والنشر والتوزيع

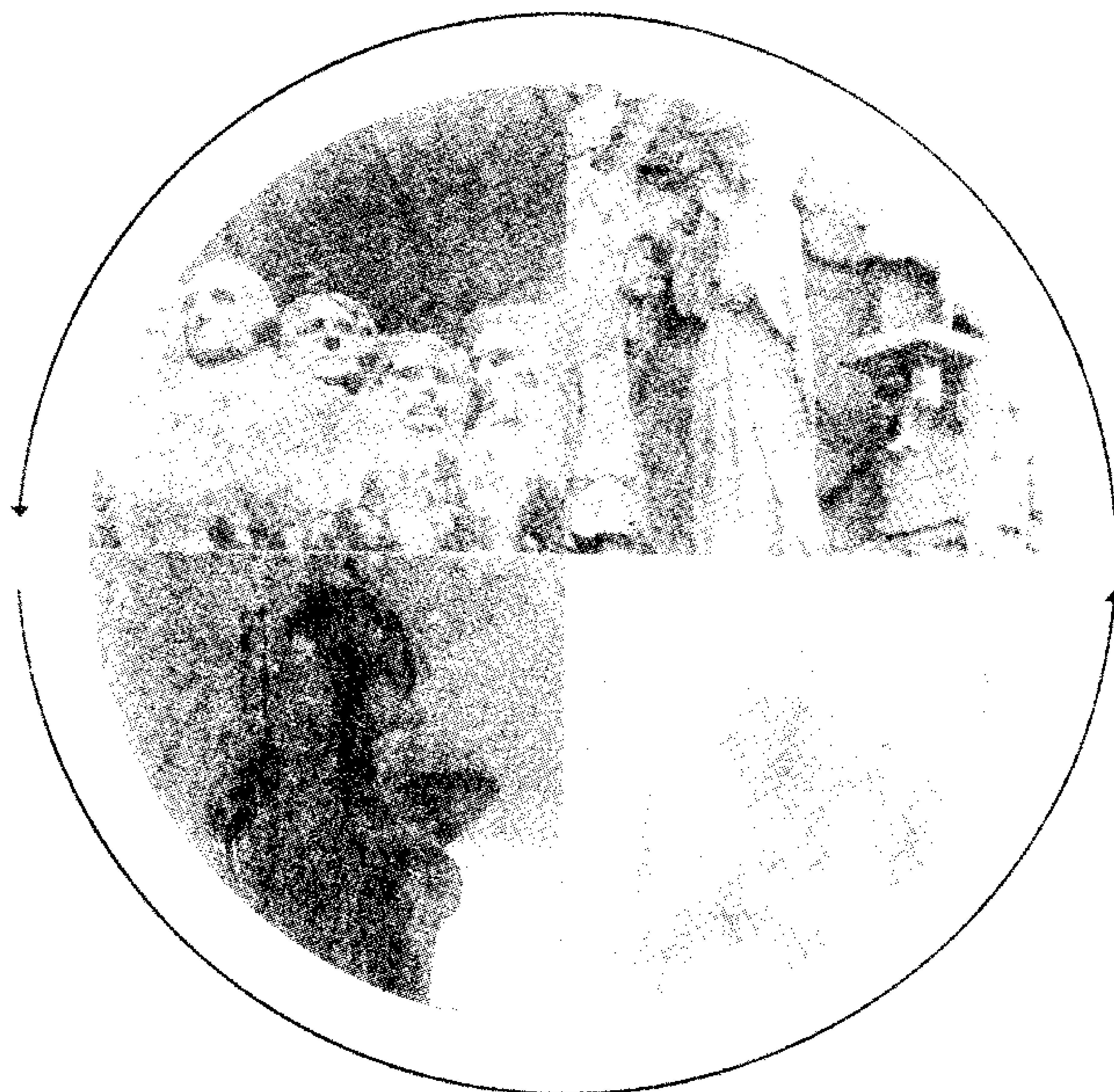
دمشق - سوريا
ص.ب: 13414
هاتف: 30 24 224 11 963+
فاكس: 36 10 245 11 963+

بيروت - لبنان
ص.ب: 14/6364
خليوي: 833 814 3 961+
فاكس: 171 377 1 961+

www.kotaiba.com
E-mail : dar@kotaiba.com

صدام الحضارات

حتمية قدرية أم لوثة بشرية...؟



د. حسن الباش



بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

- إلى شهداء الانتفاضة الذين يفتحون بدمائهم طريق الصراع الكوني والصدام الحضاري بين قوى الحق والباطل.
- إلى الدكتور الشيخ أحمد حسون مفكراً ومجاهداً.
- إلى الفيلسوف المسلم رجاء غارودي فلسطيني الفكر إسلامي الانتماء.
- إلى الواقفين صفاً في وجه أعداء العروبة والإسلام.
- إلى المجاهدين بالنفس والكلمة في سبيل الله.
- إلى المخلصين من أمتي لقضيتي.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أي صدام.... أي حوار؟؟

كأن جداراً عملاقاً من الحديد والإسمنت قد فصل بين الشعوب، وتريد هذه الشعوب أن تحطم هذا الجدار لتتحاور أو لتتصادم، لقد صنع بعض المفكرين الغربيين هذا الجدار من الوهم والتخيل استناداً على رؤية رأسمالية فوقية، واستناداً على تخطيط خبيث يهدفون من ورائه التمهيد النفسي والعقلي لسيادة القطب الواحد، سيادة الثقافة الواحدة، والقيم الواحدة، والتربية الواحدة، سيادة العرق الأنجلو ساكسوني الصهيوني.

لقد افترض هنتنغتون أن صداماً للحضارات لا بد حاصل مفترضاً أن التكنولوجيا الأمريكية والصناعية بشكل عام حضارة بكل المقاييس، ويريد من وراء ذلك أن يقول: إن الصدام لا بد حاصل بين الدول المتخلفة والدول الصناعية، ومفترضاً أيضاً أن التخلف سمة الشرق، وحضارة الشرق، ومفترضاً أن التقدم الغربي سمة الغرب، وحضارة الغرب، لماذا يُطلب الآن ما يسمى حوار الحضارات؟ ولماذا أيضاً يمهد هؤلاء المفكرون لما يسمى صدام الحضارات؟

لو دققنا بشكل موضوعي لهذه المفاهيم نرى أن آلية غربية للتعامل مع الشرق الإسلامي حكمت الرؤية الغربية الفوقية منذ زمن بعيد، فهم أي: الغربيون قصدوا ديار العرب والمسلمين محتلين غازين، واستطاعوا بقوة السلاح تثبيت استعمارهم بضعة عقود.

صحيح أنهم واجهوا مقاومة هنا وثورة هناك ولكنهم لم يواجهوا صداماً بالمعنى الشمولي، لقد فرضوا بأنفسهم الاحتلال وفرضوا بأنفسهم الحوار، فكان الحوار حوار الغالب للمغلوب وليس حوار الندّين المتشابهين بالقوة والإمكانات والنفوذ والسيطرة.

واليوم وبعد أن رأى العالم انكفاء الاستعمار العسكري المباشر تخرج لنا أصوات غريبة تطرح مفهوم العولمة تارة، ثم تطرح الثقافة الكونية تارة أخرى، ثم تعدل عن هذا وذاك لتطرح مفهوم حوار الأديان، ثم ما تلبث أن تثير زوبعة صدام الحضارات، وهكذا فإن العالم العربي والإسلامي يتلقى هذه المفاهيم ويشغل فكر أبنائه بها فتُشتت الأفكار، وتتصارع العقول، والغرب بقضه وقضيضه يضرب هنا تحت شعار محاربة الإرهاب، ويهدد هناك تحت شعار الخروج عن الإجماع الدولي العالمي، ويلمح بالغزو تارة، وبالعقوبات تارة أخرى، وأصبح كأنه قدر إلهي لا راد لقضائه، ولا احتجاج على سطوته وطغيانه.

وعندما يطرحون مفهوم الحوار يدركون أن الضعفاء لا يحاورون إنما يتلقون، لكنهم يصرون على تسميته بالحوار علهم يجفّفون النفوس والعقول فتخنع ساكنة لا حول لها ولا قوة. من الذي يفرض الصدام أيضاً؟

أليس الذي يمتلك الإمكانات العسكرية والتكنولوجية والمالية؟ هل سبق للعرب والمسلمين أن فرضوا صداماً على أحد أو حواراً على أحد؟ حتى في أسوأ أوضاعهم السياسية، لم يفرضوا حواراً أو يفترضوا صداماً.

إن العقلية الغربية تحكمها معايير قديمة ترسخت كالجذور في المجتمعات الغربية، معايير العرقية والعقائد المادية والبربرية المتوحشة، فلذلك افترضت هذه العقلية أن الخطر القادم والمحتمل الأكيد بعد انهيار الشيوعية هو الإسلام، ومنذ بدأ يشيع هذا الافتراض توالت الحملات الفكرية على الإسلام، وبين الفينة والأخرى يخرج صوت غربي لينفث سمومه القديمة ضد الإسلام والحضارة الإسلامية.

وبينما يُدفع بعض رجال الدين الغربيين ليطرحوا مفهوم حوار الأديان يخرج رئيس وزراء إيطاليا ليهاجم الحضارة العربية الإسلامية والشخصية العربية الإسلامية، ويخرج رئيس الولايات المتحدة الأمريكية ليصف الحرب على الإرهاب بأنها حرب صليبية جديدة، بينما يخرج آخر ويرى أن منبع الإرهاب هو الشرق العربي الإسلامي ويجب محاربته بكل ما يملك الغرب من إمكانات.

إذن من الذي يفرض الصدام؟ ولما كان الإسلام بما يحمل من قيم ومثل وروح قرآنية إلهية هو الدين الثابت من حيث عقيدته ونبوته وشرائعه وتطلعاته وشخصيته فإنه من المحتم سوف يحارب لأنه يقف صخرة عثرة دائمة أمام سيطرة الاقتصاد والثقافة والفكر، أمام الظلم والطغيان، أمام الإباحية والفوضوية الاجتماعية.

إن العولمة المفترضة من قبل الغرب لا تريد حواراً أو صداماً، إنما تريد تصفية للثوابت القيمية الدينية، وتصفية للتاريخ، وتصفية للتراث الإسلامي الذي يتراكم كمّاً ونوعاً منذ أربعة عشر قرناً وحتى الآن.

ولأن الغرب يفتقد لما يسمى حضارة أطلق على تقدمه التكنولوجي الحضارة العلمية المعاصرة، وهو يدرك أن الحضارة مادة وفكر عمران وثقافة، عقيدة وبناء وأنه حين يطرح مرةً حوار الحضارات فإنه يضع نفسه موازياً أو أعلى من مواز للحضارة العربية الإسلامية، وحين يطرح مرة أخرى صدام الحضارات فإنه يعني صدام القيم المادية المتوحشة مع القيم الإسلامية الروحية الإنسانية، ويفترض بعض الذين أغوتهم المقولات الغربية أن الحوار مع الغرب هو واجب على الشرق لأن أهل الشرق هم المستفيدون من مفاهيم الديموقراطية والحرية، فالغرب الديموقراطي أعطى للإنسان حقوقه الإنسانية جميعها، وعلى المجتمع العربي أن يتقبل هذه المفاهيم لأنه بحاجة إليها حتى يتخلص من كل أشكال الديكتاتورية وقمع الحريات.

وكل ذلك ليس بعيداً عن السياق العام لمفهوم العولمة الذي يطرحه الغرب حتى يتخلص من كل ما يسمى حواراً أو رداً على الهيمنة الغربية.

وعلى نفس الطريق فإن آليات التمهيد لتلك العولمة التي يريدونها تفترض أن يكون في أيديهم كافة وسائل الإعلام، وسائل إعلام غربية، ووسائل إعلام صهيونية، وإعلام تغريبي ينفذه أبناء العرب والمسلمين كصدى لصوت الإعلام الغربي والصهيوني.

وفي هذه الحال فإن من المحال أن يرضى العقل العربي أن يكون صدى لما يقوله العقل الغربي، وفي هذه الحال لابد من الصدام ولابد من الصراع، الهوية العربية الإسلامية في مرمى التهديد بالتلاشي، التراث العربي الإسلامي مطلوب منه أن

يُنسى تماماً، شخصية الرسول محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجب أن تُمحى من الذاكرة، القرآن الكريم يجب أن تحذف منه جميع الآيات التي تتناول بني إسرائيل، أو تتناول الجهاد والحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

التاريخ كله يجب أن يمحى، معارك الشرف والجهاد من أجل تحرير الأراضي المغتصبة يجب أن تشطب فلا يرموك ولا حطين ولا خيبر ولا قريظة ولا قادسية ولا غيرها.

هكذا يفترض الغرب اليوم أن يكون العالم العربي والإسلامي، لكن الأمة العربية والإسلامية وعلى الرغم من كل ما يسود فيها من مظاهر الضعف والتفسخ لا يمكن أن تنسلخ من جلودها وتراثها وعقيدتها وتاريخها، فلا بد من أن تدافع كل أمة عن هويتها وشخصيتها، وهذا الدفاع سيؤدي حتماً إلى الصدام مع الغرب وعندها يفترض الغرب ـ كما هو يفترض اليوم ـ أن صدام الحضارات لا بد أن يحدث إن عاجلاً أو آجلاً، متناسياً أن هذا الصدام هو الذي صنع أسبابه ومسبباته، ودبر خطوط مواجهته، فلا الصدام حتمية قدرية إنما هو تدبير النفس الغربية والعقلية المستعلية والمتعالية، ولا العولمة قدر إلهي افترضه الله علينا إنما هي آلة متوحشة تكتسح الهوية كما تكتسح الاقتصاد، وتدمر الشخصية كما تدمر الحدود بين الخير والشر، وتخلط بين الحرية والفوضى، وبين الكرامة والامتهان، وبين الشرف والرذيلة، وبين الأسرة الشرعية وزواج المثلين، وبين الشهامة والخيانة، وبين مدارس الدين والأخلاق ومدارس تعليم الجنس والرقص وعلب الليل القذرة.

أي حوار وأي صدام؟ هل الغرب يتخلى عن فوقيته ويتنازل عن عنصريته وعنجهيته وطموحاته في السيطرة على بترول العالم وصناعة تكنولوجيا العالم؟ هل يتخلى الغرب عن تفكيره بأنه من عرق أنقى وعنصر أرقى؟ وعندما يتخلى الغرب عن هذه المفاهيم يبسط على طاولة البحث مفهوم الحوار، وإلاّ فإنه بهذه العقلية يفرض الصدام حتماً، فليس البشر مخلوقات من مستوى أدنى ولا حضارات الشعوب نفخة ساحر كاذب تتلاشى بمجرد نفخة أخرى.

لقد بدأت حضارة المسلمين ترسخ عمرانها وقيمها وعلومها وفلسفاتها منذ أربعة عشر قرناً، والشواهد العمرانية والعلمية والفلسفية والقيمية ما تزال حاضرة للعيان والعقول شاهدة على أن في هذا الحوض العربي الإسلامي أمة حية لم تمت ولن تموت في ظل عولمة لا يعرف منها إلا إلغاء الحضارات وقيمها، وإلغاء العقائد ومبادئها.

وإذا كان الغرب يرى في حضارة الإسلام وقيم الإسلام عقبة قوية في طريق اكتساحه للعالم فإنه سيسعى حتماً وبكل ما أوتي من عنهجية وقوة مدمرة وإعلام وإغراءات لتدمير هذه العقبة، وهذا التدمير حسب قناعتنا لن يتم، لأن الصدام الذي يفرضه الغرب هو صدام الشر بالخير وأنى للشر أن ينتصر مهما ظهر في بدايات الصراع من نصر كاذب له على الخير وقيم العدالة الحقيقية التي رسخها القرآن الكريم كمفهوم صالح لكل الشعوب التي تريد الخير لأبنائها والسعادة لبني البشرية بأسرها، إن النصر القادم بعد هذا الصدام سيكون إنسانياً شمولياً، وليس قومياً أو وطنياً ضيقاً، لأن حتمية انتصار الخير ليست فلسفة وضعية وقوانين بشرية، إنها كلمة الله التي أراد لها أن تكون حاضرة موجودة على الأرض كلها.

ومن هنا فإن إضاءة الموضوع تحتاج لوقفة متأنية، ورجعة إلى الوراء، ولنظرة للمستقبل ننظر للحضارة ومكوناتها، وننظر للأديان وتداعياتها في النفوس والعقول والمواقف، وننظر إلى الثقافة قديمها وحديثها، وإلى الهوية التي احتشدت في عجينتها كل تلك الثقافة والحضارة والدين.

من هنا فإن المشكلة برمتها ترتبط بالإجابة عن سؤال مشروع من نحن؟ ما هويتنا؟ حتى نقرر أن الحضارة ستتصادم مع التكنولوجيا وتنتصر عليها، أو تتحاور معها إذا وجد متسع من الوقت للحوار.

الفصل الأول

1 ـ وقفة مع الهوية .
2 ـ حوار الثقافات ، حوار الحضارات مبادئ أولية .
3 ـ وقفة أخرى عند هوية أخرى .
4 ـ القوة والحضارة .
5 ـ كيف نتعامل مع التاريخ ونحن نطرح مفهوم الحوار .
6 ـ كيف يرى الغربيون التعامل مع التاريخ .

وقفة مع الهوية

قبل أن ندخل في الحوار من نحن؟ ومن هو الآخر النقيض؟ من يمتلك الهوية؟ ومن يبحث عن هوية؟ وهل مستقبل البقاء والوجود مرهون بمن له هوية؟ وهل عدم البقاء والوجود مرهون بمن ليس له هوية؟ من يستطيع أن يناقش صدام الحضارات أو حوارها؟ هل هو من يمتلك الهوية أم فاقدها؟ قد نعقد البحث فيصبح في إطار الفلسفة الجدلية التي قد لا تصل إلى حل مقنع تماماً، وقد نبسط الأمور فنحسمها ونستريح.

فمنذ أكثر من ثمانين عاماً والهوية العربية الإسلامية تتعرض للأزمات والاهتزازات والضربات، لكن الهوية تبقى الهوية لأنها ليست نتاج شخص أو قرن من الزمان.

فهي بالمحصلة تلك الملامح الراسخة منذ حمل العرب راية الإسلام العالمي الإنساني، ورسخوا مبادئ المساواة والعدالة بين الأفراد والشعوب.

ومنذ زمن بعيد والحركة الصهيونية تبحث عن هوية لليهود فلا تجد، وبقيام الكيان الصهيوني ظن بعض مفكري الصهيونية أن مشكلة الهوية اليهودية قد حُلت، ولم تمضِ الخمسون عاماً الأخيرة حتى أسقط في أيدي زعماء الحركة الصهيونية، وراحوا يبحثون من جديد عن هوية تربط اليهودي بأرض فلسطين، وكأن كل الجهود التي بذلت من قبل الحركة الصهيونية ذهبت أدراج الرياح، فلا استطاعوا أن يخلقوا القناعات لدى اليهود بأن أرض فلسطين هي أرض الميعاد حقاً، ولا استطاعوا أن يكيّفوا اليهود مع ملامح هوية حاولوا أن يصنعوها من خلال القوة والاقتصاد والاستيطان والإرهاب والبطش والربط بالعالم الغربي اجتماعياً ونفسياً وتكنولوجياً.

من هنا كنا قد طرحنا في البداية سؤالاً يقول: من نحن؟ ومن هو النقيض الآخر؟

وإذا كان لا بد من التبسيط فأننا نقول: إن صراعنا اليوم مع قوى الصهيونية وحلفائها هو صراع من يمتلك الهوية مع من يبحث عن هوية.

ونعتقد أن من لا يمتلك الهوية مهما امتلك من إمكانات مادية وتكنولوجية لن يبقى، وسيفقد وجوده مادام يواجه من يمتلك هوية راسخة قديمة قدم التاريخ وإن

حاربه الظرف فبات ضعيفاً من حيث الإمكانات العسكرية والتكنولوجية أمام الطرف الآخر، وإذا كان لا بد من الانتقال من التبسيط إلى البحث فإن بين أيدينا حيثيات عديدة، لا بد من إعادة قراءتها قراءة واعية حتى نجيب عن الأسئلة التي طرحناها.

من نحن؟ ما موقفنا من حوار الحضارات أو صدامها؟

يبدو أن السؤال يجد عشرات الأجوبة بعدد أصحابها، ولكلٍ أن يقول عن نفسه من هو، ولكن من الصعب أن يقول من نحن كأمة وكشعب عربي، فإذا أخذنا بتحديد هويتنا الموجودة عبر الزمن ونحن ننظر إلى الأطراف النقيضة في العالم وجدنا أنفسنا في إطار هوية عربية إسلامية لا ننفك عنها ولا تنفك عنا، ونحن نفهم هويتنا من خلال الانتماء إلى هذه الأرض، وإلى تاريخها، وإلى عقيدتها الإسلامية، وإلى ما أنتجته من حضارة وثقافة صُدِّرَت إلى العالم في نتاجات العمران والطب والفلك وبقية العلوم والثقافات الفكرية والأدبية وغيرها، وكذلك من خلال استمرارنا كبشر، وكنتاج عقلي وفكري فوق هذه الأرض وعبر جدلية التاريخ الخاص بنا.

وأعتقد أننا حين نطرح هويتنا في هذا المعيار لا نجد من يقول غير ذلك إلا إذا كان ممن يرفضون التاريخ والعقيدة، ويرفضون الانتماء للحضارة العربية الإسلامية بكل تجلياتها المادية والمعنوية.

ولربما نجد من يتمردون على هذه الأمة فيرفضون الانتماء لها، ولكن ليس هناك ما يزعج كثيراً لأن الهوية العربية والإسلامية قدر حتمي وليس اختياراً فردياً يظهر متى يشاء صاحبه ويختفي متى أراد اختفاءه، وأعتقد أن مفكري هذه الأمة أضاعوا أو ضيعوا الوقت الطويل وهم يبحثون عن ملامح هوية لا تناقض في أساسياتها، فتارة يرفعون العروبة فوق الإسلام، وتارة يتعصبون للإسلام على حساب العروبة، وفاتهم أن العروبة والإسلام لا ينفصلان لأنهما نسيج واحد، وفاتهم الفهم الصحيح لقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: 2].

فهذا القرآن الكريم الذي هو لأمة إسلامية واسعة الانتشار أنزل باللغة العربية الشريفة، وهذه اللغة العربية أهم ملمح من ملامح العروبة.

كيف يمكن فصل العروبة عن الإسلام، تلك هوية كُتب لها أن تبقى على الرغم من كل الحروب النفسية والفكرية والجغرافية التي يشنها أعداؤها عليها.

نحن لا نبحث عن الهوية لأنها نحن، ونحن الهوية ما دمنا نمتلك لغتنا وتاريخنا وعقيدتنا وأرضنا، وليس من مدعاة للقلق والخشية من المستقبل الذي يريدون أهم ملامحه حوار الحضارات، وعندما نطرح سؤالنا من هو الآخر النقيض؟ فإننا بداية نضع وصف النقيض حتى نبين أن الكيان الصهيوني هو النقيض لأمتنا ووجودنا، وهو الطرف الأكثر خطورة، فنحن أصحاب هوية لا نخاف حواراً مع من يمتلك حضارة وهوية لأنه بالمحصلة يمتلك شخصية لها ملامحها، يمتلك تراثاً وتاريخاً وأرضاً، لكن الكيان الصهيوني لا يمتلك أرضاً، ولا حضارة، وليس صاحب ثبات في مكان حتى يؤسس حضارة يشهد لها علم الآثار والتاريخ الإنساني، ويهود الكيان لا يمتلكون هوية يقاتلون من أجلها، فهم يقاتلون ليس دفاعاً عن هوية، إنما لأنهم جبلوا على حبِّ العداء والاعتداء، وعلى التماهي مع الفوقية والعنصرية، وهم لا يعرفون كيف يحبون الإنسانية أو الحوار معها، ولا يفهمون إلا مسألة واحدة وهي: أن اليهودي مقدس وغيره من الخلق ليس إلا بهائم أو مخلوقات دون البشر.

وإن قالوا: إن اليهودية هويتنا، قلنا: إن الدين اليهودي ليس هوية، ففي الكيان الصهيوني اثنان وثمانون عرقاً، واثنتان وثمانون جنسية، واثنان وثمانون لوناً ولغة، فكيف يكون لهؤلاء هوية موحدة وهم يعودون بأصولهم وفروعهم إلى اثنين وثمانين عرقاً أو جنساً؟

ثم إذا كان الدين اليهودي هوية فهي قائمة على فلسفة وضيعة منحرفة، فالتوراة كتاب وضعي أُلف على مدى مئات القرون حتى اكتمل بشكله الحالي، وليس التوراة توراةً واحدة، فهناك التوراة العبرانية، والتوراة السامرية، والتوراة اليونانية، فأي توراة تمنح اليهودي هوية؟

وإذا كان الفكر الصهيوني يظن أنه يوحد اليهود من خلال فلسفة الحركة الصهيونية فإنه بعد بضع عشرات من السنين يعترف هذا الفكر أن الصهيونية لم تستطع حتى هذه اللحظة أن تخلق روابط حقيقية بين اليهودي كفرد وبين أرض فلسطين، وقد كان شعار شارون رئيس وزراء الكيان الصهيوني الحالي أنه سيعيد

لليهود ارتباطهم بأرض فلسطين، وهذا الشعار ما كان ليُقال لولا وجود أزمة انتماء حقيقي لدى اليهود المتواجدين فوق أرض فلسطين بالاحتلال والقوة.

ولعل ما زاد في أزمة الانتماء لدى الصهاينة في فلسطين المحتلة الانكفاء العسكري الذي بدأ منذ عام (1982م) وحتى الآن، فاليهودي الذي يعيش في مستوطنات الجليل أدرك أن هناك مقاومة عربية إسلامية تستطيع أن تهزم جيشه وتقول له: لا أمان لك فوق أرضنا، واليهودي الذي يواجه الانتفاضة المباركة أدرك أنه لا يمكن العيش في هذا الجحيم، وأدرك أن هذه الأرض يعيش عليها شعب له جذوره وهويته ويرفض التدجين والاحتلال، لقد فات الصهاينة أن ينتبهوا أن العمل على صنع هوية لا يكون من خلال اعتبار أن الشعب العربي ميت أو مخدّر، وتجربة الصهاينة مع فلسطينيي (1948م) أثبتت أن الكيان الصهيوني لا يمكن أن يحقق هوية لليهود، فالأرض ترفضهم لأنها عربية الجذور، والثبات في مكان مفقود تموج به الزلازل فلا يمكن أن يصنع حضارة أو ثقافة تعترف بها الشعوب الحضارية وتستفيد منها وتتثاقف معها.

ولعل الدعوات الجديدة التي يطلقها بعض المؤرخين والمفكرين اليهود تحت شعار ما بعد الصهيونية تفصح عن أزمة حقيقية، أزمة البحث المتواصل عن صيغة تخلق ما يسمى هوية لليهود المتواجدين في فلسطين المحتلة.

وجميعنا يذكر تلك الشعارات الانتخابية التي رفعها باراك وغيره كشعار (إسرائيل واحدة) وشعار شارون (إعادة الربط بين اليهودي وأرض إسرائيل) وغيرها من الشعارات التي أصبحت تعبر عن هاجس خوف شديد من المصير الذي ينتظر اليهود، المصير الذي سببه فقدان الهوية، فقدان الشخصية، فقدان المعادل الموضوعي للقوة والتفوق العسكري.

فالقوة العسكرية لا تصنع هوية، ولا التجمع الأمني المتوتر يصنع شخصية، ويحضرنا الآن ما جاء في آخر رواية (غبار) للكاتبة الصهيونية يائيل دايان على لسان بطل الرواية (إن كل ما صنعناه وكل أحلامنا ليست إلاّ غباراً بغبار).

نعود فنختصر المعادلة ونقول: إن الصراع سيؤول إلى انكسار القوة الصهيونية ومشروعها الاستعماري لأنها لا تملك مقومات الهوية، ولن تكون في النهاية إلا صورة من صور القوى الأخرى الأمريكية والأوروبية التي بدأت تتآكل من داخلها، وتظهر فيها الاهتزازات النفسية والمرضية والانحراف الكلي عن المسؤولية الإنسانية التي كلف الإنسان بها منذ بدء الخليقة وحتى الآن.

لقد خُلق البقر والغنم لترعى في أرض الله الواسعة، وتنتج لبناً سائغاً شرابه، ولم تخلق كي تتغذى على البروتينات الصناعية فتنتج مرض جنون البقر والحمى القلاعية، ولا ندري متى ينتج العالم الغربي جنون البشر حتى يفقد الإنسان هويته ويصبح كاليهودي التائه، لا أرض تتحمله، ولا سماء تستقبله، ولا خلائق الأرض تستطيع التعامل معه.

حوار الثقافات... حوار الحضارات... مبادئ أولية

بين غموض المفهوم وتناقض الرؤى اشتدت الدعوة كثيراً إلى ما يسمى حوار الثقافات، أو حوار الحضارات، ولا سيما بعد تشابك الأفكار وتعقيدات الرعب من صراع قد يأخذ منحى حضاري يشمل الجانب العقيدي أو الحضاري أو سواهما.

ونحن ـ العرب والمسلمون ـ نطرح حوار الثقافات من منظورنا المستند على قاعدة الانفتاح على الآخرين، والغربيون أو بعضهم يطرحون حوار الثقافات من منظورهم المستند على قاعدة أنهم الأسمى ثقافياً والأقوى حضارياً، وعلى الطرف العربي الإسلامي أن يتقبل الثقافة الغربية بكل مفاهيمها ومعاييرها الأخلاقية والفكرية.

ويرى الغرب أن قيم الحرية والديمقراطية الغربية يجب أن تسود ويتمثلها الجانب العربي والإسلامي ويسعى إلى تطبيق آلياتها في المجتمعات العربية والإسلامية.

ونعتقد منذ البداية أن ما يقوله بعض المسؤولين الغربيين الكبار عن الإسلام وقيمه لا ينفي وجود وجه آخر ينفث سمومه صراحة ضد العروبة والإسلام، ويكافأ بأعلى جائزة دولية، فالأكاديمية السويدية منحت جائزة نوبل للروائي الهندي الأصل البريطاني الجنسية نيبول ليس لأن أدبه رفيع المستوى بل لأنه يعادي العرب والمسلمين.

وما نود قوله في هذا الإطار إن الدعوة لحوار الثقافات تحاول أن تنسف مفهوم حوار الحضارات، وقد يقول قائل: إن الثقافات جزء طبيعي من الحضارات، فلا يمكن أن تكون الثقافات بمعزل عن الحضارات، ومن السذاجة أن تفصلهما عن بعضهما، إذ أن الثقافة جزء مكون للحضارة بالطبع، لسنا في هذا مخالفين للمفهوم التقليدي للحضارة بوجهيها المادي والمعنوي، ولكننا ندرك الآن لماذا كثر الحديث عن مصطلح حوار الثقافات وتناسى الكثيرون مصطلح حوار الحضارات.

فيبدو أن حوار الحضارات وصل إلى طريق مسدود لا سيما بعد أن روجت أوساط كثيرة مفهوم صدام الحضارات الذي تصوره هنتغتون أو فوكوياما أو غيرهما من الذين صُوروا لنا وكأنهم أنبياء يتلقون وحي السماء، فحوار الثقافات يختصر الطريق أكثر حسب رأي بعض الغربيين ولا سيما أننا لن نصل إلى تفاهم كامل حول دور الإسلام الحضاري في الغرب والعالم وماله من فضل على أوربا أيام الأندلس والدولة العباسية في أوج مجدها الحضاري.

إذن فليكن حوار الثقافات لعلنا نحرك المجتمعات باتجاه تفاهم فكري ثقافي بين الشرق والغرب.

هل يعني حوار الثقافات التوجه نحو حوار معاصر بين الثقافات السائدة بمعزل عن الثقافة الإسلامية التراثية برمتها؟ أو التراثية الشرقية بشكل عام؟ هل يعني حوار الثقافات مجموعة الشعارات الغربية كالحرية والديموقراطية كما يفهمها الغرب؟ هل ما يطرح على مائدة الحوار معروف ومحدد أم هو غامض ومشوش الملامح؟ ما هي عناصر الثقافة وأجناسها كما يطرحها الغرب؟ ثم ما هي عناصر الثقافة وأجناسها كما نطرحها؟.

ما الثقافة العربية الإسلامية التي يفترضها الغرب لنا حتى نحاوره بشأنها ونحاوره بمدى تقبله لثقافة عربية إسلامية نفترضها نحن بمعزل عما يراه أو يتصوره؟

إذن فالحوار لا يتوقف عند شعار فقط، إنما يتشعب ويتسع ليكون منظومة متكاملة من الفكر والأدب والفن وحدود الفهم لآفاق القيم الكبرى.

وفي هذا السياق لا بد من أن ندرج مجموعة مصطلحات ثقافية كبرى يندرج في سلمها عدد كبير من القضايا الثقافية القابلة للحوار.

كيف يتشكل مفهوم الحرية في العقلية الغربيـة ، وكذلـك كيـف يتشـكل مفـهوم الحرية في العقل العربي الإسلامي ؟

فضمن ما طرحه الفكر الغربي منذ الثورة الصناعية قبل عدة قرون وحتى الآن ، تراكمت مفاهيم الحرية وغيرها في إطار غربي يصلح لتوجيه العقليـة الاستعمارية فـي استعباد الشعوب ، وشـن الحـروب ، واستغلال ثـروات الأمـم وتسـخيرها لمصلحـة المجتمعات الغربية الصناعية .

وإذا كان هذا قد رافق مرحلة الاستعمار وألغي الآن حسب بعـض الآراء إلا أن التراكم الفكري الثقافي على مدى قرون لم يستطع أن يغسل العقول الغربيـة كليـة مـن آثار عقدة التمييز ، وتصور الفروق العرقية والنفسية بين الشـرق والغـرب ، فمـا نفهمـه في إطار الحرية بالدرجة الأولى أن يكون أي شعب آمناً في أرضه ، لا يخشى العـدوان أو الاحتـلال ، فـهل يـرى الغـرب أن الحريـة لشـعب فلسـطين تقتضـي أن يكـون كـل فلسطيني موجوداً فوق أرضه؟ أم يرى الغرب أن هنـاك خطوطـاً حمـراً لـهذه الحريـة لا يجب الاقتراب منها؟ كيف يُفهم مفهوم الحرية حسب الرؤية الغربية؟

لنقل إن الغرب يطرح على مائدة الحوار حريـة التعبير ، حريـة التصـرف ، حريـة التنقـل ، حريـة السـلوك ، إضافـة للحريـات السياسـية المتمثلـة بالبرلمانـات والأحـزاب والانتخابات الحرة النـزيهة .

فإذا كان مفهوم الحرية حرية التعبير يعني ذلك فهل يسمح لأي مفكر أن يـهاجم الأساطير التوراتية اليهودية ، والعنصرية التلمودية اليهودية؟

لماذا حوكـم غـارودي عندمـا عبر عـن رأيـه فـي المحرقـة اليهوديـة الكاذبـة؟ لماذا هاجموا الأب بيير والمؤرخين الفرنسيين الذين رفضوا مقولة الهولوكست؟

وهل تسمح بريطانيا أو غيرها أن يخـرج مفكـر يـهاجم اليهوديـة والبروتسـتانتية كما هاجم سلمان رشدي ونيبول العرب والمسلمين؟

فنحن نعتقد أن الغرب يفهم حرية التعبير على أنها التشـهير بكـل قيـم الشـعوب وتراثها وعقائدها دون المساس بأي جانب يهودي أو بروتستانتي ، فأنت عندما تفضـح

زيف الصهيونية وعنصريتها فستكون لا سامياً أو عنصرياً، وسوف تحاكم حسب القانون الدولي.

أما حرية التصرف وكذلك السلوك فإن أول ما يتبادر إلى الذهن تلك الحرية الفوضوية في الممارسات الجنسية الإباحية المنتشرة كالنار في الهشيم، فإن كان مفهوم حرية التصرف والسلوك يعني وجود ثلث أطفال روسيا من اللقطاء، فإن هذا يعني أن المفهوم ليس حرية التصرف والسلوك، إنما هو تدمير السلوك والتصرف الإنسانيين، فإذا قيدنا نحن العرب والمسلمين مفهوم التصرف والسلوك بمجموعة روادع أخلاقية إنسانية نُعتبر ضد حرية التصرف والسلوك.

أما الحريات السياسية وملحقاتها فإن آلياتها تخضع لتقويم نسبي لا مطلق فيه، ففي أمريكا وبريطانيا ومعظم دول الغرب لا نرى سوى حزبين يتنافسان على الحكم، فإما محافظون أو عمال، وإما جمهوريون أو ديموقراطيون.

وإذا كان حوار الثقافات ينصب على مجمل الإنتاج الإبداعي كالأدب والفن بكل أشكاله فنحن العرب والمسلمين أكثر الشعوب تعاطياً مع الأدب العالمي، ولا نعتقد أن مثقفاً لا يعرف ما ينتجه الأدب الغربي من رواية محترمة أو مسرحية متقدمة، وإذا عدنا إلى مجمل الإنتاج الأوربي الروائي منذ أكثر من ثلاثة قرون نراه حاضراً في قراءاتنا وأفكارنا وإعجابنا، ومن منا لم يعجب بما قدمه تشارلز ديكنز من روايات، ومن منا لم يقرأ الرواية الروسية على أيدي ديوستوفكسي وتولستوي وغوركي وغيرهم، ومن منا لم يتأثر عندما قرأ البؤساء لفكتور هيغو، ومن منا لم يندهش لمسرحيات شكسبير مثل هاملت والملك لير وغيرهما؟ فإذا كان الأدب الأوربي حاضراً في حياتنا الثقافية فأين الأدب العربي في حياة الغربيين؟

إن المهم في حوار الثقافات أن يكون هناك قواسم مشتركة في القيم الثقافية أدبية كانت أو فكرية، وهذه القواسم لا بد أن تستند إلى قيم إنسانية مطلقة لا تفسر حسب الهوى القومي، أو حسب الحس الفوقي الذي يقزم الآخرين، وينظر لهم نظرة دونية، إن كان على مستوى تفكيرهم، أو على مستوى إبداعهم الأدبي والفني، وبعد كل هذا وذاك فإن حوار الثقافات على الرغم من آفاقه الشائكة وتعقيداته

الشكلية والمعنوية نرى فيه طريقاً استيراتيجياً للتفاهم الإنساني، وليس موسماً يترافق مع الأزمات، وقد بدا أنه كلما اشتدت الأزمات بين الغرب والشرق وحدثت مواجهات وحروب خرج لنا بعض المتقوّلين الغربيين بقصة حوار الحضارات، أو حوار الثقافات، وكذلك حوار الأديان.

وكأن ما يفرض الغرب من حروب وأزمات يستلزم حملة إعلامية واسعة شعارها الحوار بين الشرق والغرب، وكأن الحوار لا يصلح إلا بعد الأزمات والحروب، ولو كان الغرب يرى جدوى حقيقية للحوار بين الثقافات لما ربط هذا الحوار بالأزمات، ولكان موضوع الحوار ذاته في أولياته ومقاصده الإنسانية العالمية.

على أية حال فنحن ـ العرب والمسلمين ـ نؤمن بالحوار مع أبناء الإنسانية كلهم من منطلق تعلمناه من قيمنا العقيدية أولاً، والحضارية ثانياً، ولم نكن يوماً منغلقين بل إننا قد نبالغ في الدفاع عن الحوار استناداً إلى منظور قرآني إنساني يقول تعالى فيه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ ولعل معنى التعارف هنا لا يحتمل العداء والفوقية، ولا يستغل الضعيف ويشد أزر القوي والظالم.

ولعلنا هنا نتسائل لماذا يُقبِل الشعب الأميركي على اقتناء نسخ من القرآن الكريم وكتب تتحدث عن الأمة العربية والإسلام، أليس ذلك دليلاً على أن هذا الشعب يجهل الكثير عن عقيدتنا وقيمنا وحضارتنا وتراثنا، وهذا ما كنا نقصده بالتعارف بين الشعوب، فإذا أدرك الشعب الأمريكي بفهم واع معاني الإسلام وحضارة العرب والمسلمين لا بد من أن يتخطى ردة الفعل النفسية الآنيّة، ولا بد من أن ينتقل إلى ممارسة حوار بناء مع الشرق العربي الإسلامي، وليس الشعب الأمريكي وحده القادر على فعلٍ حواري إيجابي، بل إن الشعوب الجاهلة بحضارتنا وعقيدتنا وتراثنا سوف ترى أن حضارة الشرق ودين الشرق هي حضارة إنسانية داعية إلى حوار الشعوب والثقافات، وعقائد متسامحة تنكر الاستعلاء والفوقية والعدوان والحقد وتقزيم الآخرين.

من معوقات الحوار

طرحنا قبل صفحات قليلة مفهوم الهوية، وبينّا أن الهوية العربية الإسلامية هي هوية عقيدة وحضارة منفتحة وليست منغلقة.

وهذه الوقفة الأخرى تتعلق بالانجلو ساكسونية التي تمثلها الولايات المتحدة وبريطانيا والشعوب التي تنتمي إلى هذه الثقافة، فمتى نعود لفتح ملف الحوار الحضاري أو الصدام لا بد لنا من التعرف على الهوية الأخرى المقابلة، وهذه الهوية هي الأكثر بروزاً في هذا الوقت بالذات، ولعل السبب يكمن في أن أمريكا وبريطانيا تقودان حملة الحرب على الإسلام والعرب، وفي نفس الوقت تخرج من قلبها صرخات المفكرين والسياسيين الداعية إلى الصدام أو الحوار.

والواقع أن بعض القارئين والدارسين يُرجع تفرد الولايات المتحدة الأمريكية باتخاذ القرارات المرتبطة بالأزمات والمشاكل الدولية العالمية إلى كون هذه الدولة تمتلك أكبر ترسانة من الأسلحة التقليدية وغير التقليدية، أو إلى كونها تمتلك القدرة على السيطرة على اقتصاد قوي ومؤثر في كافة اقتصاديات دول العالم، وقد يُرجع بعضهم ذلك إلى العاملين السابقين، إضافة لعوامل كثيرة تندرج فيهما أو تدور حول محوريهما.

لكن ما يظهر من عوامل هو غير ما يستتر، وما نراه ونحلله بشكله العسكري والاقتصادي هو غير ما نراه عبر تاريخ هذه الدولة الذي لا يتجاوز الأربعمائة عام فقط، وهو غير ما نجده من الأسس الفكرية العقدية.

فالولايات المتحدة تشكلت بعد اكتشافها من عناصر أنجلو ساكسونية كان الغالب عليها العنصر الإنجليزي الأبيض الذي يشمل الإنجليز واليهود الغربيين.

وعندما بدأت حملات الإبادة بحق السكان الأصليين من الهنود الحمر شاركت فيها العناصر الإنجليزية والفرنسية والغربية بشكل عام، وكما هو معروف فإن الإسبان والبرتغاليين شكلوا قاعدة أخرى للتوسع والإبادة في ما يسمى أميركا اللاتينية.

وإذا تناولنا بالفحص التاريخي عناصر الموجودات الأولى التي احتلت الأرض الهندية وجدناها تتراوح بين الإنجليز والفرنسيين والهولنديين والطليان، ورافقت

حملات الإبادة خطوات أخرى لا تقل خطورة وهي حملات الاسترقاق في أفريقيا، والتي كان أهم تجارها هؤلاء الغربيين من بروتستانت ويهود، وجميع الوثائق التاريخية تشير إلى ذلك دون مواربة أو تعصب أو اتهام، راحت الولايات المتحدة تتشكل حتى جرت أحداث الحرب الأهلية الأمريكية بين الشمال والجنوب، وانجلت عن تشكيل ما يسمى الولايات المتحدة الأمريكية، ومنذ انتصار الحلفاء على ألمانيا ودول المحور في الحرب العالمية الثانية بدأت تبرز الولايات المتحدة كدولة عظمى لا ينافسها سوى الاتحاد السوفياتي السابق.

ومع انهيار الشيوعية أصبحت هذه الولايات المتحدة القطب الأقوى في العالم، أما بريطانيا وفرنسا وكافة الإمبراطوريات الاستعمارية الحديثة فقد أصبحت تابعة تدور في فلك أمريكا في المجالات السياسية والعسكرية وغيرها.

وعلى مدى العقود القليلة الماضية أصبح صوت الولايات المتحدة هو المسموع وحده، سواء كان ذلك على مستوى منظمة الأمم المتحدة، أو منظمة التجارة العالمية، أو على مستوى إقليمي في كافة أقطار الدنيا، وبات من الواضح أن أي معارض لسياسة هذه الولايات يحشر في الزاوية ويتهم بألف اتهام واتهام، ويضرب في عقر داره.

كل هذه الحيثيات الواقعية التي نلمسها ونعيش رؤيتها، وسماع أصواتها تعيد لنا النظر في ما يكمن وراءها، وتعيد إلى أذهاننا عدة أسئلة وأجوبة نستطيع من خلالها أن ندرس الشخصية الأمريكية المعاصرة، ونحرس المركّبات الفكرية والنفسية والعقدية التي صنعتها.

الأساس العقدي للفكر الأميركي

لو نظرنا إلى خارطة التوزع الديني المذهبي في الولايات المتحدة نجد أن البروتستانت هم القوة الأكبر والأكثر عدداً، وهم بشكل عام المهيمنون على قطاعات السياسة والحكم والاقتصاد والفكر الديني.

والبروتستانتية الأمريكية بمجملها تميل إلى أفكار جون كالفن الداعية الفرنسي البروتستانتي الذي طور ما جاء به مارتن لوثر متوافقاً مع موجة التوجه الاستعماري

الإحلالي في أمريكا، وقد قدم كالفن رؤية متكاملة للعقلية الغربية المتمردة على تعاليم المسيحية الكاثوليكية البابوية، لكنه تجاوز هذا التمرد ليضع أسساً عنصرية دينية يرى من خلالها أن العرق الأبيض هو أسمى عروق العالم، وأن البروتستانت أسمى المذاهب المسيحية، بل إنه أسمى الأديان كلها، وقد فسر كالفن الاسترقاق بأنه قدر إلهي، وعلى العبيد المسترقين القبول بهذا القدر.

ولما كان كالفن على صلة وثيقة بالتفسير الحرفي للتوراة فقد تبنى فكرة شعب الله المختار، لكنه جعلها خاصة بالعرق الأبيض والبروتستانتي تحديداً، إضافة إلى إيمانه بما يسمى شعب الله المختار اليهودي، وقد تبنى دعوته معظم القادة والمفكرين الذين بدؤوا حملتهم في أمريكا، وراحوا حسب زعمهم يطرحونها عرقياً على أهلها من الهنود الحمر، وظلت الأفكار الكالفنية ترتقي في الشخصية الأمريكية حتى أصبحت جزءاً من نسيجها العقلي والنفسي، وإذا تفحصنا الواقع الاجتماعي والسياسي الأمريكي المعاصر نرى أن هذا العامل لا يزال يتجسد بكثير من الأشكال.

فعلى سبيل المثال لا يجوز أن يترأس الولايات المتحدة سوى أمريكي أبيض بروتستانتي، وفي تاريخ أمريكا كله لم تشذ هذه القاعدة سوى مرة واحدة عندما أصبح جون كيندي رئيساً وهو كاثوليكي، ولا ندري إن كان مقتله نتيجة طبيعية للفكر البروتستانتي المتعصب والمتعاون مع أوساط صهيونية مشبوهة.

إن العرف الأمريكي الذي أصبح قانوناً غير مكتوب في لوائح الانتخابات الأمريكية هو الذي يسود العقل الأميركي، وكذلك المجتمع.

وعند النقطة الأساسية التي رسخها كالفن وهي أفضلية العرق الأبيض وتحديداً ذي المذهب البروتستانتي، توقف الفكر الأمريكي عن فهم أي فكر مغاير، وهذا ما جعله يظن نفسه على أنه محور البشرية باعتباره شعب الله المختار، ولهذه المحورية آفاقها من الشعور المطلق بالأفضلية والهيمنة والسيطرة والسيادة أو التسيّد، ولكي نفهم ذلك تماماً علينا أن نتذكر أن الولايات المتحدة الأمريكية تنظر إلى نفسها وكأنها إله مطلق، يجب ألا يُعارض في ما يقول أو فيما يفعل، وعلى الآخرين أن ينصاعوا

له إن كانوا راضين أو غير راضين، ولعل ذلك يتجسد عندما تقول أمريكا من لم يكن معنا فهو ضدنا، ولا توجد مساحة وسطى بين مع وضد إن صح التعبير.

ولهذا أيضاً ينظر قادة الولايات المتحدة للمجتمعات الأخرى نظرة دونية، وليس له أي اعتبار، وهذا ما ينطبق أيضاً على الهيئات الدولية كمنظمة الأمم المتحدة ومجلس أمنها، وقد أشار إلى ذلك فيما مضى الرئيس نكسون في كتابه العاشر تحت عنوان "ما وراء السلام" بقوله: إن علينا أن نطوّع الأمم المتحدة لدعم سياستنا، لا أن تكون مسؤولة عنها، وهي غير مقبولة تماماً فكرة أن تضع الولايات المتحدة جنودها تحت قيادة الأمم المتحدة لتمنح الأمن الجماعي فرصة العمل، فإن تعمل رئيساً إنما يعني أن تقبل تحمل المسؤولية المطلقة في حماية أرواح الجند، وسيكون من غير الحكمة بل من غير الأخلاق أن تسلم أرواح الجنود الأمريكان إلى أيادي البيروقراطية الدولية التي تنتجها الأمم المتحدة، إن الأمين العام للأمم المتحدة لم ينتخبه الشعب الأمريكي.

وفي السياق الأعمق فإن مكونات الشخصية الأمريكية الفكرية تستند في جانبها العقيدي استناداً قوياً إلى الدمج بين الرؤية البيوريتانية البروتستانتية والرؤية اليهودية قبل أن تتشكل الفكرة الصهيونية اليهودية ذاتها.

فمنذ ما قبل منتصف القرن السابع عشر ترسخ لدى المستوطنين الأمريكيين نموذج روحي لما يسمى العهد القديم العبري، وقد أطلق المهاجرون الأوائل إلى أمريكا على أنفسهم أطفال (إسرائيل) في طريقهم إلى الأرض الموعودة، واحتفلوا بيوم السبت كيوم راحة لهم، وكانت إحدى طوائف البروتستانت وتسمى (المورمونية) قد استقرت في ولاية (يلوتاه) وتدعي أنها تاهت في الصحراء الأمريكية العظيمة مثلما تاه اليهود في صحراء سيناء، واستقرت أخيراً في الأرض الموعودة في ولاية يوتاه، وغيرت اسم نهر كولورا إلى نهر باشان الموجود ذكره في التوراة.

وكانت مطاردة مهاجري أوروبا للهنود الحمر في العالم الجديد مشابهة لما جاءت به التوراة في مطاردة العبرانيين المزعومة للقدماء من الكنعانيين، وقد خلق التشابه في هذه التجربة قناعة بل فلسفة ووجداناً متشابهاً ومشتركاً بين الكيان الصهيوني والولايات المتحدة في العصر الحديث.

فالذين هاجروا إلى هذه البلاد في القرنيين السابع عشر والثامن عشر أبادوا معظم سكانها الأصليين من الهنود الحمر واستوطنوا مكانهم، والذين هاجروا من الصهاينة إلى فلسطين يتبعون كافة الأساليب لتشريد سكانها أو إبادتهم.

هل هناك أساس أخلاقي للفكر الأمريكي؟

قد يقترب الأساس العقدي من الأساس الأخلاقي في بناء الفكر المعاصر في أمريكا، ولكن ما يظهر في المجتمع الأمريكي من الخرافات ليس مرده إلى أساس عقدي بقدر ما مرده إلى أساس أخلاقي.

فعلى الرغم من تسيّد الولايات المتحدة اقتصادياً وعسكرياً إلا أنها من أكثر الدول افتقاراً للأخلاق، والتعليم.

يقول الرئيس السابق نيكسون: (لقد خاب أمل الداعين إلى سياسة النوايا، وأصابهم الإحباط من تفشي الأمية، وتلاشي الأخلاق الحميدة، والافتقار إلى أي عمق للحياة في أمريكا، وصدقوا حين اعتقدوا بأن جزءاً من المشكلة يكمن في الفلسفات المغرقة في المادية التي تتجاهل البعد الروحي للإنسان) وقد عملت ثقافة الستينات المضادة على خلق فراغ معنوي وروحي أضعف ركائز المجتمع الأمريكي، فقد ازدرت نخبته قيم الفضيلة التقليدية، وقد عاثت الثورة الجنسية عبثاً في المجتمع الأمريكي بارتفاع معدلات الطلاق، وتزايد المواليد غير الشرعيين، وتكاثرت العائلات ذات الأب الواحد، كما أفضى تمجيد تعاطي المخدرات والتي لم تكف الطبقة الوسطى عنها إلى المساعدة على ظهور طبقة متحضرة معدمة بصورة دائمة.

ويتابع نيكسون قوله: (إن سواد الأمريكان نزيهون ووطنيون ومغامرون لدرجة بعيدة، بيد أن النخبة الليبرالية تواصل التأثير على السياسة العامة، والسبب الرئيسي يعود حقيقة إلى أن الشعب الأمريكي جد مكترث لوجهات نظره فيما لم يعرض أصحاب الأفكار الأخرى استجابة صريحة أو ملزمة لحد مقنع، وليس بوسع الأمة السليمة أن تتحمل تناقضاً كهذا حاداً بين تطبيل النخبة وتفكير الشعب.

ولعل ما نلمسه عن كثب في المجتمع الأمريكي أن أفكار الميكافيلية انتشرت بشكل مريع في الفكر الأمريكي وسلوك الأمريكيين، وهي في بادئ أمرها لم تكن غائبة.

لكن انتشارها كفلسفة عامة للأمريكيين ظهر بهذا الاتساع والشمولية مع تنامي القوة الأمريكية، وتدخلها في شؤون الشعوب الخاصة، وطغت بشكل مريع مع انهيار الشيوعية وتفرُد الولايات المتحدة الأمريكية اقتصادياً وعسكرياً.

لقد حاول الفكر الأمريكي متمثلاً بزعماء البيت الأبيض ومستشاريه أن يُقنع نفسه ويُقنع الأمريكيين أن تسيّد الولايات المتحدة وتفردها ليس نابعاً من قوتها العسكرية والاقتصادية، إنما يعود إلى رضا الله عن أمريكا التي احتضنت شعب الله المختار، ودافعت عن الصهيونية دفاعاً مستميتاً على حد تعبير جيري فولويل القس البروتستانتي المعروف بشكل واسع في أمريكا وهو من زعماء دعاة الصهيونية غير اليهودية.

على أية حال فإن تجربة ما حدث بعد الحادي عشر من أيلول / سبتمبر عام 2001 لن تغيّر شيئاً من النظرة الأمريكية للعالم ولنفسها، لأن أمريكا أصبحت لا ترى إلا بعين واحدة، ولا تسمع إلا بأذن واحدة، وما عدا ذلك فإنه لا يُسمع ولا يُرى.

ولعل كل ذلك يقول لنا: إن الهوية الأمريكية التي تطفو على السطح هي هوية الأمريكي المتسلح عسكرياً واقتصادياً، أما أين هو الأمريكي صاحب الهوية الحضارية المؤهلة للحوار بين الحضارات والثقافات؟ فإن الجواب يقول لنا: إنه ليس موجوداً.

إذن كيف يتم الحوار؟ ومع من طالما أن التشكل الفكري والتكنولوجي الأمريكي لم يقترب من البناء الحضاري، ولم يرسخ القيم الفكرية الإنسانية وما إليها.

لقد برز لنا مما تقدم مفهوم الهوية بالنسبة لنا كعرب ومسلمين وبالنسبة للصهيونية والكيان الصهيوني، وتوقفنا عند الأنجلو ساكسونية باعتبارها هوية أخرى من الهويات التي يمكن أن تتصادم أو تتحاور، ونرى أن البحث في أسس الهوية الأنجلو ساكسونية يجرنا إلى موضوعات مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بها.

ونعتقد أن حوار الحضارات أو صدامها هو في أحد وجوهه صدام هويات، أو حوار هويات، فالهوية قد تكون أسسها فكرية عقيدية حضارية ممتدة عبر الزمن والجغرافيا، وقد تكون الهوية مؤسسة على القوة العسكرية وفكرة التفوق العرقي، أو السيطرة الاقتصادية، ومن هنا لا بد أن نطرح في هذا الإطار سؤالاً مشروعاً يقول:

هل تصنع القوة حضارة؟ وبصيغة أخرى هل من يمتلك القوة العسكرية المتفوقة قادر على صنع حضارة تتمثلها الإنسانية أو تحتذي نموذجها؟

القوة والحضارة

قد يفهم أن المقصود جدلية القوة والحضارة، لكن الذي نريد قوله سؤال يطرحه الوعي العقلي الذي ما وصل إلى ما وصل إليه إلا بعد تراكمات فكرية قد لا ندري كم هو الزمن الذي استغرقته حتى انفجرت بنا في هذا الزمن.

كيف نفهم الحضارة في هذا الإطار؟ كيف نفهم العلاقة بين القوة العسكرية التكنولوجية وبين الحضارة؟ وهل القوة كفيلة بأن تصنع حضارة إنسانية؟ وهل السيف المسلط على رقاب البشر يضمن أن يمتثلوا لخط حضاري ويسيروا في سياقه وبنائه المادي والمعنوي؟

قيل على لسان بعض المستشرقين المغرضين: إن العرب فرضوا إسلامهم وحضارتهم بحد السيف، وحين ننظر بشمولية وعمق إلى التاريخ الإنساني نرى أن العرب استطاعوا من خلال إسلامهم أن يبنوا حضارة إنسانية لكل من اعتنقوا عقيدتهم، فخرج من قلب هذه الحضارة علماء وفلاسفة اختلفت أصولهم العرقية وتوحدت حضارتهم لتكون أول حضارة إنسانية أذابت كل العناصر في وحدة حضارية واحدة قدمت للإنسانية الفلسفة والرياضيات والبصريات وعشرات العلوم التي لا ينكر أحد آثارها في بناء العقلية الإنسانية وتطورها.

وإذا كان بعض المستشرقين قد انطلق في أحكامه من موقف سلفي مسبق، وحكموا على حضارة المسلمين بأنها قامت بحد السيف فمن المفترض أن يتساءلوا لماذا بقي الملايين من الباكستانيين والأندونيسيين وأبناء القوميات الأخرى يتمسكون بحضارة الإسلام ويدافعون عن قيمها؟ أليس الأحرى أن ينقلبوا إلى حضارات محلية خاصة بهم بمجرد انفكاك الإمبراطورية الإسلامية وانقسام أقاليمها، أو تقسيمها، فإذا كانت الحضارة العربية والإسلامية قد فرضت بالقوة على تلك الشعوب فإن هذه الشعوب لن ترضى أن تبقى رهينة الضغط الحضاري المُرافَق بقوة السيف، وكل شعب لا بد أن يبحث عن هويته الحضارية البعيدة عن القمع والجبر.

والواقع إن نظرية هؤلاء المستشرقين تسقط كما سقطت جميع النظريات التاريخية الاجتماعية التي تنطلق من موقف تعصبي حاد لا همّ له سوى تشويه الحضارة العربية الإسلامية، ومحاولة تحطيم كل قيمها وآثارها، ونكران فضلها على الإنسانية، وإذا كان هذا الطرف من المستشرقين قد غاظهم أن يروا الحضارة العربية الإسلامية تُذكر بكل خير، فإن طرفاً آخر من المستشرقين دافعوا عن حضارة العرب وبيّنوا آثارها الإيجابية، ورفضوا رفضاً قاطعاً مقولة إن الحضارة العربية الإسلامية بُنيت بالقوة، ولا بد أن نستذكر ما قالته المستشرقة الألمانية زيغردهونكه في كتابها شمس العرب تسطع على أوربا.

لعل ما قلناه في السطور الماضية ليس سوى تمهيد للفكرة المقصودة، وهي التي طرحناها من خلال أسئلة كثيرة نجملها في سؤال واحد يقول: هل القوة العسكرية والتكنولوجية قادرة على أن تصنع حضارة واحدة لكل أبناء البشرية؟

القوة لن تصنع حضارة بل في أكثر الأحيان الحضارة تصنع قوة، ألم تكن الحضارة اليونانية بفلسفتها وأساطيرها وتعدد عقائدها قد صنعت قوة عسكرية تمددت كثيراً ودامت طويلاً؟ وكذا الحضارة الرومانية، ألم تصنع من خلال أبنيتها الشامخة وحصونها وفلسفتها وعقائدها قوة استطاعت أن تتمدد بعيداً؟

لكن الفرق ـ كما يقول المستشرقون والباحثون والعلماء المنصفون ـ إن الحضارة اليونانية عندما أصبحت خاضعة للقوة المسلحة انطلقت لتغزو العالم، وتضطهد الشعوب، وتحتل أراضيها، وكذلك الحضارة الرومانية عندما سيطر مفهوم القوة المسلحة عليها راحت تضرب شمالاً وجنوباً، وتحتل هنا وهناك، فبدل أن تكون حضارة تساوي بين الشعوب أصبحت قوة تستعبد الشعوب، وتصنع طبقات في المجتمع، وما خلفته الحضارتان المذكورتان في بلاد الشرق لم يكن سوى استعباد واسترقاق لشعوب المنطقة لأن الحضارة أصبحت مرهونة للقوة، والقوة الظالمة أصبحت وسيلة وغاية في آن واحد، ولذلك وعلى الرغم من بقاء الرومان في بلاد الشام ومصر وساحل المتوسط الشرقي قرابة ستة قرون فإنها كقيم وأفكار وعقائد وحتى كسلوك ذابت تماماً ولم يبق منها سوى الأثر المادي في بعض القلاع والقنوات والأسوار.

وهنا يكمن الفرق بين حضارة وحضارة، حضارة تنقلب إلى قوة جبروتية ترفضها روح الشعوب، وحضارة تفتح آفاقها لكل إنسان كي يكون له دور فعال في بناء الفكر والفلسفة والعقيدة والسلوك، حضارة لا تنقلب إلى جبروت وظلم، وحضارة تقوم على التفاعل والحوار، ثم تقوم على الاندماج كي يقدم كل من فيها خبرته ودوره في تقدم حضارته الشمولية المتكاملة، وهنا يكمن سر الأثر الباقي، فالحضارة العربية الإسلامية ما تزال تتفتق أفكار أبنائها في مشرق الأرض ومغربها دون أي اعتبار للعنصر أو العرق، ولنا أن نذكر هنا أن هذه الأمة لا تنظر إلى ابن سينا أو الفارابي أو محمد إقبال أو غيرهم سوى نظرة واحدة تراهم جميعاً بناةً للحضارة العربية الإسلامية دون أي اعتبار آخر.

وإذا تجاوزنا قراءة التاريخ وقفزنا نحو عصرنا الحديث أو الحالي فإننا سنحاول أن نبقى في إطار التنظير أو التفلسف حتى لا نتجنى أو نُتهم بالانحياز هنا أو هناك.

هل بالقوة المسلحة تُصنع حضارة جديدة تعم الكرة الأرضية؟

من الطبيعي أن لا يختلف اثنان حول الجواب، لكنّ المسألة تحتاج منا لوقفة واعية حتى ندرك المدى التنظيري أو التفلسفي لتلك المقولة.

من الطبيعي أن فرض الحضارة عن طريق القوة سيجعل بني البشرية كارهين لهذه الحضارة، رافضين لكل تجلياتها، فما بالنا إذا كانت هذه الحضارة ليست سوى تكنولوجيا تفتقد للروح؟ ما بالنا إذا كانت هذه الحضارة ليست سوى إفرازات لعقد نفسية جنسية تسيطر عليها روح السادية والجبروت والفوقية والعنصرية؟

إن طبيعة البشر كبشر عاقلين ترفض أن تُسلب قيمهم وأفكارهم المستقيمة لصالح أفكار شاذة وقيم لا تفهم سوى مصلحة الذات والأنا الأعلى المتعالي والمستكبر.

ولذلك فإن أي قوة تدعي أنها تريد بناء الحضارة الإنسانية هي خادعة كاذبة لأنه ليس بالسيف تصنع الحضارات، وكيف يُطلب من إنسان أن يأخذ دوره في بناء الحضارة وهو معرض للخوف والبطش والرعب بل هو معرض للقتل إن هو أبدى ملاحظة ما حول أسلوب البناء الحضاري المعاصر؟

إن التطور الذي شهده العقل البشري علّمه أن القوة مهما بلغت من عظمة وسيطرة لن تكون خالدة، وطبيعة الجدل التاريخي تعلمنا أن طبيعة الأشياء تحوي في داخلها النقيض، فالقوة مهما بلغت من جبروت لا بد أن يفتك بها الضعف من داخلها ومن قال إن القوة البشرية خالدة ومطلقة؟ لا خلود لشيء ولا مطلق في الحياة المادية، كل شيء نسبي في عالم المحسوسات مهما تصور العقل عظمته وجبروته.

إن الذين يسيطرون على القوة ويحركونها ليسوا سوى مخلوقات متحركة متنقلة فمن يقود القوة اليوم قد لا يقودها غداً، ومن الطبيعي أن كل تجليات السياسة وتحركاتها ليس لها علاقة ببناء الحضارة الإنسانية، والذين يظنون أن العالم سينقاد لنموذج فكري ثقافي واحد هم واهمون، ويقعون تحت سيطرة عقدة الوهم، أو مرض العظمة الذي لا يرى في الوجود سوى صاحبها وكل ما عداه ليس إلا حشرات يفتك ببعضها متى شاء ويدجّن بعضها متى أراد.

هل كان يصدق يوليوس قيصر أن الإمبراطورية الرومانية ستزول وتندثر؟ هل كان الإسكندر المقدوني يتصور أنه سيموت في عز شبابه وتسقط أحلامه تحت التراب مع جثته المتفسخة، الإسكندر الذي دوّخ العالم في عصره، ودانت له أكثر شعوب عصره ينفجر دماغه تحت وطأة العظمة والجبروت فيخلف وراءه ما خلف، فماذا بقي من يوليوس والإسكندر؟

إن الحضارة الخالدة هي حضارة القيم، التي تحترم الإنسان لأنه إنسان، تحترم التنوع الفكري والحوار البشري، ولذلك تدوم القيم ويبقى في الوجود من يدافع لأجلها، إن من يظنون أن القوة هي وسيلة نشر الثقافات والأفكار يدركون أن هناك حاجزاً بينهم وبين غيرهم من أبناء البشرية، وهذا الحاجز ليس وهماً أو كرهاً مصطنعاً. إنه بالمحصلة كره حقيقي، وهنا يكمن سر فشل القوة مهما بلغت مستوياتها ومهما عظم جبروتها، وحين يتساءل أصحاب القوة لماذا نحن مكروهون من قبل الشعوب؟ يدركون أن ما يزعمونه من أسس حضارية معاصرة ليس سوى استعباد نفسي أو فكري أو نمط معيشي وسلوكي، إن جنون العظمة ناتج عن جنون القوة، والقوة كما هي معروفة سلاح ذو حدين، ويبدو أن التاريخ القديم الذي جئنا على

ذكر بعض أصحابه وكذلك التاريخ الحديث أثبت أن جنون القوة يحمل في داخله ضعفَه ومقتَله، وهذا ما لم يتعلمه الجبارون من التاريخ ودروسه وعبره.

فلماذا لا يتعلمون من دروس التاريخ؟ الحقيقة تقول: إن الأمراض النفسية هي الأكثر فتكاً في من يتلبسهم جنون العظمة، وكم عمل التحليل النفسي عمله في الكشف عن خبايا الكثيرين من الزعماء والقادة الذين ما زالت الأمم تلهج بأسمائهم وأفعالهم، ولنا أن نتذكر نابليون أو جنكيزخان أو هتلر أو موسليني أو غيرهم.

والواقع أن التاريخ برمته يشهد شهادة صدق على هؤلاء وأمثالهم، فهم يقعون فريسة وَهْمِ القوة وفعلها الإرهابي التدميري، وفي هذه الحال فإن بصيرتهم لا تختلف عن بصرهم، بصرُهم لا يرى مركزاً كونياً سوى الذات، وبصيرتهم لا تحلم إلا بالأنا الفوقي ودونية الآخرين.

من يضمن أن تكون القوة القاهرة وسيلة لبناء حضارة عصرية؟ لا أحد.. لأن في ذلك خللاً في الطرح، وخللاً في المفهوم، وخللاً في طبيعة العلاقة بين المفهوم ذاته وبين المتلقي.

ولهذا كله كان علينا أن نطرح مفهومي القوة والحضارة في عنوان مثير للنفس مثير للتساؤل والاندهاش.

إن القوة القاهرة لن تكون سوى تدمير لقيم الحضارة الإنسانية، وإن الحضارة ذات البعد الإنساني تحتاج فقط لفهم بسيط غير معقد يساوي بين أبناء الجنس البشري في الحقوق والواجبات وسبل الحياة الكريمة، دون إكراه على اعتناق دين، ودون قهر لتبني فكرة، ودون ضغط لفرض سلوك أخلاقي أو تربوي أو ثقافي.

كيف نتعامل مع التاريخ ونحن نطرح مفهوم الحوار؟

إذا بقينا مأسورين للتاريخ لن نحقق حواراً بين الحضارات!

هكذا يطرح الغرب مفهومه حول حوار الحضارات.

وفي الواقع فإن مسألة التعامل مع التاريخ في إطار حوار الحضارات تثير لدينا جانبين هامين:

الجانب الأول: يرتبط بتدوين التاريخ، وكيفية كتابته.

والجانب الثاني: يرتبط بحذف جوانب من وقائع التاريخ.

وكلاهما لا ينفصلان... إنما يكملان بعضهما بعضاً خاصة في إطار طرح مفهوم حوار الحضارات.

ففي الجانب الأول: لا بد أن نشير هنا إلى أن التاريخ يشكو من التأريخ، لماذا... لأن الذين يكتبون عن العروبة والإسلام والحضارة العربية الإسلامية ليسوا عرباً، وليسوا ممن ينتمون إلى الجغرافية العربية والتاريخ العربي والحضارة العربية الإسلامية.

قد يبدو أن المسألة لا تخص الحوار ومفهومه، ولكننا نرى أن البدء بأي حوار لا بد له من أسس يستند عليها، ونعتقد أن تدوين تاريخنا بأيدينا يسمح لنا أن نبادر إلى أي حوار مستندين إلى إيمان وقناعة بأننا نمتلك معطيات التاريخ صحيحةً نقيةً من الشوائب.

والواقع أنه كثيراً ما يتردد في أوساطنا الثقافية أننا بحاجة ماسة لإعادة تدوين تاريخنا، وتحليل مظاهره وتجلياته وأحداثه وشخصياته، وقد بات هذا القول حديثاً على كل لسان، ومعاناةً في كل عقل.

وينقسم المتشددون بين متشدد متحمس، وبين مستسلم قابل، لنرفض كل ما وصلنا عن طريق المستشرقين والمؤرخين الغربيين، أو لنقبل بما وصلنا منهم لأنهم الأكثر موضوعيةً، وهنا ينقسم الوجه الفكري العربي إلى قسمين، أو لنقل إن انقساماً ما يحدث بين من يدعو لتأصيل الوجه العربي الإسلامي والعودة إلى الذات لتعيد إنتاج نفسها وتاريخها، وبين من يدعو للاندماج بما يُسمى العولمة وتناسي الماضي، والانطلاق إلى حاضر أو مستقبل أكثر انفتاحاً وأكثر اندماجاً بالفكر الغربي والثقافة الغربية، عدا الاندماج بالغرب الاقتصادي أو التكنولوجي.

من يدون التاريخ؟ لمن يكتب التاريخ؟ وعشرات الأسئلة الأخرى يطرحها علينا الزمن العربي الإسلامي ونحن نواجه مزيداً من الاستلاب، ومزيداً من الضغط السياسي والفكري والنفسي والاقتصادي والثقافي، ومنذ عشرات السنين والأمة

تحاول أن تصحو وتؤسس لمنهج جديد لحياتها يحافظ على تواصلها مع عقيدتها وتاريخها وتراثها، يحافظ على الهوية والشخصية وتحصينها.

وما تزال الهجمات الغربية والصهيونية والعنصرية تجند جنودها العلنيين والمتسترين لتخريب الأمة في أرضها وعقلها ووجدانها.

وكلما بدأ يتحرك جسد الأمة لأجل النهوض ضربوه على رأسه ضربة دامية كي يعود إلى سكره وغيبوبته، ويدركون أن هذه الأمة إن نهضت واستوت على قدميها واقفة فلن يكون لهم نصيب من النهب والاحتيال والاستلاب، ولن يكون لهم حظ من تهديد أمن الأمة ومقدراتها وأراضيها، وعندها لن يكون لهم تفرد وسيطرة وعولمة، وستجد الأمة أن عشرات السنين من التضييع والإذلال باتت ذكريات أليمة لا تمحى من صفحات التاريخ المعاصر.

لكن النهوض من جديد يعني إزالة كل الآثار الثقافية المدمرة والسلبية، وآثار الغزو الغربي الصهيوني التغريبي كله.

ونعتقد أن بدء إعادة تكوين أو ترميم الشخصية العربية الإسلامية لن يتم إلا إذا وضع كل أبناء الأمة كل ما دون في التاريخ القديم والحديث أمام المجهر لتعاد صياغته من جديد، ويهذب من كل أنواع الدس والتخريب، وتحت المجهر تُقرأ السطور والقصص والحوادث، وتقيّم الشخصيات تقييماً موضوعياً صحيحاً بعيداً عما لفّقه الغربيون وصنعوه بدافع الهوى والعنصرية.

وعندما يتساءل مثقفونا من يدوّن التاريخ؟ فإن الشكوك التي سيطرت على العقول حول مصداقية ما دوّن وما يدوّن تدفع الجميع لإعادة قراءة التاريخ وكتابته بما يتلاءم مع طبيعة الإنسان العربي والمسلم المنفتح والعقلاني والمبدئي، لا مع ما يراه الغرب بمنظاره، ولا ما تراه أقلام المستشرقين الذين ضربوا الكثير من ثقافة الأمة وفكرها حتى طالت أقلامهم المفاصل المهمة في تاريخ هذه الأمة وشخصيتها المتميزة عبر التاريخ.

من يدوّن تاريخ الأمة؟ وهل ما يزال أبناؤها جاهلين أميين حتى يبقى بعض المستشرقين والمؤرخين الغربيين واليهود يدونون تاريخها، أم أن في هذه الأمة من يقدر على غربلة التاريخ ويضع الأمور التاريخية في مكانها الحقيقي من التدوين.

كل أمة أعرف بحالها وبوقائعها وشخصياتها، ولن يتحسس هذه الأحوال والوقائع والشخصيات إلا من تسري في عروقه دماؤها وينتمي لها، يتحسس الأرض التي جرت فيها الأحداث، وتجول في طرقاتها الأشخاص وصنع وقائعها من نبت فيها، كما نبتت الأشجار المعمرة العصية على الرياح والعواصف والاقتلاع، ولعل ما يزيد البلاء بلاءً أن ما يدونه بعض المستشرقين لهذه الأمة لا يستند إلى حقائق تاريخية مستقيمة، فإما تلعب أقلامهم حسبما تمليه عليهم عنصريتهم وحقدهم المتأصل على هذه الأمة وحضارتها الإنسانية الإسلامية، وتراثها وأرضها الغنية الفتية، وإما ينشرون الأكاذيب على أنها حقائق صادقة ويرسمون ملامح الشخصيات رسماً فيه الألوان القاتمة السود أكثر بكثير مما فيه من الألوان المضيئة المشرقة، وتمضي تخيلاتهم المقصودة في كل مكان فيعود العقل العربي مصدوماً مشككاً في أمته وتاريخه، مشككاً بتلك الشخصيات التي جردت على مدى التاريخ الغربي من كل زيف وتلفيق ورفعت في وجه الزحف الاستعماري سيفاً لا يلين، وعلماً لا يسبقه علم، وتراثاً يملأ الدنيا تقدماً وازدهاراً ومعرفةً، ويمضون مشككين بتلك الشخصيات العربية الإسلامية التي حملت في قلوبها عقيدة رائعة صلبة، إنسانية التعامل، عالمية القبول وزرعتها في قلوب الأمم والشعوب من خلال المحبة وأخوّة الإنسان للإنسان.

لم يرق للمستشرقين أن يكون العرب في الصدارة التي يستحقونها، فأوغلوا صدور الجاهلين وضعاف النفوس بالحقد عليهم وعلى عقيدتهم وشخصياتهم، وبتنا نسمع من أبناء جلدتنا من يدافع عن وسائل التأريخ الغربية ونتائجها، وبتنا هنا نسمع عن دعوة لتقليد الغرب في كل شيء في الثقافة والعلم واللباس والمأكل، والعلاقات الاجتماعية حتى لو كانت علاقات غير شرعية وغير أخلاقية، وهذه الدعوة تسمي الفوضى حرية، وتسمي تمرد الأبناء على الآباء ديموقراطية، وتسمي اختلاط الجنسين اختلاطاً غير مشروع تقدماً ورقيّاً، لماذا لا نقبل ما يأتينا من المؤرخين الغربيين ونصدقهم، لماذا نقول عن مظهر الثقافة الغربية غزواً وتخريباً؟

هكذا يطرح المبهورون بالزيف الغربي فكرهم وثقافتهم إن كان لهم فكر، وإن كانت لهم ثقافة، ورداً على هذه الطروحات نرى أنه من هنا تبدأ إعادة النظر في تدوين

التاريخ، فهو يحتاج لمنهج عربي عقيدي صلب، يؤسس لفكر نهضوي سليم ومعافى، يبدأ بالإجابة على السؤال الذي يطرحه كل منا . . . من يدون التاريخ؟ ولمن يُكتب التاريخ؟ ويبدأ منطلقاً للإجابة على آلاف الأسئلة التي ترددها الأجيال العربية.

إن التأكيد على بناء الشخصية العربية الإسلامية ليس اعتداء على أحد، وليس عداء لأحد، فالغرب الذي ارتضى ثقافة خاصة وتراثاً خاصاً ليس من المفترض أن نتبنى ما ارتضاه، وكما هو يبني شخصيته على أسس تناسب تراثه وتاريخه الروماني اللاتيني، فلنا أيضاً طرقنا وأساليبنا في بناء شخصيتنا، وهذا البناء يبدأ بصياغة أسس جديدة لتدوين تاريخنا الحديث والمعاصر وثقافتنا العربية الإسلامية الخاصة بنا.

ومن هذا الأساس ننطلق في بناء شخصيتنا وعالمنا الحاضر والمستقبلي، فإذا استطعنا أن نرسخ في عقول أجيالنا عدم التبعية وعدم الذوبان في عالم الغرب استطعنا أن نوقف زحف العولمة التي تريد إلغاءنا وإلغاء عقائدنا وتراثنا وخصائصنا، واستطعنا أن نعيد الثقة لأبنائنا بتاريخ أمتنا وشخصيتنا النادرة الفذة في التاريخ.

ولعل تحقيق ما نصبو إليه سيكون مفتاحاً نفتح به كافة أبواب آمالنا وأهدافنا، وإذا ما اتحدت إراداتنا حول هذا التأسيس، أي: التخلص من الآثار السلبية للعولمة الغربية، نستطيع أن نبدأ الخطوات التالية في الدعوة إلى وحدة الأمة في مجال الثقافة الجامعة الكلية، وفي مجال الاقتصاد التكاملي المتين، وفي مجال السياسة الدولية القوية، وفي مجال توحيد أبناء الأمة باتجاه أهداف وحدوية إنسانية عالمية مستندة على عقيدة راسخة، وفي ظل ما يسمى القطب الواحد، وفي ظل ما يسمى بالعولمة، وفي ظل التمادي الصهيوني والعلو اليهودي وإفساده يدخل الغرب ما يسمى الألفية الثالثة وهو يضع أمامه أهدافاً استعمارية جديدة يريد تحقيقها بأي شكل، لكننا بتحقيق ما ذكرناه لن يستطيع هذا التمادي والعلو والإفساد أن يدمرنا أو ينتصر على قيمنا.

على أية حال، فإن ما نريد قوله ليس دعوة للتعصب والتحجر أو دعوة للعداء والتقوقع، إنما هي دعوة للذات، وتأكيد على الهوية الشخصية، ومواجهة الإلغاء والنفي.

فالتأريخ بما يخص الأمة من أحداث وشخصيات يعني الحفاظ على بقاء إنسان هذه المنطقة العربية بعد أن بدأ الآخرون بحملتهم الصهيونية لإفناء هذا الإنسان، واستلابه عقله ونفسه وروحانيته وتراثه وعقيدته الإنسانية العالمية.

ولو نظرنا إلى بعض الدعوات الغربية المعاصرة التي تخص تاريخ منطقتنا العربية وقفنا مدهوشين مستغربين أمامها.

وعلى سبيل المثال لا الحصر تخرج دعوة تقول: مطلوب منكم أن تشطبوا من تاريخكم مائتي عام، وتنسوا كل الأحداث التي جرت خلالها، وهاتان المئتان من السنين تخص بدء الحملة الصليبية الأولى على الشرق في القرن العاشر وانتهاءها في الحملة التاسعة، عليكم أن تنسوا مجزرة القدس عندما دخلها الإفرنج وراح ضحيتها سبعون ألفاً من العرب، وعليكم أن تنسوا تحرير بيت المقدس على يد صلاح الدين، ثم تحرير بقية البقاع العربية من الغزو الإفرنجي، وعليكم أن تنسوا أن القدس عربية، وأن فلسطين عربية، وعندها يمكن أن تفتح صفحة جديدة من العلاقات الإنسانية بين الغرب والشرق.

هكذا تطرح بعض المقولات الغربية فهمها للتاريخ، وهكذا يطلب منا أن نلغي مائتي عام من تاريخ أمتنا، ننسف هذا التاريخ من الذاكرة تماماً، ومن الكتب أيضاً، ومن كل ما يذكّر بما حدث من أحداث مفصلية في تاريخ الأمة، إذا هي دعوة مبدئية، واللاحق أدهى وأمر وأخطر، والأخطر والأدهى بدأت طلائع حربه دساً وتسريباً.

ففي فرنسا ومن جهة غير معلومة نشرت على موقع ما على الإنترنيت سُوَرٌ سُمّيت بالسُّور القرآنية، وألفها أحد العنصريين ليشابه بينها وبين سور القرآن الكريم، ويطلق على الأولى منها سورة الإيمان، وعلى الثانية سورة التجسّد، وعلى الثالثة اسماً آخر، ويكيل الشتائم من خلالها لشخصية النبي محمد ـ ﷺ ـ والإسلام، وأمة العروبة والإسلام، فهذا هو الذي يريدونه منا نحن أبناء العروبة والإسلام.

أما لماذا يريدون ذلك، فلأن هذه الأمة التي منحت الإنسانية أبجدية اللغة وأسس الحضارة الإنسانية، وقيم الإسلام الخالدة، تستعصي على الإفناء مهما كثرت الحملات الاستعمارية، ومهما جند أعداء الأمة من جيوش إعلامية وتخريبية

وتدميرية وغير أخلاقية، ولأن هذه الأمة تتحضر دوماً للحفاظ على مكوناتها العقيدية والتاريخية، وتسعى دوماً للحفاظ على هويتها وتحصينها أمام هجمات التشويه التي لا تتوقف.

وأستحضر هنا ما قاله يوما الدكتور شاكر مصطفى وهو يتحدث عن ثمن الحضارة الغربية، وكيف لا يروق للغربيين أن نصحح التاريخ، أو نكتبه بأيدينا، يقول: ما زلت أذكر وأنا أناقش رسالتي للدكتوراه كيف احمرت آذان اثنين من أعضاء لجنة المناقشة وهما يرفضان أن أصف بالبربرية غزو الفرنجة للقدس، وذبحهم سبعين ألفاً فيها (إنه كلام غير علمي) كذلك قالا وقلت قبل أن أجيب: أود أن أسأل ماذا تسمون أنتم في كتبكم العلمية بل والمدرسية أيضاً فتح الهانز المغول وزعيمهم أثيلا لأوربا؟ والزحف الجرماني على الإمبراطورية الرومانية، وبماذا تصفون في كتب الصغار دخول العرب إلى إسبانيا ومعركة بواتييه؟ (بلاط الشهداء).

ومن هذه المصادر تعلمت الكلمة، أنتم في الغرب تعودتم زمناً طويلاً أن تكتبوا التاريخ وحدكم وأن يقرأ الآخرون. . . بعد الآن سوف يكتب الآخرون بدورهم التاريخ من وجهات نظرهم أيضاً، وعليكم أن تقرؤوا وجهاً في المرآة لما ترونه بعد، وسوف يحمل الآخرون هذه المرآة، عفن الماضي كله سوف يوضع ذات يوم قريب في سلالكم بدل الزهور).

إذن فليكن تاريخنا ملك تأريخنا، وليقم التاريخ الذي نسطره بأيدينا على قدميه، عندها لن يشكو التاريخ من التأريخ، ولن تبكي الهوية ملامحها التي حاولوا تشويهها، ولن تنهار الشخصية العربية الإسلامية أو تندحر؛ لأن قدرها أن تعيش رغم الطعنات والحصارات كلها، ورغم كل أشكال التزييف وتحوير التاريخ وخداع العقول والنفوس.

كيف يرى الغربيون التعامل مع التاريخ؟

على الغرب أن ينسى الغزو العربي الإسلامي لإسبانيا، وعلى العرب أن ينسوا الحملات الصليبية الإفرنجية على بلاد الشام والقدس ومصر.

الفتح العربي الإسلامي في إسبانيا يصبح غزواً يراه الغربيون شبيهاً بالغزو الإفرنجي للشام ومصر.

وأسر التاريخ يعني أن نظل محكومين للمعايير التي سببتها الحروب بين الشرق العربي الإسلامي والغرب الاستعماري.

من هنا كان علينا أن نتوقف طويلاً عند هذه المفاهيم والمعايير، وكذلك عند مفهوم حوار الحضارات والثقافات، وحوار الأديان الذي بات يتردد كثيراً في أوساط وأوساط.

وبداية القول نرى أن طبيعة الشرق هي طبيعة حوارية، وحوار الأديان أو حوار الحضارات منهج شرقي عربي إسلامي عرفته المنطقة منذ زمن بعيد، ونضج في ظل الدولة الإسلامية نضوجاً لم يعرفه العالم الغربي في جميع عصوره، فليس غريباً أن يكون تقبلنا لمفهوم حوار الأديان سريعاً في استجابته وسريعاً حتى في آليته.

وطبيعتنا الحوارية الحضارية تنبني على أسس عقيدية وأخرى شخصية تتعلق بالبنية النفسية والعقلية التي تشكل أساساً في بناء الذات، لم تعرف العقلية العربية بعد الإسلام إلغاء الآخر لأن المفهوم العالمي الإنساني للعلاقة بين الشعوب تقوم على بدهية مفترضة تستند إلى منظور قرآني يقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ ومعنى التعارف هو أن يتحاوروا حتى يعرف كل إنسان أخاه الإنسان، يعرف عقليته ونفسيته وسلوكه ومبادئه والقيم التي صنعت مقاييسه وموازينه الإنسانية، ونعتقد أن لا مشكلة في المفهوم بل المشكلة في فهم الطرف الغربي للمفهوم.

فالطرف العربي بإسلامه ومسيحيته يؤمن بالقيم المطلقة من عدل وحق وحب إيماناً طبيعياً، ولا يحتاج واحد لتفسير هذه القيم، لكن الغرب يرى هذه القيم نسبية وليست مطلقة، فما هو خير عندنا قد يكون شراً عندهم، وما يكون عدلاً لدينا قد يكون عندهم ظلماً، وما يكون حقاً عندنا قد يكون عندهم باطلاً، ونعتقد أن السلوك الحضاري والتحرك البشري عبر التاريخ هو الذي يحدد كيفية الفهم لهذه القيم، على الرغم من أن العرب حينما دخلوا إسبانيا صنعوا حضارة وفكراً، واستطاعت جهودهم العلمية والفكرية أن تُدخل العالم الغربي في دائرة النور، إلا أن الغرب أو لنقل بعض الغربيين المتعصبين يرون في ذلك احتلالاً واستعماراً، فهل جر العرب الويلات على

أهل إسبانيا؟ أم أنهم استطاعوا وبسرعة فائقة الاندماج والتزاوج حتى ذابت الفروق العرقية والدينية، هل طرد العرب السكان الأصليين وأجروا بحقهم مذابح جماعية كما فعل الإفرنج الصليبيون عندما دخلوا أنطاكيّة والرها وطرابلس وبيت المقدس؟

ما النتائج التي ترتبت على فتح العرب لإسبانيا؟ وما النتائج التي ترتبت على غزو الإفرنج للشام ومصر؟.

لا نريد أن نردد مرة بعد الألف ما قاله المؤرخون وشهود العيان على ما جرى فقد أصبح الجميع يعرفون التفاصيل، وهذه كتب الغرب تشهد على ما جرى مهما حاولوا التخفيف أو التهويل.

على أية حال فإن الغرب يدرك أن طلبه الخروج من أسر التاريخ يعني تناسي ما فعله الإفرنج من وصمة عار في تاريخ الحروب الصليبية، ويعني أيضاً تناسي ما للعرب من فضل على أوربا بسبب وجود الحضارة الأندلسية، وبسبب بقائها ثمانية قرون في الأندلس.

ومع ذلك كله فالحروب التي جرت في قرون خلت تبقى أحداثاً حقيقية وقعت فعلاً، وليست هي خيالاً أو تخيّلاً، فلا يمكن حذفها من التاريخ أو الذاكرة.

ولكن إذا كان حوار الثقافات والحضارات أو حوار الأديان يتطلب تجاوز الماضي وصوره السوداء والانتقال إلى حاضر حواري يتحاور فيه ندّان متساويان متكافئان فليس في الأمر مشكلة، لكنا مع ذلك كله لا يمكن أن نتجاوز الواقع الراهن لأنه شاهد حاضر على عدم مصداقية الغرب في طرحه لمفهوم الحوار وآلياته.

ففلسطين تُحتل من قبل الصهاينة الغربيين، والغرب هو الذي صنع هذا الكيان الصهيوني الغاصب، وآثار الاستعمار الغربي البريطاني الفرنسي الإيطالي الإسباني لا تزال ماثلة للعيان على الرغم من مرور أكثر من نصف قرن على نهاية هذا الاستعمار المباشر.

والغرب نفسه لا يزال مأسوراً للمغالطات التاريخية والفكرية والعقدية، ولا يزال يرى الباطل حقاً، والحق باطلاً، والحوار الذي يطرحه الغرب لا يستند إلى أسس صحيحة أو مقبولة، فهو حوار القوي مع الضعيف، لا تكافؤ في المعطيات

المالية العسكرية الاقتصادية، ولا تساوٍ في الحيثيات، والحوار الحقيقي الذي يحمل معناه يخشاه الغرب ويرفضه، لأنه يضعه في الزاوية ويحصره أمام الحقائق المأساوية، ويضعه وجهاً لوجه مع الثوابت التي حاول تحريفها أو تشويهها أو طمس معالمها.

لا شك أن الحوار بحد ذاته يعني إبداء كل طرف وجهة نظره في قضايا عديدة، ومنها ما يخص الأديان كعقائد وشرائع، ومنها ما يخص القضايا الاجتماعية الإنسانية والأمراض النفسية والعقلية التي يتخبط فيها الإنسان في هذا العصر.

والواقع يقول لنا: إن الغرب بشكل عام لا يدين بنفسه للكنيسة الكاثوليكية، فهناك التيارات البروتستانتية الأنجليكانية تتحكم بشكل عام بالعالم الغربي، فما ترفضه الكنيسة الكاثوليكية قد تقبله الكنائس البروتستانتية، ولعلنا نتذكر موقف الكنيسة الكاثوليكية والبابا من مؤتمر بكين للمرأة الذي عقد عام 1997م، فالكنيسة وقفت ضد الإجهاض، وضد الإباحية والزواج المثلي الشاذ، بينما ممثلو البروتستانت دافعوا عن حرية الإنسان المطلقة، وعن الإجهاض وحرية المرأة إلى آخر ما هنالك من قضايا حسب مفهومهم، فالحوار المفترض قد يكون من خلال موقف الكنيسة الكاثوليكية، وموقف الإسلام من تلك القضايا، ولكن لا يمكن الحوار مع الطرف الآخر الذي لا قاسم مشترك معه، فالاختلاف يقع بنسبة (180) درجة لأن القيم ومعاييرها متناقضة متضادة ولا يمكن التقريب بين الطرفين فيها.

وقد يرى الغرب أن الحوار هو وسيلة إقناع، ولكن الذي يستحيل هنا هو إقناع العربي والمسلم، وكذلك المنتسب إلى الكنيسة الكاثوليكية بأن زواج المثلين رجل ورجل، وامرأة وامرأة هو من مستلزمات الحرية الشخصية.

إن طبيعة الإنسان في الواقع العربي الإسلامي تحكمها قيم ومفاهيم تراكمت عبر التاريخ منذ قيام الحضارات العربية القديمة، وجاء الإسلام فنظمها وأطّرها لتكون منهجاً سلوكياً وعقلياً لبني الإنسانية، وهذه القيم والمفاهيم ثوابت لا يمكن تجاوزها.

ومن المفترض أن تكون طبيعة الإنسان الغربي الذي تبنى المسيحية عقيدة ومنهجاً طبيعة لا تبتعد كثيراً عن الطبائع الإنسانية في أي مكان من العالم، ولكن يبدو أن تخلي الغرب عن مبادئ المسيحية الحقة، وانحرافه عن الأسس الأخلاقية

الدينية التي نادى بها المسيح - عليه السلام - هو الذي يدفعه للدفاع عن الشذوذ والإباحية، ومن ثم طرحه لها على مائدة الحوار، ومن هذا المنطلق نرى أن هناك استحالة للحوار مع الغرب على تلك الأسس التي طرحها، هذا إذا اقتصرنا على هذا الجانب فحسب. فكيف يمكن أن يتم التحاور مع الغرب وهو يرفض الاعتراف بحقوقنا التاريخية الثابتة في فلسطين، والمسجد الأقصى، وكذلك حقنا أن تكون لنا شخصيتنا المستقلة، وهويتنا العربية الإسلامية.

الحوار مع الغرب يعني أن يصبح المسجد الأقصى هيكل اليهود المزعوم، وأن تلغى كل الآثار العربية الإسلامية والمسيحية الشرقية من الأرض الفلسطينية، ويعني بالمحصلة القبول بالاستعباد والاسترقاق، ومن ثم القبول بالتسيد اليهودي الصهيوني الغربي على البشرية جمعاء، وليس فقط على العرب والمسلمين، وأخيراً، الاعتراف بأن التاريخ العربي الإسلامي ليس إلا حبراً على ورق، وليس دماء أريقت، وأرواحاً أزهقت، وأرضاً مقدسةً احتُلت واستبيحت.

وإذا كان السلف من أجدادنا قد سطروا لنا في التاريخ ملاحم وبطولات وهم يدافعون عن أرضنا ووجودنا في اليرموك وحطين وعين جالوت، فقد وجب علينا أن نفي حقهم من الترحم والإعجاب والاعتزاز والتقدير، ولكننا نحن أبناء هذا العصر إذا حاورنا الغرب وكان مضمون حوارنا بعيداً عن فلسطيننا، ومقدساتنا، وحقوقنا الإنسانية وهويتنا، فماذا يمكن أن يقول أبناؤنا وأحفادنا عنا؟ هل يترحمون علينا ويشكروننا؟ أم أنهم يخبئون وجوههم خجلاً من أفعالنا وهروباً من فضائحنا؟ هذا إذا لم تحل لعنتهم علينا.

وخلاصة القول في هذا عندما تتوفر لدى المتحاورين قناعات مشتركة بالقيم والمثل والعبر من التاريخ ويتخطون الأنا والفوقية يستطيعون أن يفرشوا الأرض مائدة للحور وإلا . . . وإلا . . . .

الفصل الثاني
معوقات جدّية في وجه الحوار
وعوامل فاعلة للصدام

1 ـ حوار الأديان في خدمة الصهيونية .
2 ـ حوار الأديان الهيكل فوق أنقاض الأقصى .
3 ـ الصهيونية وحوار الحضارات .
4 ـ ما بعد الصهيونية والحوار بين الشعوب .
5 ـ الصمت الغربي عن عنصرية الصهيونية أحد معوقات الحوار .
6 ـ الإبادة في ظل الحملة الأمريكية أحد معوقات الحوار .
7 ـ حوار الحضارات والجوع في أفريقيا .

هل يصبح حوار الأديان في خدمة الصهيونية؟

توالت المؤتمرات بين ممثلين عن الأديان في أكثر من بلد، وفي عمان العاصمة الأردنية عقد إلى الآن مؤتمران لحوار الأديان، وقد حضرهما ممثلون عن الإسلام والنصرانية واليهودية إضافة لبعض الفئات المشبوهة كالبهائية والقاديانية وبعض ممثلي الماسونية والروتاري والمحافل المشبوهة الأخرى.

فعلى ماذا تحاور المؤتمرون؟ وهل حقاً يريد ممثلو اليهودية الحوار المجدي مع ممثلي الإسلام والمسيحية؟ من مثل اليهودية في مثل هذا الحوار؟ وهل هو كبير حاخامات اليهود الشرقيين العنصري عوفيديا يوسف؟ أم حفيد الحاخام العنصري شنيؤورسن المعروف بتشريعاته العنصرية الدينية؟ أم ليفنغر أو ابن الحاخام مائيركاهانا؟

هل انطلق أو ينطلق اليهود في حوار الأديان من التوراة؟ أم من التلمود؟ أم من بروتوكولات صهيون؟ أم من تنظيرات الحاخامات المعاصرين في أمريكا والكيان الصهيوني الغاصب؟

عوبيديا يوسف كبير حاخامات اليهود الشرقيين يصرح بملء فمه وعلى شاشات التلفزة أن العرب أفاعٍ ولا يؤمن جانبهم، وأن الله ندم على خلقهم، وعلى هذا يجب معاملتهم، تصريحاتٌ أثارت ضجة لدى كثير من الأوساط واعتبرها بعض العرب مشينة وغير لائقة خاصة في هذا الوقت الذي يسعى الكثيرون من العرب واليهود لإقامة سلام بينهم!!.

غريب أمر العرب، وغريب أمر المسلمين والمسيحيين كأنهم ما قرؤوا في حياتهم القرآن الكريم أو الإنجيل، وكأن ما سمعوه من هذا الحاخام أمر جديد طارئ يحتاج لردة فعل، وكأنهم ما درسوا تاريخ اليهود القديم والحديث، ولا درسوا حيثيات الجرائم الجماعية التي نفذها اليهود بناء على أوامر حاخاماتهم.

لنعد إلى تشريعات التوراة التي دونها أحبار اليهود في السبي البابلي، لنعد إلى التلمود الذي دوّنه الربانيون اليهود على مدى مئات السنين، ولنعد أيضاً إلى بروتوكولات صهيون التي زعموا أن اليهود لم يكتبوها، وصدقهم أبناء العرب والعالم، ولنعد إلى أقوال حاخامات اليهود الحديثة والمعاصرة، لنعد إلى هذه الأسس

التي تنبني عليها العقيدة اليهودية لنرى هل يمكن الحوار مع أصحاب الشأن في هذه العقيدة أم أنه لا يمكن لأحد عاقل أن يصدق أنّ أمثال هؤلاء يصعب الحوار معهم أو يستحيل إن لم يتخلصوا من تلك اليهودية التحريفية التوراتية التلمودية الحاخامية المتعصبة العنصرية، فمنهج التوراة يقوم على مبدأ نفي الآخر، لأن هذا الآخر أقل خلقاً من اليهودي، فلذلك أباح كتبة التوراة دماء الآخرين أو نفيهم أو استبعادهم.

جاء في التوراة على لسان يهوه إله اليهود: (حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح إن أجابتك إلى الصلح وفُتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ويستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، تأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً، والتي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك يهوه إلهك نصيباً فلا تستبق منها نسمة ما، بل تحرمها تحريماً، الحثيين والآموريين والكنعانيين والفرزيين والحويين واليبوسيين كما أمرك الرب إلهك) سفر التثنية (10 : 20).

فهذا المنهج التوراتي يلقنه حاخامات الكيان اليهودي لأفراد الجيش في كافة الوحدات العسكرية والأمنية، كذلك في كافة المدارس المعاهد والجامعات، وهو دستور عسكري ديني سياسي أساسي في العقيدة التوراتية.

وهناك عشرات النصوص التوراتية الشبيهة بل الأشد عنصرية وتنتشر في كافة الأسفار التوراتية التي كتبها الأحبار أيام السبي البابلي.

أما التلمود وهو الكتاب الأشد عنصرية والأكثر دموية فإن كافة ما ورد فيه يصرح بعنصرية فجة لا مواربة فيها، ولا تفسير آخر لها.

فحسب هذا الكتاب فإن ما عدا اليهود وثنيون نجسون، ويجب أن يعاملوا على هذا الأساس، فجاء في التلمود: (إن الإسرائيلي معتبر عند الله أكثر من الملائكة، فإذا ضرب أمّي (غير يهودي) إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلهية).

وجاء في البروتوكول الثالث: (إن المسيحيين من الناس في خستهم الفاحشة خلقوا ليساعدونا على استقلالنا، وحينها يخرّون راكعين أمام القوة).

وجاء في البروتوكول الخامس: (إننا نقرأ في شريعة الأنبياء أننا مختارون من الله لنحكم الأرض، وقد منحنا الله العبقرية).

وجاء في البروتوكول الحادي عشر: (إن الأميين (غير اليهود) كقطيع من الغنم، وإننا الذئاب، فهل تعلمون ما تفعل الغنم حين تنفر الذئاب إلى الحظيرة. والأصل في تنظيمنا للماسونية التي لا يفهمها أولئك الخنازير من الأميين).

وإذا انتقلنا إلى أقوال حاخامات اليهود المعاصرين فإننا لن نفاجأ بما يصرحون به، لأنه امتداد لمنهج تلمودي توراتي ظلوا عليه عاكفين.

فقد جاء في مقدمة كتاب الكوزاري الصادر بتوجيه من شعبة التربية التابعة للكنيست والحائز على مصادقة وزارة الثقافة والمعارف الصهيونية وهو بقلم الدكتور أ ـ تسيفوري: (وقد منحت التوراة لشعب إسرائيل من دون العالمين جميعاً، لأنه صفوة الشعوب بأسرها، ولأن لغته أشرف لغة ينطق بها البشر، شعب إسرائيل هو صفوة الشعوب كلها، ويرجع ذلك إلى تميز عنصره وتفوق تربيته، عنصر شعب إسرائيل هو أفخر العناصر لأنه تكوّن عن طريق الأفضل من جيل لجيل) وهذا الكتاب يدرس في المدارس الثانوية في الكيان الصهيوني الغاصب.

وقد جاء في الكتاب نفسه على لسان الحاخام شنيؤورسن قوله: (إن الفرق بين اليهودي وغير اليهودي هو من النوع الذي ينطبق عليه التعبير السائد لا وجه للشبه، إذ كيف يمكن البحث عن فرق بين شيئين من مستويين مختلفين كلياً، ففي حين يجلس اليهودي في المرتبة العليا وينحدر من الصنف الأسمى تقبع بقية الأمم في الدرك الأسفل وتنحدر من أدنى صنف، وهكذا نرى أنه من العبث البحث عن وجه للشبه بينهما) وحسبما جاء في كتاب الجمارا، فإن الجسد اليهودي يختلف كلياً عن أجساد بقية البشر والشعوب وذلك من حيث أكلهم وشربهم وطينتهم، وما يصح على الجسم (المادة) يصح أيضاً على النفس (الروح) إذ أن أصل أرواح شعوب العالم

هو من طبقات النجاسات الثلاث، بينما أصل أرواح بني إسرائيل هو من الروح المقدس ذاتها.

ولعله لا تغيب عن أذهاننا أقوال الحاخام العنصري المقتول مائيركاهانا، فهو صاحب أكبر مشروع عنصري يدعو إلى إبادة العرب، أو إخراجهم من أرض فلسطين تحت قوة السلاح، وفي هذا العصر نسمع كل يوم تصريحات الحاخام عوبيديا يوسف، فالعرب أفاعٍ وعقارب وقد ندم الرب على خلقهم حسب أقواله، وكثيرة هي التصريحات المشابهة.

وبعد كل ذلك: ألا يحق لنا أن نسأل على أي أساس يمكن أن يحاور اليهود غيرهم في مؤتمر لحوار الأديان، ومن منَ اليهود يمثل اليهودية في مثل هذا الحوار؟

على أية حال فللصورة وجهان، وجه يطل على العنصرية، ووجه آخر يطل على السعي الصهيوني الحثيث لتكريس كل الحوارات في خدمة الهدف الصهيوني في الأساس، وهو الدخول إلى العالم العربي والإسلامي من بوابات لا تعد ولا تُحصى، فحوار الأديان وجه من وجوه التطبيع كغيره من الحوارات الاجتماعية التي تجري في مؤتمرات السكان والتنمية والمرأة، ولعل الأهداف السياسية الاستراتيجية هي الأهم في رؤية الصهاينة، وليس حوار الأديان، فما وراء هذا الحوار هو إقناع الإنسان العربي والمسلم بقبول الكيان الصهيوني في أرض فلسطين على اعتبار أن لليهود جذوراً دينية، سكانها في أرضها حسب ما تدعيه الصهيونية.

إن جل ما يمكن طرحه من قبل اليهود يدور حول هذه المسألة الخطيرة، فهم يدخلون من بوابة الإرث الإبراهيمي وبقية الأنبياء ليقنعوا العرب والمسلمين أن أرض فلسطين ومصر وحتى بقية البقاع العربية كانت متلاصقة باليهود وتاريخهم القديم، ولن يكون حوار الأديان حول وجود الله، والإيمان بوحدانيته، فهذا آخر ما يفكر به المتحاورون، فالله موجود ولا أحد من أصحاب الديانات ينكر ذلك، ولكن ما يسمى أرض إسرائيل فهي غير موجودة في الجغرافيا، ولا في التاريخ، وهنا يكون جل اهتمام اليهود الذين يسيّسون المقولات الدينية، ويدفعون باتجاه القبول العربي الإسلامي بالأمر الواقع.

والقدس التي هي أحد أهم موضوعات الحوار ستكون في رؤية اليهود العاصمة الأبدية اليهودية للكيان، ألم يخترع أحبار اليهود مقولات العاصمة الأبدية لديانة التوراة؟

إذن كيف يمكن أن يقنع اليهود متحاوري الأديان بأن القدس أرض لليهود، وأن العقيدة اليهودية قد أقرت ذلك منذ آلاف السنين؟.

حوار الأديان: الهيكل على أنقاض الأقصى

ومن الواضح أن حوار الأديان حين يصل إلى القضايا المفصلية في حياة أصحاب الأديان يصبح الحوار عقيماً إن لم يصبح أداة للإلغاء، وانتقاصاً من الدين نفسه، ومنبراً لصوت دون صوت.

فالقدس التي هي مثار للخلاف والصراع قبل أن تكون مثار جدل من أكثر الموضوعات حساسية وإثارة على مستوى ذلك الحوار، ولذلك يعتبرها بعض الحاخامات - إن لم يكن كلهم - من المحرمات التي يجب عدم النقاش فيها، ويعتبرها المسلمون من أحق الحقوق الإسلامية التي لا حوار بشأنها.

إذن كيف يستطيع ممثلو الأديان أن يتحاوروا في مؤتمر أو اثنين يعقدان هنا أو هناك أو في أي بلد آخر؟ وإذا كان الحوار يخلو من موضوعة القدس في بعدها الديني فما جدوى هذا الحوار؟ في هذا السياق نستذكر أن موضوعات الحوار بين الأديان تتناول بعض قضايا التشريع كحقوق المرأة، والإجهاض، والمواقف من الشذوذ والإباحية، وما إلى ذلك من موضوعات مشابهة، والناظر في مواد هذا الحوار يشعر وكأنها تطرح في عالم آخر يلغي الجغرافيا والتاريخ، والمقدسات الدينية، ورموزها الدينية.

والقدس التي تأخذ ما تأخذ من أبعاد دينية في العقيدة الإسلامية، وكذلك في المسيحية واليهودية تشكل المحرم الأول فيما إذا طرحت في حوار الأديان، إشكالية المحرّم تقع في أن المسلمين يعتبرون القدس مثل مكة، والمسجد الأقصى كالمسجد الحرام، وارتباط التوحيد بالقدس هو ارتباط بين القرآن الكريم وهذا المكان المقدس، ويعتقد اليهود أن القدس الإسلامية أقيمت على أورشليم التوراتية، وأن المسجد الأقصى أقيم على أنقاض الهيكل، ويرتبط أنبياء اليهود بالقدس ارتباطاً تاريخياً

وعقدياً وسياسياً، وترى المسيحية أن القدس بكنيسة القيامة والأماكن المسيحية المقدسة هي مهد انبثاق العقيدة النصرانية، ففيها كان المسيح ومنها انطلق يبشر بالعقيدة.

إذن كيف يكون الحوار بين أصحاب عقائد ثلاث ترى كل واحدة منها أنها الأحق بالقدس من غيرها، في ظاهر الأمر ليس ثمة صراع بين المسيحية الشرقية والإسلام، فالأقصى موجود وكنيسة القيامة موجودة، ولكن أين المقدس اليهودي على المستوى المادي؟ إنه حسب ادعاء حاخامات اليهود يرقد مهدماً تحت المسجد الأقصى، ويجب أن تحدد ملامحه وتظهر أطواله وأبعاده، فحائط البراق ليس كل شيء على الرغم من زعمهم أنه حائط المبكى، وفي اعتقادهم لا يكفي النواح والبكاء عند هذا الحائط حتى تظهر ملامح المقدس اليهودي.

فحوار الأديان ليس مجرد نقاش في الطهارة والنجاسة، إنه هنا حوار المصادرة، حوار من أجل التنازل عن السيادة العقدية والجغرافية والتاريخية، حوار من أجل التنازل عن المقدس الإلهي أولاً، والتنازل عن أرض ترتبط بشعب ارتباطاً تاريخياً عميقاً.

كيف يمكن أن يكون هناك حوار بين الإسلام واليهودية لا سيما في ظل احتلال عسكري للقدس وفلسطين، وفي ظل ضعف إسلامي واضح، ضعف ارتباطه بالمقدس الإلهي حتى بات عاجزاً عن حماية نفسه ومقدسه، ومنع تدميره وإلغائه من قاموس الواقع الديني للمسلمين.

ومع هذا كله يتساءل الكثيرون: من يمثل الأطراف الدينية الكبرى في مثل هذا الحوار المفترض؟ فمن الطبيعي أن ما يحمله المتحاورون في عقولهم وجعبهم يعبر عن موقف مقدس وسياسي على السواء، فالذين يمثلون اليهودية هم حاخامات اليهود المسيطرون على المؤسسة الدينية في الكيان الصهيوني وأمريكا وغيرها من البلدان، وهم من المتعصبين الأرثوذكس الذين أسسوا الكهنوت العنصري الصهيوني الحديث، عوبيديا يوسف الذي وصف العرب والمسلمين بالأفاعي كما أشرنا قبل صفحات، فهذا الحاخام يمثل أكثر من نصف اليهود الموجودين في فلسطين، وهو سلطة بحد ذاته لا تستطيع الحكومة أن توقفه عن القول والفعل.

ليفنغر: حاخام حاول وجماعته تفجير الأقصى مراراً، وهو يدعو إلى قتل العرب أو طردهم، ويعتبر استمراراً لنهج الحاخام العنصري المقتول مائير كاهانا.

شنيؤورسن: الذي يقول إن اليهود خلقوا من الروح المقدس، أما باقي الشعوب فقد خلقوا من النجاسات.

إذن من يمثل اليهودية في مثل هذه الحوارات؟ هل يمثلها حاخام طائفة ناطوري كارتا (حراس المدينة) الذي لا يُعترف به كيهودي؟ أم يمثلها حاخام عنصري قوي الشكيمة يحقد على الأغيار ويريد إبادتهم؟ وهل الكيان الصهيوني ساذج يمثله رجل دين يهودي يتنازل عما يسمى الهيكل وعن (أورشاليم التوراتية) أو يشكك في مزاعم الحاخامات اليهود بشأن القدس وجبل الهيكل؟

إن الحوار المفترض والذي يجري بين فترة وأخرى وجرى جزء منه في عمّان ليس سوى خطوة في المخطط اليهودي الشامل والرامي إلى تثبيت السيادة اليهودية على القدس، وقبول العرب والمسلمين بالأمر الواقع المفروض.

إن ممثلي اليهودية لن يأتوا محاورين، إنما يأتون فارضين تصورهم بشأن القدس، ولن يستطيعوا الحوار بشأن القدس، لأنهم محكومون لآلاف السنين من الأساطير التوراتية والأحكام التلمودية، ومحكومون أيضاً لرؤية المشروع الصهيوني الاستعماري الذي يرى فلسطين أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض.

ولعل الأسوأ في مثل هذا الحوار أن ممثلي الطوائف البروتستانتية الأمريكية والغربية تطرح نفس المقولات التي يرددها حاخامات اليهود حول القدس، بل إنها تغالي في أصوليتها المتزمتة وعدائها العنصري للعرب والمسلمين، وهي التي تدفع باتجاه هدم الأقصى والإسراع ببناء ما يسمى الهيكل، حتى يأتي المسيح الجديد، وهذه الطوائف لها الصدارة في الشؤون السياسية والإعلامية في الولايات المتحدة، وهي تمثل أكثر من مائة مليون بروتستانتي أمريكي من بينهم رؤساء للولايات المتحدة وزعامات الحزبين الجمهوري والديموقراطي.

إن ما نبحث فيه ليس ضرباً من الخيال، أو ضرباً من التطورات المفترضة، فإن كان حوار الأديان الذي يظهر بين الحين والآخر لم يتم بالشكل الكبير في إحدى العواصم العربية فإنه يكرس عملياً هنا وهناك في إحدى العواصم الغربية.

ولعل آخر إفرازاته ذلك اللقاء الديني الدولي الذي تم في لشبونة عاصمة البرتغال يوم 24 كانون الأول، فقد رعت هذا اللقاء وهو الثالث عشر من نوعه جميعة رجال وأديان، وشارك فيه نحو 300 شخصية دينية من مختلف ديانات العالم الأساسية، وشارك فيه أيضاً عدد من كبار المسؤولين في أكثر من خمسين بلداً.

بطريرك لشبونة: اعتبر أن اللقاء ضروري على الرغم من أنه لن يحل مشكلات العالم، وسيكون خطوة صغيرة من أجل السلام، ومن أجل البحث عن حلول لإقامة حضارة سلام، وقد كان عنوان اللقاء محيطات سلام أديان وثقافات، ولعل أهم ما بحثه هذا اللقاء مسألة التعايش والسلام في الشرق الأوسط، ونهضة أفريقيا.

وحتى نعيد إلى الذاكرة ما قلناه فإن هذا اللقاء تلّون بحضور يهودي متميز، وقد خطب فيه حاخام مدينة حيفا شائير ياشوف كوهين، فحض على إرساء السلام، ولكن أي سلام؟ إنه السلام الذي يعتبر جبل الهيكل المكان الذي يجمعنا وليس يفرقنا حسب قوله.

وحسب قوله يعني أن لا وجود للمسجد الأقصى، بل هناك وجود لجبل الهيكل، كلام هذا الحاخام يشير إلى المكان الأكثر قدسية بالنسبة لليهود، حيث يقوم في الموقع ذاته الحرم القدسي الذي يضم مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين.

وقال الحاخام في معرض حديثه: إن هيكل سليمان بُني ليكون موقع عبادة لكل الشعوب، ولكل الأديان، مضيفاً أنه من المأساوي أن يكون مستقبل القدس قد أصبح عقبة أمام السلام، فأين هو هيكل سليمان؟

فإذا كان المسجد الأقصى جاثماً على هذا الهيكل حسب زعم اليهود فإن دعوة الحاخام شائير كوهين تعني أنه يجب أن يشيد هيكل سليمان من جديد لينفتح أمام كافة الديانات وأصحابها، وهذا المنطلق الذي يطرحه الحاخام لم يأت على ذكر

المسجد الأقصى أو قبة الصخرة، أو الأماكن الإسلامية المقدسة، وكأني به يقول: لِيُلغ المسجد الأقصى ويُقام الهيكل، وليكن أصحاب كافة الديانات يهوداً، لأن الهيكل حسب قوله: هو المكان الذي يجمعنا وليس يفرقنا، ولا يجتمع في هيكل اليهود إلا اليهود أو المتهودون، فليس من المعقول يهودياً أن يُقام الهيكل ويصلي المسلمون صلاتهم فيه، أو يقدس المسيحيون قداسهم داخله.

وعودة على بدء فإن حوار الأديان دعوة لإلغاء كل ما نزل في حق بني إسرائيل في القرآن الكريم، ودعوة لإسقاط ما في الذاكرة المسلمة من تاريخ يهودي مُشين أيام رسول الله ـ ﷺ ـ ودعوة لإلغاء التاريخ الذي شهدت كل حلقاته دموية اليهود وعنصريتهم، وبعد هذا وذاك لن يكون هناك حوار الأديان سوى فرض إلغاء إسلامية القدس، أو تهويدها، ولن يُحقق ولا بالأحلام سيادة الحق الإسلامي على المدينة العربية المقدسة، إن كل هذا دعوة لمن يريد التحاور أن يعيد النظر في الموقف والواقع والاحتمالات.

الصهيونية وحوار الحضارات:

في طبيعة التكوين النفسي تميل أكثر الشعوب والأمم إلى الانفتاح والتعارف، وتلك هي طبيعة الفطرة البشرية التي تميل إلى الأنسنة والاجتماع.

وإذا كان الشعار الأكثر بروزاً هو شعار حوار الحضارات في هذه الأيام فإن من حقنا كعرب ومسلمين أن نطرح شعارنا الأكثر إلحاحاً وهو إقرار الحق لشعب فلسطين، وتخلصه من الاستعمار الصهيوني البغيض، ومن ثم ليس هناك الكثير من المعوقات أمام شعار حوار الحضارات وتحقيقه على أرض الواقع.

الصهيونية باحتلال فلسطين وتهديد بني البشر بالفتك والنفي تقف سداً حاقداً بين قنوات الاتصال بين الشعوب، فلا حوار بين الشعوب طالما هناك صهيونية.

لماذا تتناقض الصهيونية مع حوار الحضارات؟

لا شك أن طرح مثل هذه المقولة لن يجدي طالما ظل الطرح يدور في أجوائنا وعقولنا وحدنا، فمن المفترض أن يفهم العالم بأسره وخاصة العالم الغربي أن الحوار الذي ينادي به الكثيرون لا يمكن أن يكون في كوكب آخر غير الأرض، فعلى هذه

الأرض وجهان متناقضان؛ وجه الحضاريين الذين يسعون لسعادة إنسانية شاملة، ووجه غير الحضاريين الذين يرون في الحوار قتلاً لأطماعهم وتمددهم اللاشرعي في الأرض.

ومن هنا كان على العقل البشري أياً كان أن يبحث وبشكل موضوعي عن مدى توافق الشعوب والأمم مع حوار الإنسانية، وعن مدى تعارض الصهيونية كنظرية وتطبيق مع ذلك الحوار.

فإذا عدنا إلى الأسس الخاصة التي تقوم عليها الصهيونية، وجدنا أنها أسس عنصرية استندت على حس عنصري خرافي قديم، واعتبرته مقدساً لأنه يرى في العنصر اليهودي بشراً يستحق الحياة، بينما يرى غيره حيواناً لا يستحق إلا الاستعباد والاسترقاق.

إن أحداً لا يستطيع أن ينكر وجود هذا التطلع الصهيوني لأنه موجود في النصوص التوراتية والتلمودية بشكل واضح جلي لا لبس فيه، والواقع أن النظرية الصهيونية التي استندت على مثل هذا الأساس لن يستطيع معتنقوها التخلص من عقدة الفوقية. وحتى وقتنا الحاضر ما تزال هذه العقدة تكبل العقلية اليهودية، فلا يمكن أن تتحرر منها لتنطلق إلى عالم الحوار، ويبدو أن التأثير الفكري الصهيوني بمستنده التوراتي التلمودي ما زال يؤثر في العقل الغربي، أو يضع في تصوره عقبات قوية تحد من الانطلاق نحو الحوار الإنساني البناء، وليس الحوار الذي يُفهم منه سيطرة طرف على آخر فكرياً وثقافياً وحتى عقيدياً.

وإذا تجاوزنا عقدة العنصرية في الشخصية الصهيونية الساعية لصدام الحضارات وتدميرها، فإننا لا شك نقف وجهاً لوجه مع البحث عن المعطيات الحضارية التي تتمتع بها الشعوب الحضارية، فهذه المعطيات تمنح تلك الشعوب حججاً ومبررات منطقية للبحث عن الحوار، ولكن البحث التاريخي والعلوم الأخرى كالآثار وعلم الشعوب تعجز تماماً عن إيجاد أي معطيات حضارية قدمها اليهود، وربما نتفق إلى حد ما مع القول إن اليهود لديهم تاريخ وليس لديهم جغرافيا. نعم إنهم يفتقدون للجغرافيا فيفتقدون للبناء والحضارة، أما إذا نظرنا في

التاريخ اليهودي فإننا سنكون مصدومين تماماً لما نجده من تزوير وتحريف وتلفيق وتشويه فيما كُتب ودوّن في كتاب التوراة باعتباره حسب بعض المستشرقين المغرضين المصدر التاريخي الأول للشعوب.

فإذا كانت النظرية الصهيونية لا تجرؤ على البحث عن المكونات الحضارية لليهود، فكيف لها أن تقبل بمفهوم حوار الحضارات، والواقع فإنها وكذلك أصحابها يُستبعدون من دائرة التعارف الإنساني القائم على احترام الإنسان للإنسان، فبأي وجه يمكن أن يشاركوا في حوار للحضارات؟

ومن جانب آخر فإن الصهيونية وبسبب فقدان أصحابها للحس الإنساني والتساوي بين البشر، وكذلك بسبب انعدام البعد الحضاري لدى أصحابها فإنها راحت منذ البدء تسعى لتدمير الطرف العربي والإسلامي بكل السبل، لأن هذا الطرف هو المؤهل دوماً للبناء الإنساني، والحوار الحضاري المنفتح.

وعبر آلاف السنين من الصراع بين اليهودية التحريفية والحضارة العربية بدءاً من الصراع مع الكنعانيين، وانتهاءً بالصراع مع أصحاب العقيدة الإسلامية السامية لم يكن الطرف اليهودي التحريفي سوى الوجه التدميري العنصري لأي حوار، ولم يشهد التاريخ واقعة واحدة تشير إلى دور حضاري إيجابي قام به هذا الطرف العنصري.

ويبدو أن أبناء الحضارات القديمة أدركوا دوماً أن في الأرض عنصراً تخريبياً لا يريد للبشرية أن تعيش في استقرار، فلم تكن مصادفة أن يكون الرد قاسياً من قبل أبناء الحضارات تجاه اليهودية التحريفية.

وإذا كان الفكر الصهيوني منذ حوالي قرن ونصف من الزمان استطاع أن يخدع العالم الغربي، فإن طبيعة المسار الإنساني ترفض أن يبقى الخداع إلى ما لانهاية.

إن هذه الطبيعة العنصرية تريد أن تلغي العنصر الإيجابي الفاعل في بناء الحضارة. ولا شك أن هذا يجعلنا نرى عن كثب التصادم الواقع بين عنصرين متناقضين، تصادمُ عنصر سلبي بعنصر إيجابي، العنصر الأول يريد أن يدحر العنصر الثاني، أن يمحوه من أمامه أو يزيله، والعنصر الثاني بطبيعته وأسسه وتصوره يرفض التلاشي والإزالة والتدمير.

وإذا جاز لنا التوسع أكثر فأكثر نقول: إن الذي يمتلك عبر تاريخه سلسلة مترابطة من القتل والإرهاب والتدمير والحقد على الآخرين لا يمكن أن يكون إنسانياً في يومٍ من الأيام، فهو في مقياس الحضارة يقبع على الهامش متحيناً الفرص للاقتناص والانقضاض فحسب، فأين اللمسات الحضارية التي خلفها اليهود الصهاينة وأجدادهم؟ هل من أثر حضاري في مملكة الخزر التي صدّرت لأوربا الشرقية كلها هؤلاء اليهود العنصريين؟ هل من أثر حضاري لبني إسرائيل في طول البلاد وعرضها؟

من لا يمتلك حضارة يحقد على الحضارة وبُناتها، أو يندمج مع الحضاريين يبني لصالح البشرية.

لكن الصهيونية بجذورها الدينية العنصرية ما تعودت أن تشارك أبناء البشرية بناء الحضارة، وما تعودت إلا السعي لتدمير قيم الحضارة الإنسانية لأنها ترى أن حياتها مرهونة بموت الآخرين، أو إذلالهم ودس الفوضى في نفوسهم وعقولهم ومجتمعاتهم.

إن العنصر المغيّب لدى المنادين بحوار الحضارات هو العنصر الأساسي في أي حوار، وهذا العنصر هو احتلال الصهاينة لأرض فلسطين، والقيام بأكبر عملية تصفية عنصرية للإنسان الفلسطيني، فإذا كان الحوار بين شعوب اليوم يرفع شعارات كبرى كالعدالة والحرية والحق ورفع الظلم، فإن هذه الشعارات تصطدم اصطداماً مدمراً بواقع الاحتلال الصهيوني لأرض فلسطين، وبواقع التصفية العنصرية الصهيونية لأبناء فلسطين.

وعلى الغرب الذي يطرح بعضُ مفكريه وسياسييه مسألة الحوار بين الشعوب كحل لبعض أزمات الصدام والصراع الحضاري أن يدرك أنه لا يصح أن يطرح مسألة الحوار وهو ما يزال يعيش تحت وطأة نفاق سياسي تجاه التزييف الصهيوني والخدعة الصهيونية الكبرى، والتضليل العنصري المستمر.

ولعل القيم الإنسانية التي يضعها الغرب كأسس للحوار بين الشعوب هي في الإطار النظري قيم البشر كلهم، ولكنها في الإطار التطبيقي تصبح نوعاً من التدجيل والخداع، لأنها ترى في وجود الكيان الصهيوني حقاً مشروعاً للمحتلين، وترى في

مقاومة الشعب الفلسطيني لعدوه إرهاباً أو خروجاً على القانون، فكيف يستقيم طرح الحوار بين الشعوب مع موقف غربي إجمالي يقلب الحق باطلاً والباطل حقاً؟

فإذا كان أصحاب الحضارات القديمة وأبناء الشعوب الحديثة يجمعون على أن العنصرية اليهودية التحريفية والصهيونية التدميرية عقبة كبرى في مد الجسور الثقافية الإنسانية بين الأمم، وعقبة أمام أي حوار إنساني إيجابي، فإن إزالة الفكرة الصهيونية والعنصرية من العقلية اليهودية تعتبر من أهم متطلبات الإنسانية السريعة، وذلك شرط موضوعي لأي حوار، لا نضعه نحن إنما تُجمع عليه الشعوب التي ترفض العنصرية والفوقية والاستكبار.

إن الأزمات التي تبرز بين الحين والآخر وفي بقاع شتى من هذا العالم تدور حولها عشرات الأساليب لحلها، وعدم إيصالها إلى حد الحرب والدمار، ولكن الصهيونية التي آلت على نفسها أن لا ترى العالم يتفاهم ويحل أزماته عن طريق السلام والحوار تدس أنفها ونفسها لتنفث سم التحريض والتزييف والدفع نحو مزيد من الخراب في أرضنا البشرية كلها.

وليس غريباً على الفكرة الصهيونية محاولاتها إشعال الحروب والفتن في أي مكان ترى من مصلحتها أن يدمر أو ينشغل بحروب جانبية قد تكون فتناً داخلية، وقد تكون نزاعاً مسلحاً خارجياً أو حدودياً، وهناك أمثلة لا تُحصى يعرفها الجميع ولا حاجة لإعادة التذكير بها.

صحيح أن هناك وجهات نظر نحملها تختلف عن وجهات نظر الغرب بشكل عام، قد نختلف على نمط التفكير والسلوك، وقد نختلف حول العقائد والمعتقدات، ولكنها جميعاً قابلة للحوار والنقاش، وقد تُحل الاختلافات مع الزمن، ولكن جوهر الخلاف الذي لا يمكن حله يدور حول وجود الحركة الصهيونية بأفكارها العنصرية، وحول وجود الاحتلال الاستيطاني في أرض فلسطين، فإذا استثنينا هذه القضية الشائكة والمعقدة فإن مجالات الحوار تفتح آفاقها على مداها.

فإلى متى يبقى الغرب برمته مرهوناً لهذه الحركة وأفكارها العنصرية؟ ألم يحن الوقت حتى ينفض أبناء الغرب عن كاهلهم غبار الصهيونية الأسود، ومن ثم ينطلقون نحو حوار بناء مع أبناء الشرق العربي الإسلامي؟

إن الشرق العربي الإسلامي لا يحمل في طبيعته الصدام الحضاري والصراع مع الآخرين، لأنه أساساً يقوم على قاعدة وحدة أبناء الإنسانية، مهما كانت عقائدهم ومعتقداتهم، والحوار على مدى تاريخ هذا الشرق كان الفاعل الأقوى لتفهم الآخر وفهمه عقدياً وفلسفياً وحضارياً، ولكن الصهيونية التي تقوم أساساً على نفي الآخر ترى في الحوار الإنساني مصيبة كبرى لأهدافها التوسعية العنصرية، ومحاولة تسيّدها على أبناء الأمم والشعوب.

ما بعد الصهيونية والحوار بين الشعوب

يرى بعض الكتاب أن هناك ما يسمى ما بعد الصهيونية، وهذا ما يفتح باباً للحوار لأن ما بعد الصهيونية يناقضها أو يرفضها.

وهكذا شغل بعض المزاجيين أنفسهم بمقولة حديثة صدرها بعض دهاة المفكرين الصهاينة، وتصبح المقولة بين عداد المقولات التي أريد لنا أن ننشغل بها ونتلهى عن قضايانا السياسية... ما بعد الحداثة.. ما بعد الشيوعية، ما بعد الإمبريالية، ما بعد العولمة، وهكذا فالحبل على الجرار ولا ندري أنسمع بعد ذلك ما بعد العروبة، ما بعد الإسلام، ما بعد الحرية، وما بعد الأوطان والقوميات والتاريخ، ما الذي يريدونه من شعار ما بعد الصهيونية؟

قبل الإجابة عن هذا السؤال لا بد من أن نشير إلى أن عدداً من المؤرخين الصهاينة أطلقوا هذه المقولة حديثاً، وعلى الأكثر فإن طرحها لم يكن موجوداً قبل عامين أو ثلاثة، وقيل: إن هؤلاء المؤرخين هم من الجيل الشاب الجديد الذين يحاولون تخطي الأفكار والتنظيرات الصهيونية الأولى التي صدرها الآباء الأولون من الجيل الصهيوني المؤسس.

وإذا عدنا إلى طبيعة هذه الحركة ومنشئها وأفكارها نجد أنها قامت على أفكار عنصرية استندت فيها على ما يسمونه ـ التوراة المقدس ومقولات التلمود التي تفح

سمومها في الوجود كله وفي جميع الاتجاهات ـ فإذا كان يطرح بعض المفكرين اليهود مقولة ما بعد الصهيونية فإنهم يطرحون ما بعد التوراة والتلمود فهل حقاً يرفضون بعد التوراة والتلمود ويشطبونهما من قاموس الحياة الصهيونية؟

وقد روج بعض المزاجيين أفكار هؤلاء المؤرخين حين قالوا: لنذهب إلى جزيرة نائية ونقيم مجتمعاً جديداً بعيداً عن فلسطين والمنطقة، ولعل الأغرب من ذلك أن هؤلاء المنبهرين بهذه المقولات يروجون مقولات متخيلة توحي بأن في الكيان الصهيوني من يريد التخلي عن المشروع الصهيوني برمته، أي: يتخلى عن مقولة أرض الميعاد أرض (إسرائيل التوراتية) والواقع أنه بين هذا الطرح والواقع مسافة كما هي المسافة بين جمهورية أفلاطون والواقع مع الفارق في النوع والدرجة في التمييز والأفضلية.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن هؤلاء المؤرخين اليهود الجدد الذين يطرحون مقولة ما بعد الصهيونية هم من جيل الصابرا، أي: الجيل الذي ولد في فلسطين ولم يولد في روسيا أو بولونيا أو أثيوبيا أو أمريكا، وجيل الصابرا هو الجيل الذي يستند إليه الكيان الصهيوني في تركيبة الجيش والمؤسسات وشن الحروب على العرب، وهذا الجيل هو الذي أفرز القادة الصهاينة العنصريين.

فما الذي يدفع هؤلاء المؤرخين لطرح مقولة ما بعد الصهيونية؟ هل لأن الجيل الذي أفرزهم لم يعد يؤمن بالصهيونية؟ هل لأن أرض فلسطين لم تعد صالحة لتحقيق أحلامهم وتخيلاتهم عن أرض السمن العسل؟

نعتقد أن المسألة أبعد من ذلك بكثير، فهي إما توحي بأن أزمة فكرية تقبع في عقول هؤلاء ليوحوا أن الحركة الصهيونية تحتاج لتجديد في التفكير والسلوك والتعامل مع الآخرين، وليس التجديد يعني الانفتاح والتخلي عن المشروع الصهيوني، وليس السلوك الذي يغير من سبل التدمير والقتل للشعب الفلسطيني تحديداً، وليس التعامل مع الآخر الذي يلغي العنصرية والفوقية والفرز غير الإنساني.

وإذا كان أصحاب هذه الدعوة جادين فالطريق مفتوح لهم ليفكروا بأي اتجاه يسافرون، وهذا مُتاح لأن في هذه الجزر النائية الجميلة في المحيط الهادي وكذلك

الأطلسي ما يصلح لتحقيق مقولاتهم، فإذا ما فتحوا الطريق وبنوا أول مستوطنة نموذجية مريحة بعيدة عن الصخب وآلام العنف والدمار فإن الكثيرين من اليهود ممن يفتشون عن هذا النموذج سيلحقون بهم ويعيشون معهم بأمان، ولكننا لسنا سذجاً حتى نقع في هذا الفخ الفكري الذي نصبوه لبعض المزاجيين منا، فما يطرح ليس إلا واحداً من سلسلة مترابطة من أساليب الإعلام الخبيث الذي يقصد إلى إنشغالنا بما هو مستحيل وتناسينا ما يجري على أرض الواقع من ذبح وقتل وتدمير وتهديد للحياة.

إن إشاعة مقولة ما بعد الصهيونية يطرح على العقل العربي سؤالاً في غاية الخطورة، فإذا كان المؤرخون الصهاينة الجدد يطرحون شعار ما بعد الصهيونية فهل فكرتم أيها العرب بمقولة ما بعد العروبة، أو ما بعد الإسلام، فماذا بعد العروبة. . ماذا بعد الإسلام.

لا شك أنهم يلقون السؤال ولا يجيبون ويتركون العرب ومفكريهم يتخبطون في إيجاد الجواب الشافي على مثل هذا السؤال، ذلك الشرك الذي أرادوه والذي يبدو أن المهزوزة أفكارهم وقعوا فيه، وبتنا نسمع همساً يعلو شيئاً فشيئاً، ماذا بعد العروبة؟ ماذا بعد الإسلام؟ عناوين عفا عليها الزمن، لتجددوا فكركم أيها العرب والمسلمون!! ولتدخلوا العولمة كي نرى السعادة الإنسانية تعم من خلال حوار الحضارات والثقافات!

هكذا تصبح العروبة من مخلفات الماضي، وهكذا يصبح الإسلام كابوساً يجب التخلص منه.

أما الهوية فهي ليست سوى مقولة ساذجة في عالم يعيش اليوم بين الحاسوب والإنترنيت، ما بعد الصهيونية ذئب عتيق يرتدي جلد نعجة أو لنقل ذئب خبيث يلبس ثياب الجدة، ويتقمص شخصيتها حتى يبتلع حفيدتها الطفلة البريئة، ونعتقد أن طرح هذا المفهوم ليس بعيداً عن طرح حوار الحضارات على المقاس الغربي، أو عن طرح مفهوم العولمة، وليس بعيداً أن العقل اليهودي الصهيوني العالمي هو الذي روَّج للعولمة وما بعد الصهيونية، ويروج لها إما مفهوماً مفهوماً، أو حزمة من المفاهيم، وإلا ماذا يعني طرح هذه المفاهيم ونشرها على نطاق واسع في زمن ما يسمى أحادية

القطب، وفي زمن الحصارات وزمن تسيّد القوى الصهيونية والإمبريالية العالمية على الاقتصاد والتجارة والإلكترونيات المعقدة ووسائل الإعلام؟

إن من يراجع الحركة الصهيونية وأفكارها منذ أكثر من مائة عام يدرك أن طرح المفاهيم الكبرى كمفهوم ما بعد الصهيونية ليس قفزة في الهواء، أو هو ظاهرة شاذة منحرفة عن المسار، ونعتقد أن المفاهيم هذه حين يطرحونها لا تخرج عن نطاق التفكير الصهيوني الاستراتيجي، ولعلنا نتذكر جميعاً كيف بدأت الفكرة الصهيونية قبل أن تظهر الحركة الصهيونية نفسها كحركة سياسية قادها هرتزل والقادة الصهاينة الأوائل منذ عام (1840) بدأ تاريخ الترويج اليهودي للفكرة من خلال ما يسمى حركة أحباء صهيون وغيرها من الحركات التي ظهرت بأوربا الشرقية وروجت لأفكار صهيونية خيالية أو غير قابلة للتصديق والتحقيق آنذاك.

ونتذكر جميعاً كيف افتعلت الجماعات الصهيونية اليهودية خلافات مع هرتزل والحركة السياسية الصهيونية، لكنها كانت جميعها في نفس المسار في الدائرة الصهيونية الكبرى التي استخدمت كافة الوسائل والأساليب لصنع ما يسمى الهجرة اليهودية إلى فلسطين، ثم ما يسمى الكيان القائم على أرضها.

وهنا نحن نشهد نفس المسرحية، ولكن تحت عنوان جديد وآلية جديدة، فالذين يطرحون ما بعد الصهيونية ليسوا سوى حفنة من المؤرخين الشباب دُفعوا لطرح مفهومهم لتكون هناك ردة فعل صهيونية عامة تدعو إلى التشبث بالكيان والقتال من أجل التسيّد والتفوق في المنطقة.

ولعل ما سمعناه همساً أو تلميحاً أو تصريحاً من قبل عوفيديا يوسف الحاخام العنصري ومن قبل بعض مَن تبقّى من الرعيل الصهيوني الأول أمثال شارون ما يدل على أن تكتيك الحركة الصهيونية يستوجب دوماً الدفع نحو خلق حيوية للتفاعل بين التجمع الصهيوني والتشبث بالأرض.

ونعتقد أن خمسين عاماً مضت على احتلال فلسطين لم تستطع أن تؤسس أسساً راسخة لدى الشخصية الصهيونية تربط بينها وبين الأرض المحتلة فلسطين.

وطرحُ مثل هذه المقولات من شأنه أن يكون كالوخزة التي توقظ مـن أراد النـوم أو الاسترخاء.

على أية حال فإن ما تطرحه الأفكار الصهيونية لم يعد غريباً، ولا تنطلي حيلتـه علينا، ولكن الذي يقلق هو أن يتناول بعض الكتاب المحليين السذج نقاشـاً حـول هـذه المفاهيم، فهم بذلك يروجون لمقولات يريدها قادة الصهاينة أن تكون الشـغل الشـاغل لنا. وكأنها فعلاً قضايا مفصلية تغير وجه الصراع.

نعم لقد وقع بعض هؤلاء الكتاب في فخ المسرحية الصهيونيـة، ولا نـدري هـل أصاب هذا الفخ العقول أو الأجساد، لا ندري ألم ينتبهوا للألم الداخلي الذي أحدثه الوقـوع بـين فكـي الفـخ؟ أم أن الوقـت لـم يحـن بعـد حتـى يصحـوا ويدركـوا جوهـر الصهيونية تكتيكاً واستراتيجية؟

وحتى نختصر المسألة نرى أنه لا شيء بعد الصهيونية سوى الصهيونيـة كمـا أنـه لا شيء قبلها ولا شيء بعدها سوى نفسها.

الصهيونية واحدة مهما تغير الوقت، ومهما تقدم بنا الزمن.

ونعتقـد أن هـذه الفكـرة القائمـة أساسـاً علـى الأسـاطير التوراتيـة. والتـهويمات التلمودية، والأفكار العنصرية لا يمكن لها أن تنتـهي إلا فـي حالـة واحـدة وهـي حالـة إلغاء التوراة المحرفة والتلمود العنصري من العقل اليهودي وهذا ضرب من المستحيل.

إن الذيـن طرحـوا مقولـة مـا بعـد الصهيونيـة ليسـوا دعـاة تدمـير للتـوراة المحرفـة والتلمود، وليسوا دعاة سلخ الشـخصية اليهوديـة مـن يهوديتـها، ولنسـا نجـد فـي هـذا المقام أفضل من قوله تعالى حين وصف العقلية اليهودية بقوله: ﴿لـن نؤمـن لـك حتـى نرى الله جهرة﴾ فهذه هي العقلية التي لا تؤمن بشيء لأنها ترى نفسها فوق كـل شـيء ولن يؤمنوا بحقنا لو خرجنا من جلودنا وعقائدنا وانتمائنا القومي والإسلامي.

الصمت الغربي عن العنصرية الصهيونية أحد مقومات الحوار بين الشعوب:

أجمع الغرب شعوباً وحكومـات علـى أن العنصريـة النازيـة وامتدادهـا شـكلت تحديا لجميع القيم الإنسانية التي أجمعت عليها غالبية شعوب الكرة الأرضية.

وحين تبرز إلى الوجود حركات النازية الجديدة في ألمانيا والنمسا وغيرها من البلدان تستنفر كافة وسائل الإعلام، وكذلك الأصوات الحكومية الرسمية لتحذر من تنامي هذه الحركات وانتشار أفكارها العنصرية.

وعبر المسيرة المعاصرة لكافة الحكومات الغربية وشعوب بلدانها عبرت الأصوات الشعبية والحكومية عن رفضها لسياسة التمييز العنصري التي كانت سائدة في جنوب أفريقيا وغيرها من المناطق الأفريقية، وعملت هذه الأصوات على إنهاء هذا التمييز العنصري لأن العصر لم يعد يحتمل أن يرى تمييزاً بين الشعوب والبشر بسبب اللون أو العرق أو الدين.

وإذا كان الغرب اليوم يدعو لحوار الشعوب فلماذا يتغاضى عن جرائم صهيونية عنصرية تفوق في ممارساتها ما فعلته النازية والتمييز العنصري في جنوب أفريقية، فالّذي يدعو للحوار مع العرب والمسلمين من المفترض أن تكون حقوقهم مصانة وليست منتقصة. ونعتقد أن أهم حق للعرب والمسلمين هو حقهم في فلسطين والمسجد الأقصى، وهما أكثر مكانين يتعرض فيهما العرب والمسلمون لجرائم عنصرية لم يشهد التاريخ الحديث مثلها.

والأقسى من ذلك أن الغرب برمته يتغاضى عن ممارسات الصهيونية العنصرية ويجد لها آلاف التبريرات حتى يبعد عنها صفة العنصرية، ولعلنا نتذكر كيف عمل الغرب بقضة وقضيضة لإلغاء قرار الأمم المتحدة الذي يساوي بين العنصرية والصهيونية.

وقد ألغي القرار وكأنهم يريدون إلغاء الحقيقة، والحقيقة لا تُلغى ولا تشطب بقرار، وحين تتحرك بعض الشعوب لاعادة الاعتماد للقرار الذي يساوي بين الصهيونية والعنصرية تقوم قيامة الغرب والحركة الصهيونية، فيكرسون الإعلام المضاد ويرسلون المندوبين من أعلى مستوى سياسي ليوقفوا تحرك الضمائر الإنسانية التي ترى عنصرية الصهاينة كل ساعة وهي تمارس ضد الشعب العربي في فلسطين.

في جنوب أفريقيا تحركت الضمائر الإنسانية لتعقد مؤتمراً دولياً عن العنصرية الصهيونية فتستنفر الولايات المتحدة، وتبدأ حملتها للضغط على حكومة جنوبي أفريقيا لإلغاء المؤتمر المنوي عقده، وإلغاء الموضوع المتعلق بالعنصرية الصهيونية.

وفي كثير من البلـدان يضغـط اللوبـي الصهيوني دومـاً باتجاه إلغـاء أي قـرار أو ندوة أو مؤتمر يدين سياسة الاحتلال العنصرية الصهيونية، ولعل قرار بلجيكـا بتعديـل المادة القانونية التي تجيز محاكمة مجرمي الحرب أياً كانت مواقعهم دليـل واضـح علـى خضوع الغرب للضغوطات الصهيونية الواسعة في أوربا وأمريكا.

فهذه المواقف وذلك السكوت عن ممارسات العنصريـة الصهيونيـة بـاتت تشـكل لدى الإنسـان العربـي وغـير العربـي موقفـاً معادياً للغـرب باعتبـاره يقـف بصمتـه إلـى جـانب ممارسـات الصهاينـة دون أي اعتبـار لمشـاعر العـرب والمسـلمين وكافـة أبنـاء الشعوب والإنسانية، لكن مع كل هذه التوجهات الغربية وردود الأفعـال عليـها لا بـد أن نطرح سؤالنا التالي:

لماذا يسكت الغرب عن العنصرية الصهيونية على الرغـم مـن أنـه يمتلـك أحـدث وسـائل الإعـلام لتريـه مـا يحـدث مـن ممارسـات جيـش الاحتـلال ورئيـس حكومـة الصهاينة وطاقمه من السياسيين والعسكريين والسياسيين والأمنيين.

وحين نفتش عن جواب نجد عشـرات الأجوبـة علـى هـذا السـؤال وليـس علـى جواب واحد، فبعـض الدارسـين يـرون أن الغـرب لا يـزال تحـت تـأثير العنصريـة التـي مورست في أفريقيا والشرق الأوسط إبان الاستعمار المباشر لها، بمعنى أنه لا يرى فـي ممارسة جيش الاحتلال الصهيوني عنصرية تمارس ضـد الشـعب الفلسـطيني، وبعـض القارئين لطبيعة العلاقة بين الحركة الصهيونيـة والغـرب يـرون أن الغـرب برمتـه يخشـى الصهيونية ويرهبها لما تملكه من رؤوس أمـوال، ووسـائل إعـلام، ونفـوذ فـي أوسـاط القـوى السياسـية العاليـة المستوى فـي أوروبـا وأمريكـا، وطـرف ثـالـث يـرى أن مـن مصلحة الغرب سياسياً واقتصادياً واسـتراتيجياً أن يتعـامل مـع الحركـة الصهيونيـة بـود واحترام، وأن يرى المصلحة العربية في المقام الأخير، وأن يتعامل مـع العـرب استناداً إلى أساس واحد تغلب فيه مصلحة الغرب على كل المصالح.

وتكثر الإجابـات حتـى يبـدو أن جميعـها يقـع فـي دائـرة الصـواب. وتشـكل منظومة صحيحـة لجـواب واحـد.. بمعنـى أن كـل التحليـلات للأسـباب الكامنـة وراء موقف الغرب من العنصرية الصهيونية صحيحة على الرغم من أن كـل جـواب وحـده

يظل ناقصاً إن لم يدعمه الجواب الثاني والثالث. على كل حال فإن ما نريد قوله هو أن الغرب حسب رأي قادته يمثل الديموقراطية والحرية الإنسانية، فهو يعادي حسب ما يقول كل أشكال الديكتاتورية، ويشن حملاته ضد كل أشكال الإرهاب والعنف كافة، حتى إنه يقف معادياً ضد أي كتاب أو مجلة أو محطة فضائية تتخذ موقفاً معادياً للحرية كما يفهمها الغرب.

ومع كل هذا وذاك فإننا نسأل الغرب برمته ألم تقرؤوا كتاب التوراة؟ ألم تقرؤوا نصوص التلمود؟

ونعتقد أن جميع الغربيين قرؤوا التوراة باعتباره العهد القديم، وباعتبار الإنجيل العهد الجديد، وقرؤوا التلمود أكثر منا، ونسخُه موجودة باللغة الإنجليزية والفرنسية والطليانية في المكتبات الكبرى وبعض الكنائس البروتسانتية، ونحن لم نر نسخة كاملة منه باللغة العربية.

وللتذكير فقط نورد النص التالي من سفر اللاويين من التوراة، الإصحاح الخامس والعشرين من الفقرة السادسة والثلاثين حتى الفقرة السابعة والأربعين.

أما اليهود فإنهم عبيدي الذين أخرجتهم من مصر لا يباعون بيع العبيد، وأما عبيدك وإماؤك الذي يكونون معك فمن الشعوب الذين حولكم، منهم تقتنون عبيداً وإماء، وأيضاً من أبناء المستوطنين النازلين عندكم منهم تقتنون ومن عشائرهم الذين عندكم الذين يلدونهم في أرضكم فيكونون ملكاً لك وتستملكونهم لأبنائكم من بعدكم ميراث ملك تستعبدونهم إلى الدهر).

فإذا قلتم إن هذا النص كان معمولاً به في عصره، فماذا تقولون في حكم الجملة الأخيرة من هذا النص؟ ألم يقل تستعبدونهم إلى الدهر؟ ألا يعني الدهر هنا حتى آخر وجود بشري على هذه الكرة الأرضية.

ونحيلكم إلى نص آخر من التلمود يقول: (من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود بالفردوس، والجلوس هناك في السراي الرابعة ـ ومن العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر ـ لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً إلى الله.

وماذا تقولون بأقوال هرتزل عندما صرح بأنه سيقوم بحملة صيد كبيرة ليضع القنابل في وسط الحيوانات (العرب) ويميتهم جميعاً.

وماذا تقولون بأقوال عوفيديا يوسف عندما صرح بأن العرب أفاعٍ وعقارب ويجب أن يبادوا وأن الله ندم على خلقه العرب.

كل هذه النصوص التي وردت في التوراة والتلمود والفكرة الصهيونية لا تشكل شيئاً يذكر من العنصرية لدى الغربيين، ولو تعني شيئاً لوجدنا الواقع الغربي مختلفاً من حيث موقفه من العنصرية الصهيونية وسلوكها المشين.

إن الغرب الذي يصيح دوماً ويحتج على العنصرية والديكاتورية ويدافع عن الحرية والديموقراطية حري به أن يفتح العينين معاً لا أن يفتح عيناً ويغلق أخرى، حري به أن يكون ذا وجه ينظر إلى الأمام لا أن يكون ذا وجه يرى من جنبه الأيمن ولا يعير أي اهتمام لجنبه الأيسر.

إن ممارسات الصهيونية العنصرية لا يكفيها سجل واحد حتى يتبين أنها فعلاً عنصرية! والواقع أن هناك سجلات تاريخية وعقيدية تلطخ وجه هذه الحركة بوصمة عار للعنصرية على شتى أشكالها القديمة والحديثة.

وإذا كانت دعاوى الغرب صادقة من أجل الحوار بين الشعوب وحرية الإنسان وكرامته فعلى الغرب نفسه أن يفكر أيضاً بحرية ومنطق إنساني متكامل دون أي ضغوط نفسية واقتصادية أو فكرية، ودون أي رهبة أو خوف من قول الحقيقة التي هي واضحة كالشمس في رابعة النهار.

إن الغرب بصمته عن ممارسات الصهاينة يعارض ما يطرحه من حوار للحضارات والثقافات، وهو يتحمل مسؤولية أخلاقية كبرى أمام التاريخ، وأمام الإنسانية جمعاء، وأمام ما يطرحه من قيم الديموقراطية ومعاداة العنصرية.

وإذا بقي الموقف الغربي سلبياً تجاه ما يجري من ممارسات العنصرية الصهيونية، فإن مصداقية ما يطرحه ستُفقد قطعاً إن كان ذلك على المستوى الفكري أو المستوى الاجتماعي أو غيرهما من المستويات، وسيدرك الذين لا يزالون غير مدركين أن

الغرب بموقفه السلبي تجاه العنصرية الصهيونية وممارساتها سيعيد إلى الذاكرة ممارسات الغرب الاستعماري العنصرية إبان الحرب العالمية الأولى واحتلال الوطن العربي.

وسيعيد إلى الذهن العربي تقويمه لمواقف العالم الغربي المعاصرة. عندها لن يكون الغرب بمنأى عن التعرية، وفضح كافة جوانب حياته السياسية والفكرية والنفسية والاقتصادية.

وإذا كان الغرب يضع مصالحه الاقتصادية في سقف أولوياته فإن ذلك لن يكون سوى تهديم لكل طروحاته التي يصيح بها هنا وهناك، ونعتقد أن الزمن يتغير ولن يبقى على مسار واحد يرتضيه الغرب فحسب، وتلك طبيعة الأشياء فما بالنا في طبيعة البشر والأوطان؟

الغرب يقرر استنكار انبعاث العنصرية والعداء للسامية ومظاهر العنف، ويرى أن إنكار الهولوكست أو إغفاله يعزز الاتجاهات العنصرية والتعصب، ويقرر تجريم كل من ينكر الهولوكست أو نفيه أو مراجعته، فهل يجرم الغرب من ينكر الهولوكست بحق فلسطين من قبل الصهيونية العنصرية؟ الغرب حليف الولايات المتحدة أعربت دُوله عن تفهمها للموقف الأمريكي الرافض لاعتبار الصهيونية شكلاً من أشكال العنصرية، فهل تعرب دول الغرب عن تفهمها للأطفال الرضع والشيوخ والنساء من أبناء فلسطين وهم يذبحون كل ساعة على أيدي العنصرية الصهيونية؟

الإبادة في ظل الحملة الأمريكية أحد معوّقات الحوار بين الشعوب:

إذا كانت فلسفة الإبادة الجماعية الأمريكية قد سوقت نفسها تحت شعار محاربة الإرهاب، واستطاعت أن تلجم الكثيرين وترعبهم، فإن سياسة الكيان الصهيوني الدموية ما كانت لتحصل لولا الضوء الأخضر المستمر في اخضراره من قبل الولايات المتحدة وما يسمى دول التحالف المشتركة في الحملة على أفقر شعب مسلم في الكرة الأرضية.

وإذا كان الغرب وعلى رأسه أمريكا يتحدث عن حوار الحضارات، أو الحوار بين الشعوب فكيف يستقيم الطرح بينما يوعز هذا الغرب للكيان الصهيوني بشن حملة إبادة بحق الشعب الفلسطيني؟ فسياسة الكيان الدموية المعهودة ظلت تحسب

حساب ردات الفعل الدولية والمحلية حتى حدث ما حدث في نيويورك وواشنطن في الحادي عشر من أيلول، وما تبعه من حملة شرسة بالصواريخ وطائرات ال ـ ب 52 العملاقة، وغيرها من أسلحة الدمار على أفغانستان.

فعندما بدأت هذه الحملة الأمريكية تحت شعار محاربة الإرهاب فتحت الولايات المتحدة الطريق أمام شارون والكيان الصهيوني بشن أكبر حملة إبادة بحق الشعب الفلسطيني، وبات من الواضح أن هذه الحملة لن تجد لها صدى في معمعة ما يجري على الساحة الأفغانية، فهي فرصة لمزيد من القتل، ولمزيد من تدمير عشرات المنازل الفلسطينية، ولمزيد من الحصار والتجريف والتجويع.

قد يدعي بعض من يخدعون أنفسهم أن الولايات المتحدة بذلت جهدها السياسي لمنع شارون من الاستمرار في جرائمه، ففي كل يوم تخرج تصريحات أمريكية من بوش وباول وتشيني وغيرهم ظاهرها الطلب من شارون أن يكف عن توسيع عمليات القتل والإبادة، وباطنها المزيد من القتل، وانتقاء الأهداف البشرية والمادية الفلسطينية كي تكون في مرمى الدبابات وطائرات الأباتشي المتطورة.

على أي حال فمن يقرأ ما وراء السطور وما وراء التصريحات على شتى اتجاهاتها يرَ أن شارون ما كان ليوسع جرائمه لولا وجود حيثيات مساعدة، إن كانت على الصعيد الإسرائيلي أو الصعيد الأمريكي.

فالتجمع الصهيوني الذي عايش سياسة شارون الدموية وجد فيها ما يشبع رغباته ومساعيه الأمنية والسياسية، وهو بذلك يفصح عن دموية جماعية لا تقتصر على شارون وحده، إنما تشمل الأحزاب الصهيونية كلها يمينها ويسارها، والرغبة في إبادة الشعب الفلسطيني أصبحت ملحة لدى القطاعات الصهيونية كلها، المتحزبة وغير المتحزبة، ولا يخفى على المرء أن ما تشهده الأراضي الفلسطينية من قتل جماعي، ونسف منازل يشكل في السياسة الصهيونية ردة اعتبار، لأن الانكسار والاندحار الصهيوني في جنوب لبنان كاد يشكل انهياراً نفسياً وعسكرياً فأراد شارون أن يوقف هذا الانهيار بتحويل وجهة إبادته للشعب الفلسطيني الذي يعيش ظروفاً

مختلفة عما كان يعيشه المقاتلون في جنوب لبنان، ولعل ذلك ما حقق شيئاً من الرغبة الصهيونية في تخطي الأزمة التي برزت مع اندحار الجيش الصهيوني من الجنوب.

أما على الصعيد الأمريكي، فقد استطاعت الحملة الصهيونية الشرسة في أمريكا والعالم الغربي أن تقنع الكثير من الأمريكيين والغربيين على حد سواء بأن الحملة الدموية ضد الانتفاضة الفلسطينية هي جزء من الحملة الأمريكية البريطانية على ما يسمى الإرهاب على الجانب الأفغاني، أوجد الأمريكيون ذرائع لحملتهم النكراء على الشعب الأفغاني الأعزل، وما كادت القاذفات تدك بيوت الطين والقش والمدارس والمساجد في أفغانستان حتى أُسقط في أيدي الكثيرين الذين كانوا ما يزالون يخشون غضب الجماهير العربية والإسلامية من تطور الحملة واستهدافها الفقراء من الشعب الأفغاني، بل وتحولت أهدافها وغاياتها من ضرب لمن سمتهم أمريكا بالإرهابيين إلى ضرب وحشي لمجمعات الأغذية، والأماكن المدنية الأخرى.

في هذا الظل النفسي والعسكري وجد شارون ضالته فصعّد حملته الدموية ليستهدف الأطفال والنساء والمساجد والمراكز المدنية جميعها ليشكل وجهاً آخر من وجوه الحملة الأمريكية على أفغانستان، فإذا صرح مسؤول أمريكي بأن على شارون وقوات الاحتلال وقف المزيد من القتل للمدنيين، جاء الرد الصهيوني بمزيد من الاستهتار وكأنه يقول: إنكم تفعلون في أفغانستان أكثر مما نفعل بالفلسطينيين، فلماذا تطلبون منا أن نكون على غير ما تكونون أنتم؟

إن منطق الإجرام الصهيوني لا يجد حرجاً عندما يصرح بأن ما تستهدفه قواته ليس سوى الإرهابيين ومن يؤويهم، وإذا ما وقع أي خطأ في قتل نساء أو أطفال فإنه لا يختلف عن الأخطاء الأمريكية التي أوقعت آلاف القتلى من الأطفال والنساء في أفغانستان، وهذه هي طبيعة الحروب، بهذا المنطق استطاع شارون أن يجعل من التصريحات الأمريكية مجرد أقوال ليس لها أثر في الواقع، بل إنها مجرد كلام للاستهلاك فحسب فأميركا التي تريد من شارون وقف شكل حملته ليست قادرة هي ذاتها على تغيير شكل حملتها التي كانت أخطاؤها القاتلة أكثر بكثير من صوابها وإصاباتها، وحين ننظر إلى تصريحات المسؤولين الأمريكيين المتعلقة بالقضية

الفلسطينية نرى أن أهم ما فيها تحميل الفلسطينيين مسؤولية ما يجري حتى لو أبيدوا جميعاً على يد شارون وآلته العسكرية الأمريكية الدموية. إن تصريحات الإدارة الأمريكية أشبه بمن يصرخ بالإدانة وفي الوقت نفسه يشير بيده التي خلف ظهره أن هذا الكلام ليس جدياً فافعلوا ما يحلو لكم، وهكذا يفهم شارون اللعبة الأمريكية أو هكذا تعود عليها مثلما تعود عليها من سبقه في الحكومات الصهيونية المتعاقبة.

ولعل أكثرنا سذاجة يتساءل ماذا حملت تصريحات بوش وغيره من المسؤولين الأمريكيين للفلسطينيين عندما زلّت ألسنتهم ولهجوا بالدولة الفلسطينية. فبدل أن تخف المعاناة الفلسطينية ازدادت قسوة وضراوة، وبدل أن يتضاءل عدد البيوت المدمرة تزايد وتضاعف، وبدل أن يشعر الفلسطيني بشيء من الأمل أغلقت كل الأبواب والنوافذ في وجهه وسقط أمله مثلما سقط دوماً في سلة مهملات السياسة الأمريكية المخادعة.

إن كل هذا يؤكد للشعب الفلسطيني أنه الخاسر الوحيد إذا راهن على السياسة الأمريكية، ولن يكون له أمل ولا نجاة إذا هو انتظر ما يسمى الحل الأمريكي، فالأمل الفلسطيني الحقيقي يكمن في استمرار انتفاضته وجهاده ضد المحتلين المعتدين، ولن يوقف شارون ومذبحته المستمرة سوى الرد الجهادي المسلح.

إن شارون يدرك أكثر من غيره أنه عندما ينفذ سياسة الإبادة بحق الشعب الفلسطيني يعرف تماماً أن الغرب برمته وعلى رأسه أمريكا لن يلجمه، وأن العالم العربي نائم لا يريد أن يصحو حتى لو أصبحت دماء الفلسطينيين أنهاراً.

إن أمريكا والغرب إذا كانوا فعلاً يريدون حواراً نافعاً بين الشعوب فعلى الأقل عليهم أن يوقفوا دعمهم للسياسة الصهيونية الدموية في فلسطين وهم قادرون على ذلك دون أدنى شك.

حوار الحضارات والجوع في إفريقيا:

لعل ما يلفت انتباهنا اليوم وجود أكثر من اثني عشر مليون إنسان إفريقي معرضين للموت جوعاً، فإذا كان حوار الحضارات الذي يدعو له الغرب يسعى لحل المشكلات الشائكة بين الشعوب فإن من أخطر المشاكل التي تواجه أي حوار وجود الجوع في إفريقيا وهو يهدد الملايين من الأفارقة.

فالأزمات الصعبة وأصعبها الجوع تمر بها بلدان برمتها كأثيوبيا وأريتيريا وجنوب السودان والصومال وحتى أوغندة وكينيا، فإن كانت المجاعة تضرب أطنابها في هذا البلد أو ذلك فإن أزمات قاتلة تعشش في أكثر من بلد كالاقتتال في الكونغو أو سيراليون أو رواندا، إضافة للأعاصير التي تجتاح دولة بأكملها بين الحين والآخر فتترك أهلها بين السماء والطارق بعد أن ضاعت معالم القرى والمدن والبيوت والشوارع.

أزمات لا تنتهي وهي منذ زمن بعيد لم تتوقف.

فالاستعمار التقليدي ظل في أفريقيا عشرات السنين، نهب الثروات والخامات وقيد الأفارقة بمعاهدات اقتصادية وثقافية تصب جميعها في صالحه، وليس في صالح أهل القارة من الفقراء. وكما يقول المثل لقد أكلوا اللحم وتركوا أفريقيا هيكلاً عظمياً مجرداً من كل مقومات الحياة، أفريقيا التي كانت مستودعاً لا ينضب من الثروات الزراعية والخامات المعدنية الثمينة تعجز اليوم عن توفير أقل احتياجات الحياة لعشرات الآلاف بل الملايين من الأفارقة.

الغرب أقام صناعته وغناه وثروته على حساب الأفارقة والأرض الأفريقية، واليوم عندما ينظر المرء إلى هؤلاء الملايين يموتون جوعاً، وينظر إلى الصمت الغربي إزاء ما يحدث للأفارقة، يقع في المحظور من المفارقات الغربية والانهيارات العصبية، من هو السبب في الفقر الأفريقي؟ وما السبب في وجود الأزمات؟

لقد حاولت الولايات المتحدة أن تجعل من أثيوبيا قاعدة متقدمة لمصالحها، وأشعلت حرباً بينها وبين أريتريا راح ضحيتها الآلاف من الطرفين، وعندما تنبهت كل من أثيوبيا وأريتيريا أن الخاسر الوحيد هي الشعوب الأفريقية حاولت إيقاف النزيف الأخوي، لكن أمريكا تلعب لعبتها في العلن والخفاء لتحقق مصالحها وأهدافها الاستراتيجية في القرن الأفريقي وأفريقيا برمتها، وبعد أن وقعت أثيوبيا ووقع القرن الأفريقي في المأساة الأصعب والأعقد - مأساة الجوع - همت أمريكا وبعثت بالفتات الذي لا يكفي القليل من البشر، وليس عن طريقها بل عن طريق منظمات أهلية إنسانية كما أطلقوا عليها، وإذا نظرنا إلى زاوية أخرى من زوايا المأساة والمفارقة وجدنا الألم يكبر وكشفُ النفسية الغربية يتضخم.

في عام (1994) جرت إبادة جماعية في رواندا وأسفرت عن مصرع (800) ألف إنسان من التوتسي والهوتو المعتدلين، وقتها كان العالم الغربي يتفرج ولم يحاول أي بلد غربي أو أمريكي أن يوقف الإبادة الجماعية، بل إن بعض العنصريين من المفكرين الأميركيين رأوا في هذه الإبادة أمراً جيداً لأنها تخفف من عدد سكان أفريقيا الذين هم بنظر هؤلاء العنصريين فائض بشري لا يحتاج إليه الكون أو الكرة الأرضية.

لكن الأدهى من ذلك أن يأتي وقتها رئيس وزراء بلجيكا (غي فيرهوفشتات) ويطلب العفو من رواندا باسم بلاده عن الإبادة الجماعية التي وقعت وراح ضحيتها ذلك العدد الذي ذكرناه وهو (800) ألف إنسان أبيدوا.

جاء إعلانه أمام أعلى السلطات في رواندا حيث قال: علينا قبل كل شيء تحمل مسؤولياتنا والاعتراف بأخطائنا حتى يتسنى لرواندا أن تدير وجهها نحو المستقبل (رواندا كانت مستعمرة بلجيكية) ويخلص إلى القول: إنني أنحني باسم بلادي أمام ضحايا الإبادة، وباسم بلادي وشعبي أطلب منكم العفو.

فلماذا يطلب رئيس وزراء بلجيكا العفو من رواندا عن المجازر التي أبيد فيها الآلاف من الروانديين؟ أهي صحوة ضمير بعد أن زرعت بلجيكا الاستعمارية الفتنة بين التوتسي والهوتو؟

أهو رد اعتبار بعد أن سلب الاستعمار البلجيكي ثروات رواندا وترك الشعب من الهوتو والتوتسي دون موارد فيتقاتلون ويذبح بضعهم بعضاً حتى الإبادة؟

على أي حال إذا كانت بلجيكا حريصة على أن تنظر رواندا إلى المستقبل والمصالحة، فعليها أن تبرهن على ذلك عملياً فتقدم المساعدات المالية الكافية والوافية لتنقذ رواندا من آثار الحرب الأهلية الفتاكة التي أفنت الشعب الرواندي عام (1994) وكان عليها على الأقل أن تعوض رواندا عما سلبته من أرضها وشبابها، ومن آثار استعمارها لها مدة زمنية طويلة، فهل تصدق بلجيكا في مقارنة القول بالفعل، وهل تقرن عفو رئيس وزرائها بتقديم التعويض الكافي والموازن؟.

إذا نظرنا إلى زاوية ثالثة لنرى موقف أمريكا والغرب مما يحدث في افريقيا فإن أمامنا قضية قد يعيرها الكثيرون اهتماماً، وهي قضية تعليق أمريكا مساعداتها لزيمبابوي

وعدم دفع بريطانيا تعويضات لهذا البلد الذي عانى الأمرّين من العنصرية على يد المستعمرين الإنجليز وعملائهم، لماذا علقت واشنطن مساعدتها لزيمبابوي؟ ولماذا لا تدفع بريطانيا التعويضات؟ لنعد إلى القصة من أولها، فالرئيس الزيمبابوي روبرت موغابي حث المحاربين القدامى في حرب الاستقلال على الاستمرار في احتلال المزارع التي يمتلكها البيض بطريقة سلمية، وأعرب المزارعون البيض عن قلقهم الشديد إثر إقرار البرلمان قانوناً يسمح بانتزاع ملكية أراضيهم دون دفع تعويضات لهم.

المدهش في الأمر أن بريطانيا اعتبرت أنه لا يمكن لزيمبابوي أن تلزمها دفع التعويضات في حين علقت واشنطن مساعداتها المخصصة للإصلاح الزراعي احتجاجاً على استمرار ما أسمته احتلال المزارع.

فالمزارع للبيض العنصريين الذين ظلوا أثراً واضحاً لسياسة الاستعمار والتمييز العنصري، ولكن هذه المزارع شكل من أشكال الاستعمار المباشر. الاستعمار الاستيطاني، والسيادةُ الوطنية تستدعي التخلص من كل أشكال الاستعمار، وأرض هذه المزارع التجارية الكبيرة وبما فيها من بيوت سكنية فاخرة تقع على أرض وطنية وليست خارجها، ومن حق المواطنين أن يكونوا أسياداً عليها لأنها تراب وطني.

وبسبب الموقف الوطني تناصر القوى الأمريكية والبريطانية المرشح المنافس لموغابي حتى تضمن بقاء المزارع للبيض وذلك في الانتخابات التي جرت في أوائل شهر آذار عام (2002)،المستوطنون البيض تحايلوا على القانون واعتبروا أنفسهم مواطنين زيمبابويين ليس لهم علاقة بأرض زيمبابوي ولا بشعبها، لا العنصر عنصرهم ولا الأرض أرضهم، وليس لهم سوى الرحيل لبريطانيا لموطنهم الأصلي، ومن حق المواطنين المحرومين أن يكونوا أسياداً لأرضهم يستثمرونها كما يحلو لهم، ويطعمون جياعهم كما يرون.

فبأي حق تعلق واشنطن مساعداتها الزراعية لزيمبابوي، أمن أجل حفنة من المستوطنين المستعمرين؟ أم تريد أمريكا أن يبقى الرجل الأبيض مستعلياً متعالياً سيداً على عبيد فقراء؟ أم تريد دوماً أن تزرع للبيض مواطيء أقدام كي تعيد نفسها بشكل استعماري جديد لأفريقيا؟ لقد عبر موغابي عن البعد الوطني لهذا الاسترجاع المشروع للمزارع، فقال خلال لقاء سياسي انتخابي عقده في بندورا شرق العاصمة

هراري : (ادعو المحاربين القدامى متابعة نشاطهم بصورة سلمية) وأضاف : أراضينا تعود إلينا طبقاً للدستور لم تعد أراضيهم (البيض) إن البرلمان قد أرسى العدل، وندد بشدة بمواقف الحكومة البريطانية منذ وصول توني بلير إلى السلطة، وقال : بريطانيا تتحمل مسؤوليات ومنها دفع تعويضات إلى المزارعين الذين استولوا على أراضيهم خلال المرحلة الاستعمارية، وإذا كان البريطانيون يرغبون في إجلاء (20) ألف مزارع أبيض فالأمر يعود إليهم، وأردف ساخراً: الطرقات والأنهر والمغارات وحتى شلالات فكتوريا كلها مفتوحة أمامهم، أما بريطانيا العنصرية والتي امتصت خيرات زمبابوي طيلة قرون فإنها احتجت على قرار زمبابوي، وقد اعتبرت وزارة الخارجية البريطانية أن زمبابوي بقرارها إلزام بريطانيا التعويض على المزارعين لا يمكنها أن تملي شروطها على دولة أخرى، وأعلن متحدث باسم وزارة الخارجية البريطانية (لا نقبل البند الدستوري الذي يفرض علينا التزاماً ما، ونعترف بحق زمبابوي في سن قوانينها، ونقر أيضاً بوجود حاجة ملحة لإجراء إصلاح زراعي.

والجدير ذكره أن حوالي (4) آلاف من المزارعين البيض أي : أقل من 10٪ من عدد السكان يملكون نسبة 30٪ من أراضي البلاد.

فأي عدالة هذه؟ وأي نوع من الاستعمار والاستعباد؟ وتحتج الولايات المتحدة ويا للعجب من هذا الاحتجاج الذي يأتي من دولة استولت على ملايين المساحات من أراضي الهنود الحمر، وأبادتهم في أسوأ وأشرس حرب إبادة عرفتها البشرية.

هذه هي صورة الغرب تجاه الأزمات في أفريقيا، إنها أبشع الصور الاستعمارية التي سمعنا عنها عبر التاريخ.

ويبدو أن الغرب وأمريكا في الصدارة لا يريدون لأفريقيا الخير ولن يريدوه، فهذه القارة التي رفعت رأسها مجدداً وفتحت عينيها لتستيقظ من آلامها وتقطيع جسدها لا تُرضي أمريكا بل تغضبها، كيف تصحو هذه القارة بينما تخطط أمريكا وبشكل استراتيجي للحلول محل الاستعمار القديم لتستكمل ما تبقى من نهب خيرات القارة الخصبة، فهذه الصحوة الأفريقية يجب أن تحارب حسب المنطق الغربي، ولا يجب أن ترتاح لتدخل عالم حوار الحضارات وهي معافاة من مشاكلها.

الفصل الثالث

الحوار بين الغرب والإسلام

1 ـ شروط الحوار

2 ـ لماذا يكيل الغرب بمكيالين؟

3 ـ الهولوكست ـ اللاسامية المزعومة ابتداع صهيوني لمنع الحوار بين الإسلام والغرب.

4 ـ مؤتمر دولي للإرهاب طريق لحل مشكلة تعوّق الحوار.

5 ـ الهجوم الأمريكي على الإسلام بدل الحوار بين الشعوب.

الغرب والإسلام ..شروط الحوار ومعوقاته:

في سياق ما يسمى بالحوار بين الإسلام والمسيحية تختفي حقائق كثيرة أو تستبعد من الحوار، ويبقى الأمر كأنه بين أصحاب عقيدتين عاشوا قروناً في عداء مستمر حتى جاء الوقت ليفتحوا عقولهم وصدورهم ويتحاوروا.

لقد جرت عبر القرون معارك دامية بين الشرق الإسلامي والغرب، وكان شعار الصليب الذي يعتبره الغربيون رمزاً للمسيحية مرفوعاً في الواجهة على الرغم من ما يختفي وراءه من نوايا وأهداف، أفصحت عنها الوقائع الدامية التي حدثت في الشرق.

صحيح أن صراعاً دامياً استمر بين المسلمين وحملة الصليب الغربيين إبان الحروب الصليبية، وصحيح أيضاً أن الإسبان أقاموا باسم المسيحية محاكم التفتيش وقتلوا خلالها عشرات الآلاف من المسلمين.

صحيح هذا وذاك، ولكن قد لا يكون صحيحاً أن الصراع بين الغربيين والمسلمين هو صراع بين المسيحية والإسلام، وعليه فإن الحوار الذي يطلقون عليه الحوار الإسلامي المسيحي قد لا يكون صحيحاً أيضاً، وحسب المنطق الصوري فإن سبباً غير صحيح لا يؤدي إلى نتيجة صحيحة ومنطقية.

من هنا كان علينا بادئ ذي بدء توضيح بعض الحقائق التي لا بد من إظهارها دون تزييف أو تحوير.

أولاً: هل يعني الحوار بين الإسلام والمسيحية حواراً بين الإسلام والغرب؟

ثانياً: هل يعني الحوار بين المسيحية والإسلام أنهما عقيدتان غير متفاهمتين وبينهما صدام قديم متجدد؟

لقد عقدت مؤتمرات عدت تحت شعار الحوار الإسلامي المسيحي إن كان ذلك في إطار جمعيات رسمية أو كان في إطار بعض الدول.

ولسنا هنا بصدد الحديث المفصل عن هذه اللقاءات، إنما نكتفي بالإشارة لها باعتبارها شواهد على الحوار المسيحي الإسلامي، وهذه المؤتمرات أبرزت إمكانية الحوار بين المسلمين وغيرهم.

ولكننا لو نظرنا ملياً إلى هذه الحوارات واللقاءات والمؤتمرات لوجدنا أن الذي يمثل الطرف المسيحي في الحوار هم المفكرون الغربيون وبعض رجال الكهنوت المسيحي الغربي، وهذا يؤكد أن الحوار هو بين المسلمين ومسيحيي الغرب، ونرى أننا لا نقول: إن مسيحيي الشرق كانوا مغيّبين، إنما الذي نراه أنه ليست هناك مشكلة بين الإسلام وبين نصرانية الشرق، بل نستطيع القول ونحن واثقون من ذلك أنه ليس ثمة صدام أو تصادم بين الإسلام ونصرانية الشرق.

لقد افترض بعض الباحثين أن العداء بين مسيحية الغرب والإسلام لا يقتصر على حقل المعتقدات بل تصل تظاهراته ومظاهره إلى سائر الأنشطة الفكرية والعلمية للمؤمنين بهما، وافترض أيضاً أن المسيحية في نظرة إسلامية رائجة - ديناً غربياً وإيديولوجية استعمارية إمبريالية بررت أشد المظالم وحشية في تاريخ العالم الحديث والمعاصر، فهل حقاً أن العداء بين الإسلام والمسيحية سببه المعتقدات؟ وهل صحيح أن المسيحية دين غربي، وأيديولوجية استعمارية في نظر المسلمين أو بعضهم؟

فالإسلام من حيث النظرية أو من حيث النص الشرعي المستند على القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يوضح الموقف من النصرانية بشكل جلي لا تأويل له سوى ما وضح منه وحُدد،يقول تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾[آل عمران: 199].

وأعتقد أن النص القرآني واضح لا يحتاج إلى تفسير،ويقول تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [المائدة: 82 - 83].

أما في السنة الشريفة فقد جاء في أحاديث رسول الله ـ ﷺ ـ : «من آذى ذمياً فليس منا».

وقوله: «من آذى ذمياً فأنا خصمه يوم القيامة ومن خاصمه خصمته» ويتضح أن مجرد الأذى أياً كان نوعه فإنه أذى لرسول الله ـ ﷺ ـ ولن نعدد مسيرة الوقائع الإسلامية الدالة على نظرة الإسلام للنصارى، ويكفينا أن النصوص الشرعية تبيّن بوضوح أنه ليس بين المسلمين والنصارى أي عداء، وموقف المسلمين في الصراع مع الروم لم يكن صراعاً مع المسيحية، إنما كان صراعاً ضد تواجد استعماري جثم على الأرض العربية أكثر من ستة قرون، فإذا كانت تحكمنا مسلمين ومسيحيين نصوص منزلة من السماء تدعو للإخاء والمحبة والمساواة فأين العداء وأين الصدام؟

هذا على المستوى النظري وأظن أن مسار التعامل الحياتي بين المسلمين والنصارى في الوطن العربي لم يكن في مجمله إلا حياة طبيعية لشعب واحد وأمة واحدة.

فعندما ندعو إلى حوار بين الإسلام والمسيحية فإننا نلغي حقائق قرآنية وإسلامية مصدرها القرآن الكريم والسنة الشريفة، لأننا بدعوتنا لما يسمى حواراً يعني تماماً أن هناك عداء متأصلاً يجب أن ينقلب إلى مصالحة من خلال الحوار.

وأعتقد أن نصرانية الشرق والعروبة ليست بحاجة إلى حوار مع الإسلام لأنه ليس ثمة عداء لاعتبارات الانتماء لعروبة واحدة، وهذه العروبة تتزاوج مع الإسلام فلا عروبة بلا إسلام، ولا إسلام بلا عروبة، وهذه حقيقة يجب التسليم بها، ونوضح هنا أن قولنا: لا إسلام بلا عروبة، فإننا نعني أن أي مسلم في العالم يقرأ القرآن عربياً واضحاً، وهذا يعني أيضاً أن هذا المسلم فيه من العروبة ما فيه. وليس بالضرورة عرقه وجنسه إنما يكفي حبه للعربية وللغة القرآن الكريم.

ولا نكون متعصبين إذا ذكرنا الأمور التالية:

1 ـ العقيدة النصرانية عقيدة عربية شرقية والمسيح ـ عليه السلام ـ نبي شرقي من قلب هذا الوطن العربي من فلسطين / القدس/ بيت لحم/ الناصرة. وعندما دعا الوثنيين إلى ديانة التوحيد فإنه بذلك كان يؤدي رسالته السماوية التي لا تختلف

عن رسالات الأنبياء، بدأ المسيح رسالته في المنطقة بادئة من فلسطين، ومنتشرة في بلاد الشام، ووصلت اليمن، ومنها إلى الحبشة، ويعني ذلك أن العرب في هذه المنطقة هم من حمل رسالة المسيح التوحيدية، وهم الذين تجذروا في المنطقة منذ فجر التاريخ، وهذه الرسالة تدعو إلى التسامح والتساوي والعدل ونبذ الاستكبار والعنصرية بل وتحارب جميع أشكال الفوقية.

2 ـ مضت عشرات السنين إن لم نقل مضى أكثر من قرنين ونصف حتى دخلت العقيدة النصرانية أوروبا، وباختصار تبنّت روما المسيحية أيام قسطنطين ولم يمض وقت طويل حتى تبنى أبناء جنوب أوروبا هذه العقيدة، ومعلوم لدى الغرب المسيحي كيف استُغلت المسيحية أبشع استغلال لا سيما في حرب المذاهب المسيحية ضد بعضها، وتبني سياسة الإبادة الجماعية لبعض الفئات المسيحية المعارضة للمذهب الملكاني.

3 ـ ونستطيع أن نذكر هنا أن المسيحية الغربية نقلت وبأسلوب عجيب مركز التقديس المسيحي والمرجعية المسيحية من القدس إلى روما الفاتيكان ـ ونعتقد أنه من حقنا أن نتساءل: بأي حق ينقل مركز التقديس المسيحي والمرجعية المسيحية من القدس إلى روما؟

وما الغاية من وراء ذلك؟

وإذا كان الغرب يمثل الطرف المسيحي في الحوار فإن ذلك يعني أن مركز الإشعاع المسيحي هو أوروبا وليس فلسطين، وأن المسيح إيطالي وليس فلسطينياً، وعلى أية حال فنحن مقتنعون تماماً بأن العقيدة النصرانية هي عقيدة توحيدية عالمية، وأن الإسلام أيضاً عقيدة إنسانية عالمية، ولكن لإنصاف التاريخ والجغرافيا لا نستطيع أن ننكر كون عيسى ـ عليه السلام ـ من فلسطين، وأن محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مكة، وإذا كان ثمة تصادم بين المسيحية والإسلام على سبيل الافتراض فإن من حق المسيحيين والمسلمين العرب حل إشكالية التصادم من خلال الحوار المفترض.

إذن فالحوار القائم والذي سيتابع ليس بين المسيحية والإسلام! إنما هو بين الإسلام والغرب، بين أصحاب عقيدة وبين أنظمة غربية متنصّرة.

وقع العداء بين الإسلام والمسلمين من جهة والغرب من جهة ثانية منذ أمد بعيد. منذ الحروب الصليبية، وتجذّر العداء وتعمق حتى بلغ أوجه عندما احتل الحلفاء بعد الحرب العالمية الأولى الوطن العربي وفككوا الخلافة الإسلامية، ولم يكن الصراع بين إسلام ومسيحية، إنما كان صراعاً بين إسلام وغرب استعماري، وفي الطرف العربي الإسلامي كان الشعور السائد أن المسيحية استُلبت، وأن هذا الغرب لا يمثل بأي وجه من الوجوه المسيحية بينما كان الشعور السائد لدى الأوربيين هو العداء لأمة الإسلام ليس لأنهم ينتمون إلى العقيدة النصرانية، بل لأنهم غربيون أصيبوا بعقدة التفوق والاستكبار ضد الشرق الذي اعتبروه متخلفاً وضعيفاً.

لقد أفصح قادة الغرب عن عقدهم العدائية تجاه الإسلام في مناسبة وغير مناسبة. ولعلنا نذكر الجنرال غورو الذي احتل دمشق وهو يضع رجله على جدار قبر صلاح الدين ويقول: ها نحن عدنا يا صلاح الدين.

ولعلنا نذكر أيضاً قول الجنرال الإنجليزي اللنبي عندما دخل مدينة القدس: الآن انتهت الحروب الصليبية.

هل هناك إمكانية للحوار بين الإسلام والغرب؟

ليس مستحيلاً أن يجري حوار بين الإسلام والغرب إن كان يؤدي إلى التقدم الإنساني والحضارة الإنسانية المشتركة، ولكننا نعتقد أن لكل حوار مهما كان حجمه مرتكزات ومستلزمات حتى يتحقق.

نحن لا ننكر أن عداءً موجوداً بين الإسلام والغرب، ولا ننكر أن هذا العداء قد يغذى حتى يصبح حرباً مدمرة على المستوى النفسي والمادي، وقد يفتر حتى يتيح المجال للقاء وحوار، فكيف يمكن أن يفتر هذا العداء، وكيف يمكن أن يتضخم حتى يصبح حالة جماهيرية كاسحة.

في ظل الوضع العالمي السائد الآن تعمل أوساط كثيرة على تغذية العداء للإسلام كعدو بديل عن العدو الشيوعي السابق، ويرى المرء أن الأزمات المتفجرة في أنحاء عدة من العالم كالبلقان وأفغانستان والشيشان وفلسطين وغيرها دفعت بالقادة والسياسيين

والمفكرين الغربيين للإفصاح عن آرائهم تجاه الإسلام والمسلمين خاصة بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر، باعتبار أن هذه الأزمات تمس المسلمين بالدرجة الأولى.

وقد افتعلت في بعض الدول الغربية مشاكل اجتماعية تظهر العداء للمسلمين كمشكلة الإرهاب، والحجاب للتلميذات المسلمات في فرنسا، ومشاكل الهجرة والمهاجرين في بلاد أوروبا كلها، وكذلك أمريكا وكندا.

الحملة الفكرية المعادية للإسلام والمسلمين:

نعم لقد افتعلت في الدول الغربية مشاكل تظهر هذا العداء للإسلام والمسلمين، وقد رافق هذا الافتعال حملة فكرية شرسة بدأت تظهر على السطح منذ عام (1979) وامتدت تتسع وتكبر حتى انطلقت شرسة أكثر فأكثر في عام (1991) ثم تُوجت بعد أحداث الحادي عشر من أيلول سبتمبر حينما فجر مبنى التجارة العالمي في نيويورك ووزارة الدفاع الأمريكية في واشنطن.

وكأمثلة على هذه الحملة، فقد رأى جان كلود بارو رئيس مكتب الهجرة الدولية في فرنسا وذلك في مقابلة صحفية مع صحيفة لوكو دو باري في 25/ 9/ 1991: إن الدين الإسلامي هو الأكثر انغلاقاً وتشدداً بين الديانات، وإن استيعاب المهاجرين المسلمين في فرنسا يمر عبر التخلي عن ممارسة الإسلام.

ويقول وليم باكلي الأمريكي البارز والمحافظ في صحيفة نيوريبابلك الأمريكية: (لا يسع المرء أن يفكر أن هناك ثقافة عربية في بروكلين وجيرسي سيتي وديترويت يتغذى منها المجرمون، وينبغي علينا أن نشير بوضوح صارم إلى أن ثقافتنا لا تتوافق مع الأصوليين، ونحتاج إلى تنظيم الهجرة إلى بلادنا بالإشارة إلى هذه القضية.

ويقول النائب الفرنسي جورج فريش في مقابلة معه أجرتها صحيفة لو موند في 11/ 10/ 91: (إن على المسلمين الراغبين بالاندماج القبول بمبدأ العلمانية في فرنسا).

وكذلك صرح وزير الدولة الفرنسي كوفي يمنان: (أن على المسلمين التخلي عن تعدد الزوجات، ووضع منديل الرأس في المدارس).

ويقول فريش أيضاً: (إن هناك مشكلة مع الإسلام الذي لا يفرق بين الأمور الروحية، والأمور الزمنية).

فهذه أمثلة على الحالة الفكرية العدائية التي سادت فيما بعد التسعين في العالم الغربي، وهناك عشرات الأمثلة المشابهة حيث صدرت عشرات الأحاديث عن مسؤولين غربيين وخاصة في أمريكا إبان أحداث أيلول، وسنوردها عندما نتحدث عن تداعيات الحادي عشر من أيلول وما رافقها من حملات فكرية عدائية للإسلام.

والواقع أن هذه التنظيرات إحدى أهم هذه العوائق في وجه الحوار الإسلامي الأوربي.

أما على المستوى الواقعي الملموس فإننا نرى الموقف الغربي واضحاً في عدائه للمسلمين، خصوصاً في أزمات البوسنة والبلقان والعراق وأفغانستان وفلسطين.

ولسنا هنا بصدد تعداد المواقف الرسمية والعملية تجاه أزمات المسلمين في العالم ويكفي أن تكون هذه المواقف من أهم العقبات في طريق الحوار الإسلامي الأوربي، وإزالة هذه العقبات - حتى يتم الحوار - يحتم تغييراً جذرياً في المواقف، وهيهات أن يتم ذلك، كيف يتم الحوار ونسمع بين الحين والآخر تصريحاً هنا وبياناً هناك يدعو إلى تنظيف أوروبا من المسلمين أو يقول: إن الحرب التي شنها الأمريكان على أفغانستان هي حرب صليبية، أو أن أمريكا ستضع منهاجاً تربوياً يعلم المسلمين دينهم . . . . . .

الإسلام والأصولية

المفاهيم الخاطئة والمصطلحات المصدرة

إلى وقت ليس بالبعيد كان المسلمون المثقفون منهم والعاديون يفهمون الأصولية على أنها العودة إلى الأصول في العقيدة الإسلامية، حتى أن كثيراً منهم فهم الأصولية والسلفية على أنهما مفهوم واحد، على أن الغرب ركز هذا المصطلح تسمية لبعض الحركات الإسلامية المتصادمة مع بعض أنظمة الحكم، ولبعض الحركات الإسلامية في فلسطين ولبنان باعتبارها تقاتل الكيان الصهيوني الغاصب، وترفض الهيمنة الأمريكية لفرض الأستسلام على المنطقة، وقد راح الغرب يكيل لهذه الحركات الهجوم تلو الهجوم حتى أصبح مفهوم الأصولية من أخطر المفاهيم، وأصحابها من أخطر الناس على الديموقراطية الغربية والحرية والسلام، ولكي نكون

موضوعيين لا بد لنا من الإشارة إلى أن مفهوم الأصولية الحديث ليس مفهوماً عربياً أو إسلامياً. وليس هو بالمفهوم الجديد في الثقافة الغربية ولغاتها.

صحيح أن بعضنا فهم الأصولية كما أشرنا فهماً خاصاً، وقد يكون استخدامنا لهذا المصطلح نتيجة تصدير سابق للمفاهيم الغربية لثقافتنا العربية الإسلامية، ولكننا ولكي نكون على بينة من الأمر نعيد إلى الأذهان أن مصطلح الأصولية رافق الحملة البروتستانتية في بدء نشأتها في أوروبا ثم أمريكا، وقد أطلق المفهوم نفسه على أصحاب هذا المذهب لأنهم دعوا للعودة إلى العهد القديم (التوراة) والأخذ بحرفيته النصية باعتباره الأساس الذي يقوم عليه العهد الجديد (الإنجيل) والمسيحية البروتستانتية، كما أُطلق على بعض الفئات اليهودية المتعصبة للتوراة منذ أكثر من قرنين من الزمان.

ونرى أن الغرب أراد من وراء إطلاقه هذا المفهوم على بعض الحركات الإسلامية أن يوهم المجتمعات الغربية بأن الأصولية هي ذلك الإسلام الداعي إلى العنف والإرهاب، وأنه لا يمكن التفاهم مع الإسلام والمسلمين حتى يتخلوا عن الأصولية ويركنوا للمفاهيم الغربية كالديمقراطية والحرية وما شابهها.

وإذا كانت بعض الحركات الإسلامية تتصادم مع بعض الأنظمة العربية أو الإسلامية فهذا لا يعني أن الحوار الإسلامي الغربي مستحيل، تلك الحركات التي يصفها الغرب جزافاً في تيار واحد يسمونه الأصولية تتباين أفكارها وأهدافها وظروفها وأسباب بروزها، فكثير من هذه الحركات لا سيما في لبنان وفلسطين تفتح أبواباً للحوار والديمقراطية ولا تقول: إن أتباعها هم وحدهم المسلمون وغيرهم الكافرون، على سبيل المثال الحركة الإسلامية المقاومة في فلسطين، والغرب يعرف قبل غيره أن هذه الحركات تقاوم الاحتلال وتتوجه لتحرير بلادها من الصهاينة المحتلين. ولا تثير أية نزاعات مع المسلمين الآخرين أو المسيحيين المواطنين مهما كانت أفكارهم وأهدافهم المشروعة.

على أي حال إذا كان الغرب يرى أن المعوقات أمام الحوار مع الإسلام هي تلك التيارات الإسلامية الراديكالية فإن معوقات غربية وصهيونية نستطيع أن نطلق عليها أصولية فعلاً تقف حائلاً دون إقامة الحوار الحقيقي بين الإسلام والغرب.

بماذا تتمثل الأصولية التي ينعتونها في الجانب الإسلامي بالإرهاب والعنف؟ فأي صنف من الإرهاب الذي يمارس من قبل الصهاينة ضد مسلمي ومسيحيي فلسطين، أليس هو تشنج أصولي يستند إلى أصولية التوجه التوراتي المعادي للأغيار؟

وفي أي صنف يضع الغرب ممارسات الصرب أو الروس أو الأمريكان بعد 11 أيلول ضد المسلمين، أليست تلك الأصولية الأرثوذكسية الغربية والبروتستانتية التوراتية الأمريكية؟ المستندة إلى التعصب العرقي والديني؟

ومهما كانت العقبات كثيرة وكبيرة والعثرات متكررة فثمة طريق واحد للحوار بين الغرب والإسلام، وهذا الطريق يتمثل بإزالة عقدة الاستعلاء والاستكبار من العقلية الغربية تجاه الإسلام والمسلمين، فالإسلام كما أوضحنا ليس عقيدة إرهابية وهذا ما أوضحه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، والمسلمون ليسوا إرهابيين كما يصورهم بعض الغربيين.

وأعتقد أن عداء الغرب للإسلام والمسلمين هو عداء للحرية الجوهرية للإنسان، وهو عداء للمساواة وعدم الاستكبار، فهل يقبل الغرب التخلي عن مصالحه الاستراتيجية في بترول الأرض العربية وثرواتها وموقعها الاستراتيجي، هل يستطيع الغرب أن يمنح التكنولوجيا المتطورة حتى يمنحه المسلمون جوهر الحضارة وروحها وفتح الحوار؟

إن الإسلام ليس خطراً قادماً زاحفاً نحو الغرب، والحقيقة المرة تقول: إن زحفاً غربياً عنصرياً راح ينمو وينمو في كل أرجاء أوروبا، وهدفه الأساسي العداء للإسلام والمسلمين، ولسنا بصدد حصر الشواهد المعاصرة وهي كثيرة جداً فالغربيون يعرفونها قبل المسلمين، فإذا كان الغرب يحمّل من يسميهم بالأصوليين المسلمين وزر القطيعة الإسلامية الأوربية والعداء، فإننا من حقنا أن نسأل الغربيين أنفسهم لماذا تتناسون الأصولية اليهودية الصهيونية وغيرها من الحركات الأصولية البروتستانتية في أمريكا

أو بريطانيا أو فرنسا أليست تتحمل وزر الأزمات الدولية الحالية والقطيعة بين المسلمين وغيرهم من الشعوب والأمم؟

بدعة اللاسامية في وجه الحوار بين الشعوب

كيف ظهر مفهوم اللاسامية؟ كيف استطاع يهود أوروبا أن يروجوه بين شعوب أوروبا، ثم كيف انطوت الخدعة على عقول الأوربيين؟

بعد أن تحالفت الحركة الصهيونية مع النازية الألمانية روجت الحركة عدة مفاهيم وعدة قضايا لم ينشغل العالم الغربي بمثلها: اللاسامية، المحرقة، أرض الميعاد، وكان يقصد باللاسامية التعصب الآري الألماني ضد الشعوب الأخرى والأعراق الأخرى، وحتى يظهر اليهود أنهم مظلومون، وأن على العالم الغربي أن يجد لهم مكاناً يقيمون عليه كياناً راحوا يروّجون لما يسمى باللاسامية، وكذلك المحرقة في أوساط العالم الغربي، ولما كان الغربيون قد اكتووا بنار الحرب العالمية الثانية فقد تقبلوا أفكار اليهود، وأصبح شعار اللاسامية يطلق هنا وهناك كلما تحدث أحد عن اليهود وكشف خداعهم وأضاليلهم.

وكم من مفكر عالمي أطلق عليه اللاسامي لأنه رفض خرافة المحرقة اليهودية وأساطير التوراة والتلمود، وعنصرية اليهود، وليس غارودي بعيداً عن أذهاننا وما فعله اليهود والأوساط الفرنسية من تضييق عليه، ومحاكمته ودفعه غرامة مالية عالية لمجرد أنه كشف حقيقة الكذبة الصهيونية المتعلقة بشأن المحرقة اليهودية التي اخترعوها ليبتزوا العالم، وخاصة ألمانيا، بل ليسخّروا الإعلام الغربي برمته في خدمة الخرافة اليهودية المضحكة.

أما مصطلح اللاسامية فإنه روّج استجابة للمد اليهودي الصهيوني في أوروبا، بل استجابة للتحالف اليهودي الصهيوني مع الصهيونية غير اليهودية التي تحكمت في بريطانيا وفرنسا وبقية العالم الغربي وأمريكا.

وكان من نتائج هذا الترويج الواسع اغتيال عدد من الباحثين السوفيات الذين تخصصوا لدراسة الظاهرة اليهودية الصهيونية، وفضحها مع ملحقاتها من ماسونية وروتارية وليونز وبوند، وإلى آخر ما هنالك من بدعٍ يهودية مشبوهة، وفي كل حادثة

اغتيال كان يرافقها حملة إعلامية واسعة في أوروبا تشير إلى أن المعروف عن الذي اغتيل أنه من دعاة اللاسامية، وأنه يكره اليهود.

ولعل الكثيرين من أبناء أوروبا وحتى من أبناء عالمنا العربي لا يفهمون معنى آخر للاسامية سوى ما يقوله الصهاينة بأنه يعني معاداة اليهود وكرههم.

وحتى يكون مفهوم اللاسامية واضحاً جلياً لا بد أن نورد النقاط التالية:

1 - عندما روّج اليهود مفهوم اللاسامية بين أبناء الغرب كانوا يدركون أن هؤلاء الغربيين لا يعرفون سوى الساميين اليهود، وذلك استناداً على تفسيرات التوراة التي أوردت في سفر التكوين قصة نوح وأبنائه سام وحام ويافث، وقد استطاع الخداع الصهيوني أن يحصر الساميين باليهود فحسب، وأخرجوا من السامية كل ما عداهم، وقد وصلت حدود السذاجة أو قل التغابي الغربي حداً جعلهم يتهمون العرب باللاسامية، فكل ما يفضح اليهود يعتبر دعوة لا سامية، وكل من يفضح خداعهم وجرائمهم عبر التاريخ يعتبر لا سامياً حتى لو كان سام بن نوح نفسه.

2 - إننا إذا سلمنا أن الشعب العربي ينتمي إلى سام بن نوح فإن لنا حجتنا وتاريخنا وآثارنا التي تدل علينا وعلى جذورنا، ولكن اليهود الذين ينتشرون الآن في العالم وينتمون إلى ستة وثمانين عرقاً لا ينتمون حتماً إلى سام، ولا إلى أحفاده، بل إنهم لا يمتون بصلة له.

وكل الوثائق والدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية تشير إلى أن يهود أوروبا برمتهم ينتمون إلى الخزر الآريين، وليس إلى العرق السامي، وكذلك فإن اليهود الفلاشا ينتمون إلى العرق الزنجي المطعم، وقس على ذلك يهود الأمريكان أو الفرنسيين أو البريطانيين أو الأوربيين الغربيين، وإذا درسنا من خلال علم الأجناس الشخصية اليهودية الغربية نراها تتميز بسحنة غربية مائة بالمائة ولا تمت بصلة إلى الشرق السامي العربي، وكذلك فإن هذا المقياس ينطبق على بقية أعراق اليهود فكل عرق له سحنته، وله عقليته وسماته الجسدية وحتى النفسية، ونعتقد أن الغربيين وخاصة الباحثين منهم يدركون هذا إدراكاً كلياً، فهم الذين خرج من بينهم العالم دور كسهايم، والاجتماعيون والأنثروبولوجيون الآخرون أمثال فريزر ويوليوس ليبس.

3 ـ إن الاضطهاد العنصري الذي يمارسه الصهاينة بحق العرب وخاصة أبناء الشعب الفلسطيني يعتبر من أبشع أنواع اللاسامية التي أشاعها اليهود أنفسهم، فكيف يسكت العالم الغربي عن عنصرية الصهاينة ضد الساميين العرب الأصليين بينما يدافعون عن اليهود لمجرد سماع تصريح يفضح زيفهم وتزييفهم؟

وعلى ضوء ذلك كله فشعار اللاسامية خدعة أو لنقل بدعة انتحلها الصهاينة وصدقها الغرب أو حاول أن يقنع نفسه بأنها حقيقة وليست بدعة.

إن الفضيحة تكبر كما كبرت فضيحة أسطورة المحرقة اليهودية، ولكن يبدو أن الغرب لا يفهم معنى الفضيحة، حتى لو رآها عياناً ولمسها عن كثب، المهم أن على العالم أن يفهم وأن يعي أن التحالف اليهودي الصهيوني ـ والصهيوني غير اليهودي ـ هو تحالفُ نسيجٍ واحد في التوجه والأهداف والغايات، وما مفهوم اللاسامية سوى ذريعة صلحت إبان الحرب العالمية الثانية للجماهير الغربية، لم تعد تصلح بعدها لأن الانتباه لأساليب الصهاينة الإعلامية وغسل العقول يدفع باتجاه التحليل المنطقي وعدم القبول بالأمور قبولاً تسليمياً غبياً.

ولعلنا في هذا السياق نذكر أن مناحيم بيغن رئيس وزراء الكيان الصهيوني الأسبق عندما وقعت بين يديه نسخة من كتاب آرثر كوستلر (يهود الخزر) قال: فليقولوا إننا خزر أو أي شيء، نحن هنا موجودون بقوتنا.

وهذا يعني أن الصهاينة موجودون على أرض فلسطين بالقوة فقط، وليس لصلة ما نسجوا خرافتها وقالوا: إن لهم صلة بها من خلال التاريخ القديم الذي يصل أيام نوح وسام بن نوح.

إنهم يدركون تماماً عدم صلة بينهم وبين سام، أو بينهم وبين المنطقة العربية فهم ينبشون في العروق والأجناس وينبشون في الأرض والتوراة ليقولوا للعالم الغربي: إن لهم صلة بهذه الأرض بينما واقعهم يقول، وكذلك مؤرخوهم وآثاريوهم يقولون: إن خدعة انتسابنا لسام ولهذه الأرض سوف تنكشف إن عاجلاً أو آجلاً مهما حاولنا إثارة عواطف الغرب، ومهما حرّضنا الغربيين المخدوعين على

كل من يقف في وجه مشروعنا، وعلى كل من يحرض على اليهود؟ وعلى كل من يحاول أن يكشف حقيقة العنصرية اليهودية وجرائمها؟.

وتبقى أمامنا عشرات الأسئلة المواجهة للغرب المخدوع بهذه البدعة، فلا يكفي أن نوضح الحقائق ونضع الأمور في مسارها الصحيح، فلعل طرح الأسئلة على العقل الغربي يضعه في الزاوية ويعترف بالخطأ الفادح الذي ارتكبه وهو يمارس لعبة الخداع والتمويه والتنكر.

1 - فإذا كان مصطلح اللاسامية قد اتسع انتشاره في أوروبا بعد الحرب العالمية الأولى وبعد أن لفق اليهود قصة القتل الجماعي لليهود على أيدي هتلر والحكم النازي، فما الذي يقوله الغرب عن الممارسات الصهيونية في فلسطين؟ عن قتل الأطفال الرضع وإبادة البيوت والأشجار وحصار التجويع؟ أليس ما يفعله الصهاينة يفوق ما فعله النازيون في أوربا؟ فلماذا لا يقوم الغرب محتجاً على العنصرية الدموية الصهيونية؟ ولماذا لا يخترعون مصطلحاً يشابه اللاسامية على الأقل.

2 - إذا كان أي تصريح يكشف حقيقة العنصرية الصهيونية قد أقام الدنيا ولم يقعدها في فرنسا أو أمريكا، فما قول الأوربيين بما صرح به الحاخام الأكبر عوبيديا يوسف بين الحين والآخر؟ ألم يسمع الأوروبيون دعوة هذا الحاخام إلى قتل العرب جميعاً؟ ألم يسمعوا وصفه للعرب بأنهم أفاعٍ يجب إبادتهم؟ ألم يسمعوا قوله: بأن الله ندم على خلق العرب؟ ماذا يسمون هذه التصريحات من رجل يحكم الشارع اليهودي أكثر مما يحكمه شارون وجنرالات الحرب في الكيان الصهيوني؟

3 - ألا يقارن الغربيون صياحهم واحتجاجهم على اللاسامية بسكوتهم ورضاهم عما يحدث من تطبيق لأبشع أنواع العنصرية الصهيونية في فلسطين والأراضي المحتلة؟ إن ذلك ينم عن تخلف حضاري كبير، بل إنه ينم عن عنصرية خفيّة يعيشها هذا الغرب، لا يريد أن يعلن عنها صراحة، لكنه بسلوكه هذا يفصح عنها دون أن يريد أو يشعر.

4 - إذا كانت الأنظمة الغربية تخاف الصهيونية وترتعب منها فعليها أن تحتفظ بخوفها في نفسها ولا تفصح عنه من خلال هجوم نفسي فكري سياسي على الآخرين

الذين يعادون الصهيونية ولا يخافونها أو يرتعبون منها، ولعل العجب العجاب أن ينسى الفرنسيون الذين احتجوا على ما فعله الصهاينة برئيس جمهورية فرنسا جاك شيراك عندما زار القدس قبل سنوات، فلو جرى ما جرى له مع أي رئيس يحس بكرامته لقامت حرب لا يدري مصيرها إلا الله، ولا يغيب عن ذاكرتنا أن السبب المباشر الذي تذرعت به فرنسا لاحتلال الجزائر عام 1830 هو إهانة القنصل الفرنسي من قبل (الداي) أي: سلطان الجزائر آنذاك، ولعلنا تعلمنا من كتب التاريخ أن سلطان الجزائر لم يفعل شيئاً سوى أنه طالب بالأموال المستحقة على فرنسا فأشاح بمذبته على وجه القنصل واعتبرتها فرنسا جريمة تستحق الجزائر عليها عقوبة احتلال دام مئة وثلاثين عاماً، فماذا تقول فرنسا المحتجة على اللاسامية عندما أهين رئيسها شيراك حين زار القدس قبل سنوات؟

أما أمريكا التي تعتبر نفسها والكيان الصهيوني نسيجاً واحداً فإن احتجاجها على ما يُسمّى اللاسامية يصبح مهزلة فاقعة لأن هذه الولايات المتحدة الأمريكية تمارس أبشع أنواع العنصرية مع فقراء الزنوج خاصة هؤلاء الذين رأوا في الإسلام ملاذاً روحياً وسلوكياً لهم، فهي التي اغتالت مالكوم إكس، وهي التي تضيق الخناق على لويس فرقان ولم يسلم من عنصريتها الراعية لحقوق الإنسان مارتن لوثر كينغ وكذلك غيرهم كثيرون.

وعلى الوجه الآخر للصورة تلك التصريحات العنصرية ضد أطفال انتفاضة الأقصى وأطفال العراق وغيرهم وغيرهم.

اللاسامية مفهوم خادع، بدعة اخترعها اليهود الصهاينة، وما أكثر البدع التي يخترعها قتلة الأنبياء، وما أكثر الشواهد التاريخية على عنصريتهم ودمويتهم.

يقول تعالى: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: 88].

ويقول المسيح ـ عليه السلام ـ: (الويل لكم أيها الكتبة الفريسيون المراؤون فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون ضرائح الصديقين، وتقولون لو عشنا في أيام آبائنا

لما شاركناهم في دم الأنبياء، فأنتم تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قتلة الأنبياء فاملؤوا أنتم مكيال آبائكم) إنجيل متى.

هل التصريحات الجديدة بالحرب الصليبية تسمح بالحوار بين الشعوب؟

في أوج الرد الإعلامي والنفسي للإدارة الأمريكية على ما حدث في نيويورك وواشنطن، خرج الرئيس بوش بقوله: إن هذه الحرب ستكون مختلفة عن كل حرب، إنها حرب صليبية على الإرهاب.

وحتى لا يتفاقم الرد الإسلامي العالمي، وتزداد وتيرة العداء للولايات المتحدة قال وزير خارجية أمريكا رداً على سؤال حول ما صرح به بوش: إن ما قاله الرئيس بوش ليس سوى زلة لسان.

واستكمالاً لامتصاص رد الفعل قام بوش بزيارة مسجد تعرض لهجوم إرهابي أمريكي في واشنطن، وبدأ يخرج كل يوم بتصريحات يمجد فيها الدين الإسلامي، حتى بدا وكأنه من دعاة الإسلام الذين يريدون إفهام الناس ما هو تسامح الإسلام وإنسانيته.

لقد زل لسان بوش وسُجل ما نطق به، ولم يعد هناك ما يمحو ما قاله وسُجل عليه، إنها حرب صليبية على الإرهاب.

إن مصطلح حرب صليبية يعني تحديداً حملةً يشترك فيها كافة أبناء المسيحية الغربية ضد الإرهاب، فإذا كان الطرف المسيحي الغربي برمته هو الذي يشن هذه الحرب الصليبية فإن ذلك يعني أن هذه الحرب هي حرب دينية، وبما أن الطرف المتهم بالإرهاب هو طرف إسلامي فإن ذلك يعني أن هذه الحرب الصليبية هي ضد المسلمين باعتبارهم الطرف المقابل.

ما دواعي الحرب الصليبية الجديدة وأسبابها؟

هل هي ترجمة عملية لما روّج بعد انهيار الشيوعية من أن الإسلام هو العدو القادم للغرب؟ أم أنها استمرار لإرث غربي قديم يتجدد كلما أفلست السياسات الغربية في كبت المسلمين وقهرهم، أو تدجينهم وغسل أدمغتهم ونفوسهم؟ أم هي حتمية الصراع بين الحضارات؟

إن الحروب الصليبية التي شهدتها المنطقة العربية الإسلامية وحتى الحرب الصليبية التي شنها الغرب بعد الحرب العالمية الأولى وقسّم فيها الأرض العربية، واستحوذ على خيراتها، وزرع في أرضها الكيان الصهيوني البغيض، كانت حروباً استعمارية من أهم أهدافها استغلال ثروات المنطقة أولاً، وإضعاف القوة العربية الإسلامية وتفتيتها، وزرع الإقليمية في العقل العربي حتى تبقى هذه المنطقة منطقة استغلال لا أكثر ولا أقل.

ولكننا حين ننظر إلى واقع الأرض العربية نرى أن ثرواتها ولا سيما البترول هي بيد الغربيين بدءاً من الاستخراج وحتى التصنيع، ومن المعروف أن كافة أنواع التطور التقني والصناعي الغربي تقوم أساساً على ما تمتصه من ثروات الأرض العربية.

أما القوة العربية فهي شبه ميتة إن لم نقل ميتة فعلاً، فالإقليمية أصبحت شعاراً وواقعاً، ومجرد التفكير في إحياء القوة العربية الموحدة أصبح سخرية أو مزحة يمزحها بعض السذج من أبناء هذا الوطن.

والاستعمار الغربي ثبت أقدامه في كثير من مناطق هذه الأرض من خلال قواعد عسكرية ومستودعات سلاح وذخيرة، أو من خلال ربط النظام العربي السياسي بتوجهات الغرب الفكرية والسياسية.

إذن ما هي الدواعي للحرب الصليبية الجديدة التي أعلن عنها الرئيس الأمريكي بوش؟

طالما أن ثروات المنطقة بيد أمريكا والغرب، وطالما أن الإقليمية كُرست وأبعدت الوحدة الحقيقية، وطالما أن الأمريكان يربطون معظم الأنظمة العربية بالغرب ربطاً وثيقاً.

على من تشن الحرب الصليبية الجديدة؟ وما هو المستهدف منها؟ هل أفغانستان هي المستهدفة؟ أم أن المستهدف أسامة بن لادن والحركات الأصولية الإسلامية؟ أم أن المستهدف هو تنامي الصحوة الإسلامية والفكر الإسلامي الداعي إلى محاربة الهيمنة والعولمة والتسيّب الأخلاقي العالمي؟

فإذا نظرنا إلى الواقع العالمي بعد انهيار الشيوعية تبرز لنا حركة أمريكية غربية شمولية لتغيير العالم الإنساني من حيث اقتصاده وفكره وعلاقاته الاجتماعية، وبهذا التوجه خرجت في الغرب مقولات ومصطلحات كالعولمة والثقافة العالمية المشتركة، ولا مكان للضعيف في هذا الكون... وما إلى ذلك من شعارات كبرى، وراح الغرب يطبق هذه المقولات، ولا شك أن الطبيعي في مسار البشرية أن تتناقض الفلسفات والأفكار والمجتمعات وتتصادم، فالعولمة تعني لدى الكثيرين سحق طرف إنساني كبير، وسحق ثقافات برمتها، بل سحق عقائد وأديان ومعتقدات.

ولا يمكن للغرب أن يحرر أفكاره العولمية دون أن يواجه من يرفضها.

ولا ريب أن الإسلام وبما فيه من دعوة إلى هَوِيةٍ إسلامية مستقلة لها سماتها وخصائصها يعني للغرب أن طريق العولمة في الجانب الفكري والعقيدي هو طريق مسدود، وهذا يجره إلى الاصطدام معه، وقد يتراوح بين فرض الأفكار أو فرض السيطرة بالقوة.

وفي هذا السياق يرى الغرب أن الذين يتصدون لمشروعه العولمي ليسوا سوى أصوليين إرهابيين. والواقع أن الغرب نفسه يدرك أن الواقع الإسلامي على ما فيه من سلبيات يفرز جهتين متناقضتين، جهة الإسلام الرسمي الذي يريد الإسلام شكليات ليس من ورائها حفاظ على هوية، وجهة الإسلام الشعبي الذي يرى الإسلام الملاذ الأول والأخير للحفاظ على الهوية في مواجهة العولمة والتغريب، ومع تنامي الطرف الثاني أصبح الغرب يرى نفسه وقد فُضحت أهداف عولمته، وغايات سيطرته، فهو لا يريد البترول لأن البترول العربي في يده، ولا يريد تفتيت الأمة لأنها مفتتة ممزقة، إنما الذي يريده هو القضاء على الصوت الإسلامي الذي يرفض التدجين، ويرفض الشخصية التابعة الذائبة في دائرة التوجه الغربي فكراً واجتماعاً واقتصاداً.

إذن فالحرب الصليبية الجديدة هي حرب على الصحوة الإسلامية، حرب على هذه الدفقة القوية من الدعوة إلى إحياء الشخصية بعد أن كادوا يميتونها أو يضعفونها، أو يشلون قدرتها على التحرك.

وحينما تحشد الولايات المتحدة كل وسائل إعلامها من جهة، وكل إمكاناتها العسكرية من جهة أخرى، فإنها بذلك تقول: على العالم أن يقبل بسيادة الفكر الأنجلو ساكسوني وما يطرحه، وعلى العالم أن ينساق تحت مظلة الفكر الذي تنتجه القوة الأمريكية الغربية.

وإذا قارنا بين هذه الإمكانات الأمريكية التي تحشد، وبين الهدف المعلن، نجد التناقض صارخاً مضحكاً، فأفغانستان من أضعف دول العالم اقتصاداً وإمكانات، وشعبها يعيش تحت خط الفقر منذ زمن بعيد، وليس لديها أية بنية تحتية تحسد عليها، فهل حقاً يحتاج الأمريكان لكل هذه الأساطيل ولكل هذه الوسائل الضخمة من الإعلام والحشد والاجتماعات واللقاءات مع زعماء العالم حتى يقضوا على كبش المحرقة أسامة بن لادن ودولة أفغانستان الضعيفة؟

الواقع أن ردة الفعل الأمريكية على ما حدث في نيويورك وواشنطن ليس مجرد رد اعتبار، أو مجرد انتقام، إنما هي نتيجة مخزون نفسي وفكري بدأ منذ أكثر من عقدين من الزمن، وجاء ما حدث في أمريكا ليرفع الستار بشكل كامل عن المخططات الأمريكية الداعية للحرب على الإسلام باعتباره المعوق العقيدي والفكري الأول لسبيل العولمة، وأمركة العالم.

لماذا انسحبت أمريكا من مؤتمر دوربان؟ لماذا ضربت عرض الحائط معاهدة ستارت مع الروس، وأصرت على مشروعها المسمى الدرع الصاروخي؟ لماذا رفضت الانصياع لمؤتمر البيئة الذي حملها مسؤولية التلوث البيئي للكرة الأرضية؟ لماذا تصر على حرب المعلومات مع الاتحاد الأوروبي والصين واليابان وروسيا؟

إن الفلسفة الأمريكية تقوم اليوم على عقدة العظمة والأنا الأوحد في العالم، وهذه الفلسفة لا تخلو من استناد عنصري تراكم على مدى خمسة قرون منذ أن رأى الرجل الأبيض نفسه أرقى من بقية البشر، فأباد الهنود الحمر، واستعبد الملايين من الأفارقة، وأذل كل الشعوب التي رفضت الهيمنة، وحاربت من أجل الهوية والاستقلال ورفض التبعية.

وإذا كان منطق الفلسفة الأمريكية في الإطار العالمي يقوم على فكرة التسيّد، فكيف يمكن أن يكون في إطار المواجهة مع الإسلام؟ إن الولايات المتحدة تريد أن يكون الإسلام في دائرة التعايش المجتمعي في ظل منظومة الفلسفة الأمريكية، أو منظومة العظمة الأمريكية المتسيّدة، ولا تريد هذه الفلسفة إسلاماً يرفض التبعية، ويحقق الشخصية حضوراً يماثل الحضور الأمريكي نفسه أو أكثر. والذي ترفضه أمريكا هو أن يكون هذا الإسلام نموذجاً إسلامياً يُحتذى في كافة شعوب العالم، لأنه بذلك يعرض الفلسفة الأمريكية للاهتزاز أو للتداعي، ومن هنا فإن ما طرحه بوش من أن هذه الحرب هي حرب صليبية ليس إلا تجسيداً لهذه الفلسفة الأمريكية التي تأبى أن ترى عقيدة سامية تفرض نفسها في الفكر العالمي، ووجدانه وعلاقاته الإنسانية.

وقد يرى بعضنا أن أمريكا ليست معنية بمحاربة الإسلام. وليس الرئيس بوش أو غيره من زعماء العالم الغربي معنياً بمحاربة الإسلام، وما صرح به أو قام به من تحركات في أمريكا يدلّل على ذلك، فهو لا يتوانى في كل يوم عن التمجيد بالإسلام، وموقف المسلمين الموجودين في الولايات المتحدة، ويحرص على عدم الخلط بين الإسلام والإرهاب إلخ....

فإذا كانت الولايات المتحدة ليست معنية بمحاربة الإسلام، فهل تقتنع بأن القدس مدينة إسلامية؟ وأن المسجد الأقصى يخص المسلمين أكثر من أي طرف آخر؟ هل تقتنع بحق المشردين الفلسطينيين بالعودة إلى بلادهم التي شردوا منها؟ هل توافق أمريكا أن تقوم دولة عربية إسلامية واحدة تضم هذه الأقطار والدويلات التي صنعها الحلفاء بعد الحرب الكونية الأولى؟ هل تسكت أمريكا لو قامت الدول العربية المنتجة للبترول بسحب أموالها من البنوك الأمريكية والغربية عموماً؟ ما موقف أمريكا من المسلمين لو امتلكوا أسلحة دمار شامل، أو امتلكوا تقنيات فنية عالية في مجال التصنيع والاكتفاء الذاتي اقتصادياً وتجارياً؟ هل ترى أمريكا للعرب والمسلمين ما تراه للكيان الصهيوني؟

إن الفلسفة الأمريكية جسدت نفسها على أرض الواقع في العديد من مناطق العالم. فكان موقفها المعروف في البوسنة والهرسك، وموقفها المعروف من قضية فلسطين. وكذلك مواقفها في المحافل الدولية التي تمس الإسلام والمسلمين.

فإعلان بوش عن حربه الصليبية يعني أن الإسلام راح يشكل تهديداً للفلسفة الأنجلو ساكسونية القائمة أساساً على فكرة التسيّد والقوة المطلقة دون اعتراض.

وليس الهدف المعلن عنه من قبل أمريكا سوى غطاء لحملة صليبية على الإسلام، وهذا الغطاء ليس سميكاً حتى تخفى الأهداف والغايات الأمريكية وراءه.

عندما وصل الجنرال غورو إلى قبر صلاح الدين أيام الاحتلال الفرنسي لسوريا قال قولته المشهورة: ها نحن عدنا يا صلاح الدين، والآن انتهت الحروب الصليبية.

والواقع أن بوش بقوله: إن حرب أمريكا حرب صليبية، يعيد للذاكره ما قاله غورو، وكذلك الجنرال اللبني، ولكن بوش لن يقول: ها نحن عدنا يا صلاح الدين، ولكنه سيحاول هذه المرة أن ينسف كل أثر للرموز الإسلامية التي أحيت الأمة، أو خلصتها من براثن الصليبيين القدامى، وجاهدت بكل ما تملك حتى يبقى الإسلام، وتبقى ديار الإسلام طاهرة مطهرة من رجس الغزاة، وسيحاول أن يقول للمسلمين: احذفوا كل آيات القرآن التي تحث على الجهاد، أو تلك التي تتحدث عن بني إسرائيل واليهود بسوء.

ذلك هو منطق الفلسفة الأمريكية، وذلك هو الكامن وراء كلمة بوش إنها حرب صليبية، ولا ندري إلى أي مدى تنطلي الخدعة الأمريكية على عقول بعض العرب والمسلمين.

كيف نحدد مفهوم الإرهاب حتى نفتح آفاق الحوار بين الشعوب

أصبح مصطلح الإرهاب من أكثر المصطلحات تردداً على الالسنه، وما من دولة أو شعب إلا ولهما موقف معاد للإرهاب.

لكن الموقف الإنساني من الإرهاب هو موقف يستند إلى فهم نظري يُتفق عليه من حيث الفكرة، ويُختلف بشأنه من حيث المقاييس والمعايير المختلفة بين شعب وشعب، ودولة ودولة، وحتى بين فرد وآخر.

فما يكون إرهاباً لدى أمة من الأمم يكون مقاومة ضد احتلال أو ظلم عند أمة أخرى، وهذا هو الاختلاف في المعايير والمقاييس.

أما إذا كان مصطلح إرهاب من وجهة نظرية يعني العدوان الإجرامي بقصد القتل، أو التخريب، أو ترويع المدنيين دون أي مبررات فإن ذلك مجمع عليه، ومتفق بشأنه في المعايير الإنسانية جميعها.

وما نشهده اليوم من تحليل لمعنى الإرهاب يدفعنا نحو تعريف المصطلح وتاريخ بروزه، وجذوره التاريخية العقدية والفكرية، ومن ثم انعكاساته على الواقع من حيث الآثار والنتائج خاصة أن الأمة العربية أول الأمم التي اكتوت بناره، وما تزال آثاره تتفاقم كل يوم على أمتنا وأراضينا العربية.

فالإرهاب بداية استخدام وسائل متعددة لترويع الآخرين إن كان ذلك على المستوى النفسي أو الفكري، أو كان على المستوى الاجتماعي والاقتصادي، وتكون نتيجته سلب الآخرين حريتهم في العيش بأمان في أرضهم وبيوتهم.

وبهذا المعنى فإن الإرهاب نقيض الحرية بمفهومها الشمولي العام، وبمفهومها الخاص الذي يعني إبعاد الأمان والحياة عن الفرد أو الشعب أو حتى الأمة.

الإرهاب كعقيدة

بعيداً عما يسمى العقيدة العسكرية أو العقيدة السياسية فإن الإرهاب ليس وليد أفكار وفلسفات حديثة فحسب، إنما هو متجذر في بطن العقائد بحيث يصبح هذا الإرهاب نصاً مقدساً، أو أمراً ميتافيزيقياً يحل في النفس ليصبح جزءاً من نسيجها الديني والسلوكي والأخلاقي.

وبعيداً عن الهوى القومي أو الشخصي نرى نصوص التوراة وكذلك نصوص التلمود تخضع بكل الأشكال إلى هذا المقياس، أي: مقياس النص المقدس الذي يحترمه أتباع هذين الكتابين كاحترامهم للتعاليم العقدية الأخرى، ومن هذا القبيل عشرات النصوص الواردة في أسفار التوراة جميعها، وحتى نفرق تماماً بين النصوص الداعية للقتل مباشرة، والنصوص التي تدعو للإرهاب، علينا أن نفرق بين نوعين من النصوص، نصوص تنسب إلى الغيب وهي نافذة في الفكر والموقف والسلوك، ونصوص تصف الواقع وتنسب إلى أشخاص على الآخرين تمثّلها وتطبيقُها ولكنها لا تصل أحياناً مرتبة التقديس.

تقول التوراة: (لأن الرب إلهكم هو المحارب عنكم) يشوع 3: 23.

وتقول: (ويكون عند أخذكم المدينة أنكم تضرمون المدينة بالنار، كقول الرب تفعلون) يشوع 8: 8.

ويعلم الرب يشوع طرق الإرهاب وأساليبه وفنونه فيقول له: مدّ المزراق الذي بيدك نحو عاي لأني بيدك أدفعها.

ويأمر الرب يشوع أن يجعل بعض المدن ملجأ للمجرمين الإرهابيين وقطاع الطرق فيقول: وكلم الرب يشوعاً قائلاً: كلم بني إسرائيل قائلاً: (اجعلوا لأنفسكم مدن الملجأ كما كلّمتكم على يد موسى لكي يهرب إليها القاتل فيهرب إلى واحدة من هذه المدن، ويقف في مدخل باب المدينة، ويتكلم بدعواه في آذان شيوخ تلك المدينة، فيضمونه إليهم إلى المدينة، ويعطونه مكاناً فيسكن معهم، وإذا تبعه ولي الدم فلا يسلموا القاتل بيده) يشوع 5: 20.

وجميع الباحثين يعرفون كيف تصف التوراة الإله بالمحارب وبرب الجنود، وهذه الصفات تدفع التوراتيين لتصور هذا الإله كحاكم عسكري يجب أن تنفذ أوامره.

والواقع أننا نستطيع أن نرى أصنافاً متعددة للإرهاب في النصوص التوراتية، منها إرهاب داخلي بمعنى أنه يقع بين أتباع التوراة، ومنها إرهاب خارجي، ومنها ما له طرق وأساليب إرهابية متعددة كالقتل بطريقة الغدر، وهذا ما نجده في سفر صموئيل الثاني: (تقول التوراة: ثم دعا داود واحداً من الغلمان وقال: تقدم أوقع به، فضربه طعناً، فمات).

وتقول التوراة: (ولما رحل أبنير إلى حبرون مال به يؤاب إلى وسط الباب ليكلمه سراً، وضربه هناك في بطنه فمات) صموئيل 26: 32.

وتورد التوراة أن امرأة من بني إسرائيل قتلت قائداً يهودياً، فقطعت رأسه وألقته أمام الجنود (فقالت المرأة ليؤاب: هو ذا رأسه يلقى إليك عن السور، فأتت المرأة بحكمتها، فقطعوا رأس شبع بن بكري وألقوه إلى يؤاب) صموئيل 21: 22.

ومثل هذه النصوص كثيرة جداً في التوراة، وكذلك في التلمود الذي سن قوانين يعجز عنها الإحصاء، وهي في مجموعها قوانين إرهابية يقدسها أتباعها كتقديسهم للنص الإلهي الذي يزعمون أنه مكتوب في التوراة.

جاء في التلمود: مباح قتل غير اليهودي، القتل أمر واجب عند التمكن من إجرائه.

وجاء أيضاً: إن من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود بالفردوس، والجلوس هناك في السراي الرابعة.

أما من حيث الفكر فإن الإرهاب المستند إلى عقيدة إرهابية ينتقل بشكل طبيعي لامتداداته في الفكر، وهذا ما نجده بشكل مرعب في النظرية الصهيونية، فجابوتنسكي الأب الروحي لمنظمة الأرغون الإرهابية يقول: إن التوراة والسيف أُنزلا من السماء معاً.

وقد أورد بيغن في كتابه المسمى الحرية عشرات الأساليب الإرهابية التي استخدمها هو وعصابته إبان التسرب إلى فلسطين قبل النكبة عام (48) وما بعدها.

ومنها مثلاً ما ذكره عن تحمله مسؤولية تفجير السفينة المسمّاة باتريا والتي كانت تقبع في ميناء حيفاء وعليها (320) صهيونياً مهاجراً حيث قتلوا جميعاً على أيدي عصابات الأرغون وعصابة إتسل الصهيونيين، ومنها أيضاً الكثير من التنظيرات الإرهابية التي كانت توجه لأفراد العصابات الصهيونية الإرهابية كبقر النساء الحوامل، وقطع رؤوس الأطفال، وجمع كبار السن بالعشرات في أحد المنازل وحرقهم جميعاً أحياء، وهذا ما نُفّذ فعلاً بعد شهر النكبة عام (1948) وعلى مدى عدة شهور.

الإرهاب والقوانين الدولية

ظل مصطلح الإرهاب في القوانين الدولية يخضع للإطار النظري بشكل عام، وقد برزت اختلافات كثيرة في تفسيره بين الدول وذلك بسبب أبعاده الصراعية السياسية، ولكن القانون الدولي ينص على عدم ترويع المدنيين وظلمهم ودفعهم خارج بلادهم، وعدم استخدام وسيلة القتل ضدهم أو التعذيب.

جاء في المادة الخامسة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان: لا يجوز تعريض أي إنسان للتعذيب ولا لضروب من المعاملة أو العقوبة القاسية المهينة المنافية للكرامة الإنسانية.

وأهم ما جاء في هذا الإعلان:

لا يجوز تفسير أي نص وارد في هذا الإعلان تفسيراً يبيح لأي دولة أو جماعة أو فرد الاشتغال بأي نشاط أو القيام بأي عمل يقصد به القضاء على أي حق من الحقوق أو أية حرية من الحريات المنصوص عليها في هذا الإعلان).

ولكن مواد الأمم المتحدة ظلت نظريةً خاصة فيما يتعلق بالشعوب التي استُلبت حرياتها وأوطانها، وقد جرى الالتفاف عليها ومن ثم تغييب حقوقها المنصوص عليها في الميثاق العالمي لحقوق الإنسان، ومن خلال مسيرة الشعوب بعد الحرب العالمية الثانية نرى أن مصطلح الإرهاب راح يتنامى وترتفع وتيرة الحديث عنه، ولو عدنا إلى منتصف القرن السابق وجدنا أن السلوك الصهيوني في فلسطين وخارجها هو الذي صدَّر مفهوم الإرهاب وأشاعه، وقد كان قبلاً غامض الملامح قد يطرح في مناسبات متباعدة وفي مؤتمرات غير دولية.

وحتى عندما نتفحص تاريخ الحركات والمنظمات الإرهابية في العالم نرى أن جذر هذا المفهوم كان وما يزال من صنع صهيوني واضح.

فقبل أن تعرف أوروبا وأمريكا المنظمات الإرهابية العنصرية كمنظمات ميتسغن وكوكس كلان، وحزب الرب، والمنظمات التي ظهرت في فرنسا وهي يمينية النزعة، وكذلك المنظمات التي ظهرت في بريطانيا ويوغسلافيا وإيطاليا وأمريكا اللاتينية وهي كثيرة، ظهرت قبل منتصف القرن الماضي منظمات إرهابية صهيونية كان من أشهرها منظمة الهاغاناة، ومنظمة الأرغون، ومنظمة إتسل ومنظمات أخرى استخدمت الإرهاب في كافة وجوهه، من الإرهاب ضد اليهود أنفسهم إلى الإرهاب ضد العرب إلى الإرهاب الدولي.

فمنظمة الهاغاناة وقد تأسست عام (1921) ركز أعضاؤها على أعمال النسف والتخريب والهجوم.

ومنظمة الأرغون تأسست عام (1931) على جماعة مسلحة من حركة بيتار الإرهابية وانشقت عنها جماعة شتيرن، وأشهر ما قامت به من أعمال إرهابية:

على المستوى العربي: تنفيذ مجزرة دير ياسين في 5/ 4/ 1948.

على المستوى الدولي: اغتيال الوسيط الدولي للأمم المتحدة الكونت برانادوت.

على مستوى الإرهاب ضد اليهود: نسف سفينة باتريا وعلى ظهرها (320) مهاجراً يهودياً وقتلهم جميعاً في حيفا، وقد برر ابن غورين إرهابية بقوله: إن الإمبراطورية الإسرائيلية سوف تمتد من الفرات إلى النيل/ و (إسرائيل) لا يمكن أن تعيش إلا بالقوة والسلاح.

أما غولدا مائير فقالت: لقد حبذت دوماً أن نجلي العرب عن هذه البلاد بكل ضمير مرتاح، ولكن كيف السبيل إلى ذلك.. لا بد من الحرب لأنه بالحرب وحدها يمكن تغيير الحدود.

ويرى زعماء الصهيونية أن العنف هو جزء من العلاقات البشرية، وبرأيهم يوجد إرهاب عادل، وإرهاب غير عادل، فاحتلال البلاد هو أحد الوصايا الكبيرة المرتبطة بأرض (إسرائيل) وقد جاء على لسان أليعاذر ليفنه: إن تحقيق الصهيونية قد صاحبته مظاهر إرهاب كانت أحياناً بحكم الضرورة، وأحياناً لم تكن صحيفة يديعوت أحرونوت 8/ 9/ 1972.

وعلى الرغم من التهرب من مسؤولية الإرهاب لدى بعض الصهاينة فإن بعضهم يتباهى بقيامه بأعمال إرهابية ضد العرب، وعندما سئل مناحيم يبغن هل قام فعلاً بجرائم ضد النساء الحوامل في دير ياسين؟ أجاب: وهل فعلت ذلك إلا من أجل شعبي) حركة هتحيا.

ومنذ تأسيس هذه المنظمات الإرهابية في بداية عشرينات القرن الماضي وحتى قيام الكيان الصهيوني عام (1948) قامت عناصرها بمئات الأعمال الإرهابية داخل فلسطين وخارجها، وقد امتدت أيديها إلى افتعال جرائم وتفجيرات في كثير من بلدان العالم.

وحين نحصر أمامنا أسماء المنظمات الإرهابية في العالم لا نجد منظمة دون أن يكون لها علاقة ما بأجهزة استخبارات صهيونية وعلى رأسها الموساد والمنظمات الصهيونية العالمية.

ومن هذه المنظمات الإرهابية منظمة RSS الهندوسية، ولها ارتباطات وثيقة بالموساد.

منظمة النازية الجديدة (حالقو الرؤوس) منظمة كوكلوكس كلان الأمريكية، ولها فروع في ألمانيا، الحزب النازي الجديد في إيطاليا، عصابة (كامورا) ومركزها إيطاليا.

حزب اليمين المتطرف (فلامزبلوك) ومقره بلجيكا، الجبهة الوطنية الفرنسية بزعامة ماري لوبان ـ علاوة على وجود ثلاثين منظمة عنصرية إرهابية متواجدة في الولايات المتحدة الأمريكية، ومنها منظمة قامت بتفجير أوكلاهوما الذي أعدم منفذه الأمريكي الهوية والمنشأ في بداية شهر أيلول (2001).

ومن بالجدير ذكره أن هذه التنظيمات والحركات الإرهابية تعيش في بلادها التي لم تتعرض لاحتلال، إنما تقوم أفكارها على مبادئ عنصرية ومعاداة المهاجرين وأصحاب الأديان الأخرى.

وفي جميع الأحوال فإن ما أوردناه في البداية من تعديل لمصطلح الإرهاب وغاياته وأهدافه ينطبق على العديد من المنظمات والحركات في العالم، ولعل تسويق الإرهاب كمصطلح وسلوك في منطقتنا العربية لم يكنْ سوى نتيجة من نتائج الإعلام الصهيوني العالمي، فليس في منطقتنا منظمات تقوم على أسس عنصرية دينية أو قومية شوفونية متعصبة، وليس في منطقتنا العربية منظمات تقوم أساساً على نفي الآخر وتدميره وظلمه، فالإرهاب لم تشهده منطقتنا إلا مع حلول الحركة الصهيونية واحتلال أرض فلسطين وبعض أجزاء أخرى من أرضنا العربية، وممارسة كافة أشكال العنف والقهر. وقتل جميع أنواع الحريات الإنسانية التي دعا العالم إلى صيانتها والحفاظ عليها.

لماذا ندعو لمؤتمر دولي لمكافحة الإرهاب؟

من الواضح أن المعايير لتحديد مصطلح الإرهاب ما تزال تحكمها الأهواء السياسية والمصالح الذاتية الخاصة، فإذا كان لا بد من الوصول إلى قاسم مشترك بين الأمم والشعوب حول مصطلح الإرهاب فمن المفترض تحديد من المستفيد من وراء هذه الظاهرة، من المستفيد على المستوى الفكري أولاً، وعلى المستوى الاقتصادي

والاجتماعي ثانياً. وعلى المستوى الإنساني ثالثاً، ثم على كافة المستويات. وقبل أي شيء فإن العقل البشري مطالب بمراجعة التنظيرات الفكرية للإرهاب.

جاء في البروتوكول الأول من بروتوكولات حكماء صهيون (فخير النتائج في حكم العالم ما ينتزع بالعنف والإرهاب) (يجب أن يكون شعارنا كل وسائل العنف والخديعة) (إن العنف الحقود وحده هو العامل الرئيسي في قوة العدالة).

وجاء في البروتوكول السابع: من أجل أن نظهر استعبادنا لجميع الحكومات الأممية سوف نبيّن قوتنا لواحدة منها متوسلين بجرائم العنف، وذلك هو ما يقال له حكم الإرهاب).

وجاء في البروتوكول التاسع: إذا اكتُشفت خططنا قبل الأوان وتلافياً لهذا نستطيع أن نعتمد على القذف في ميدان العمل بقوة رهيبة سوف تُملأ أيضاً قلوب أشجع الرجال هولاً ورعباً، وعندئذ ستقام في المدن الخطوط الحديدية المختصة بالعواصم والطرقات الممتدة تحت الأرض من هذه الأنفاق سنفجر وننسف كل مدن العالم ومعها أنظمتها وسجلاتها معاً).

فهل نظر العرب لمثل هذا الإرهاب العالمي المدمر؟ إن عقد مؤتمر دولي لمكافحة الإرهاب سوف يدمر كل المشاريع الإرهابية التي تقوم على العنصرية الصهيونية، ولكن إذا كان العالم لم يتفق إلى الآن على مؤتمر دولي يكافح الإرهاب فكيف يتحقق اجتماع العالم على تحديد ما هو الإرهاب ومن ثم مكافحته؟؟

هجوم أمريكي غربي على الإسلام بدل الحوار

مهما حاولنا أن نغمض أعيننا أو نغلق آذاننا أو نشيح بأوجهنا عن الحقيقة لن نستطيع أن نتجاهل ناقوس الخطر الذي راح يضرب بقوة منذراً أمتنا بأن الآتي سيكون صعباً وقاسياً ومعقداً.

في كل وسائلنا الإعلامية قلما لا نجد مقالاً أو مقابلة أو بحثاً يتناول هذا اللغط الذي صار على كل لسان، هل أغلق الباب وأوصد أمام أي حوار للحضارات والثقافات؟ هل بدأ الغرب فعلاً بشن حربه الشمولية على الشخصية العربية الإسلامية؟ هل بدأ العد التنازلي لتصبح المواجهة الحضارية والثقافية حقيقة نلمسها

ونعيش صراعها؟ لماذا لا يعير الغرب آذانه لما يطرحه العرب والمسلمون حول الحوار الحضاري الديني الثقافي؟

قد يكون إحساسنا سابقاً على ما يجري الآن من تحرك على المستوى العربي أو الإسلامي أو على مستوى المنتديات الفكرية والثقافية هنا وهناك.

نعم لأن إحساسنا لا ينبع من فراغ نحن لن نكون أنبياء العصر حتى نتنبأ بالآتي، ولكن دراستنا المستمرة ومراقبتنا لهذا العالم مراقبة مستمرة تجعلنا نستقرئ دوماً المعادلات الفكرية والحضارية لنصل إلى النتائج.

لسنا ندري أهو قدرنا نحن ـ العرب والمسلمين ـ أن نظل نواجه كل أشكال الظلم والاستلاب والاعوجاج والحصار والمؤامرات، أم هو قدرنا أن نظل نقدم على مذبح القيم أفكارنا وعقائدنا ومواقفنا؟ العجيب في كل الأمور أن كافة الأمم والشعوب غير العربية والإسلامية تستطيع أن تغير تفكيرها غير مكترثة بمدى صحة التغيير أو عدم صحته.

لقد ظلت الماركسية سبعين عاماً في الاتحاد السوفيتي وفجأة تنهار دفعة واحدة وكأنها كانت شموخاً من القش أو الزجاج الهش.

ومع الانهيار باتت روسيا كما يقول الباحثون دولة من دول العالم الثالث.

الصين ذلك العملاق الذي كان يرعب، ينقلب إلى نفس جديد من التفكير والسلوك حتى رأينا زعيمها يرتدي قبعة التقليد اليهودي ويقدم احترامه بانحناءة عميقة أمام نصب الأكاذيب، نصب الكارثة والبطولة اليهودي عندما يزور فلسطين المحتلة إرضاء لزعماء الصهيونية العنصرية، وارتضت الهند أن تكون لغتها الرسمية اللغة الإنجليزية متجاوزة كل اللغات المحلية بما فيها الأوردية، التي كُتبت بها الديانة الهندوسية والبوذية والجانتية، وكتبت بها أساطير الهند التي يصعب حصرها.

إذن الكثيرون يتغيرون شعوباً وأمماً وحضارات، لغات تتغير، أفكار تنقلب وكتب تحرق أو تباع على الأرصفة من دون ثمن، فمن كان يصدق أن المادية التاريخية أو الديالكتيكية وجميع كتب ماركس وإنجلز تصبح مدعاة للسخرية والنبذ في أصقاع روسيا وغيرها من البلدان الاشتراكية الأخرى؟.

لقد أصبح كل شيء ممكناً، ولكن الذي لن يصبح ممكناً أن يصيب العرب والمسلمين ما أصاب غيرهم، اعذرونا إن كنا متحمسين قليلاً أو متفائلين، ولكن لهذا الحماس أو التفاؤل بقية باقية من كلام، هذه البقية هي جوهر ما نريد قوله، وما نريد قوله: ليس موضوع تعبير أو كلام إنشاء فالسكين وصلت حد العنق، ولم يعد بإمكاننا إلا الإفصاح عما في داخلنا يغلي ويكاد ينفجر لولا تلك الثقة بقيمنا وعقيدتنا، وإن لم نستمع لصوت داخلنا وانتمائنا العربي الإسلامي، سنضرب كفاً بكف ونقول المقولة المشهورة: أُكلت يوم أكل الثور الأبيض.

على أي حال فإن جوهر المسألة يكمن في أن بعضنا يصم أذنيه ولا يريد أن يسمع ما يقوله كبار المفكرين الغربيين والسياسيين، لقد قالها أكثر من واحد: إن الإسلام هو العقبة الباقية والخطر الباقي أمامنا، لقد حطّمنا الشيوعية وأدبياتها في كل العالم الشيوعي، واستطعنا أن نغزو بأفكارنا ونمط اقتصادنا أصقاعاً كثيرة ونوعية في العالم، إن الثقافة العربية الإسلامية بما تملكه من قيم الإسلام والانتماء للعروبة ستكون أكبر عقبة في طريق عولمتنا.

لقد قمنا في القديم بأكبر الحملات الصليبية على العرب والمسلمين، وخرجنا من بلادهم دون أن نؤثر في هؤلاء العرب والمسلمين، وعادت القدس إليهم، وقمنا بحملتنا الصليبية الحديثة إبان الحرب العالمية الأولى وقسمنا العرب وجعلناهم أنظمة تتصارع، وزرعنا فيهم روح الإقليمية وفي حكامهم روح الفردية.

لكننا خرجنا وبقي العرب.بقي المسلمون يجددون أنفسهم ويجددون أساليب مواجهتهم ودعوتهم حتى هددونا في بلداننا الغربية وأدخلوا إلى عقيدتهم الكثيرين من أبنائنا ورجالنا وفتياننا حتى تجرأ باحثوهم ومفكروهم أن يقولوا: إن دين الإسلام سيعم أوروبا في بضعة عقود.

إذن يكفي إلى هذا الحد، ولنبدأ هجومنا النوعي الذي يحطم هؤلاء العرب والمسلمين، ويحطم عقائدهم وتراثهم وثقافتهم، فلنحطم اعتزازهم وتمسكهم بإسلامهم وعروبتهم، ولنحطم ذلك الرابط الروحي الذي يربطهم بمقدساتهم وكتبهم وتاريخهم وحضارتهم.

هذا هو الخطاب الذي ينادي به كبار الباحثين المفكرين في أمريكا وأوروبا ممن تستهويهم العنصرية والفوقية والحقد على القيم السامية التي لا تتزحزح عن موقعها مهما حالوا دفعها أو إسقاطها.

لماذا يدق ناقوس الخطر

الإسلام والإرهاب صنوان هكذا تفوه الصحفي اليهودي الأمريكي توماس فريدمان وهو الأشهر بين صحفيي أمريكا وكتابها، الإرهاب لا يأتي إلا من الشرق الأوسط، وهكذا أيضاً قالها أكثر من مسؤول سياسي في أوروبا وأمريكا.

إذن ما المطلوب من وراء هذا التحريض، هل المطلوب ضرب أفغانستان مثلاً؟ هل المطلوب ضرب العراق أو الصومال أو لبنان أو المجاهدين في فلسطين؟ وهل يكون ضرب عدة مناطق عربية وإسلامية كافياً للقضاء على كل معارضي سياسة أمريكا وبعض حلفائها الغربيين؟.

إن هذه الأسئلة لسنا من نطرحها، إنما الذي يطرحها مخططو السياسة العولمية وإعلاميوها العنصريون، وهم أنفسهم من يجيب عليها، وجميعهم مجمعون على أن ضرب العرب والمسلمين في أكثر من بقعة جغرافية لن يقضي على الشخصية العربية والإسلامية، فهي ذات أبعاد تاريخية حضارية، وذات أسس عقيدية وفكرية عميقة الجذور، إذاً كيف يمكن أن نحقق انتصار العولمة الرأسمالية وقيمها دون أن يقف في طريقها انتماء قومي أو ديني؟

هل نقضي عليهم قضاء جماعياً وهذا مستحيل؟ هل نخلق بينهم النعرات الطائفية والمذهبية، وهذا جربناه وفشلنا فيه، كيف نتوصل إلى أسلوب يكفل لنا تحطيم هذه الشخصية؟ هكذا مرة أخرى يفكر الكثيرون من دهاة السياسة والفكر في العالم الغربي، لكنهم في أغلب الأحيان لا يعلنون ذلك صراحة، فالمطلوب الآن الضغط العسكري والاقتصادي والنفسي إلى أن يصلوا إلى إجماع واضح، وإلى أسلوب ظاهر يقضون من خلاله على ما تملكه الأمة العربية الإسلامية من عقيدة، وتمسك بالتراث والحضارة والثقافة.

الهوية العربية الإسلامية في المواجهة

من يفرض المواجهة؟ من يتحرك لها ويؤجج نيرانها؟

ليس خافياً علينا جميعاً أن من ينظر من الأعلى إلى جغرافية الوطن العربي والحدود المصطنعة بين أكثر من عشرين قطراً يدرك أن حالة التردي والضعف التي يعيشها وطننا العربي هي حالة لا يحسد عليها.

وهي بهذا الوضع عاجزة تمام العجز أمام أي تحرك للمواجهة إذا ما فرضت عليها، والواقع أن الذي يفرض المواجهة هو من يمتلك وسائلها المادية وقوتها غير المحدودة، وها نحن نرى الولايات المتحدة تفرض المواجهة إن أبينا أو رضينا، إن كنا ضعفاء أو كنا لا حول لنا ولا قوة، وحتى في أسوأ حالات ضعفنا لن نسلم من المواجهة، الولايات المتحدة تريد عالماً على مقياسها، وعندما يرضخ العالم العربي والإسلامي لتصور أمريكا حول مكافحة ما تسميه الإرهاب فإن الجميع يدرك أن أمريكا تريد فرض الواقع الصهيوني على المنطقة بكل إرهابه وعنصريته، فالتعرض للكيان الصهيوني خط أحمر لا يجب تجاوزه مهما حمل من صفات عنصرية إرهابية.

ونعتقد أن هذا الخط الأحمر هو جوهر تفجير المجابهة والمواجهة، بل هو جوهر الصدامات بين الشعوب وحضاراتها إن كان لها حضارات.

لقد سلم الكثيرون منا نحن ـ العرب والمسلمين ـ بالانضواء تحت ما يسمى مكافحة الإرهاب، ولكن الكثيرين منا أيضاً لا يسلمون بأي شكل من الأشكال برفع صفة الإرهاب عن الكيان الصهيوني فكيف إذاً تحل المشكلة والإشكالية؟ والواقع أن الولايات المتحدة حين تريد فرض كل تصوراتها فإن ذلك يعني خلق صدام حقيقي ومواجهة حقيقية مع العرب والمسلمين، لأن جوهر الصراع في هذه المنطقة يتجسد بمشكلة فلسطين ومنزلة القدس في العقيدة الإسلامية وكذلك المسيحية والأفكار العربية وتراثها.

ما الذي يهم الولايات المتحدة الأمريكية والتحالف الغربي من المنطقة العربية والإسلامية؟ أليس الحفاظ على الكيان الصهيوني وهيمنته وقوته المتفوقة، أليس امتصاص آخر ليتر من بترول العرب، وما الذي يهم جماهير الأمة العربية والإسلامية؟ أليس الخلاص من نير الاحتلال الصهيوني والقضاء على العنصرية الإرهابية الصهيونية؟ أليس الاستقلال الاقتصادي بعيداً عن الاستغلال والهيمنة

والقواعد العسكرية؟ هنا يكمن التناقض الكبير بين مصلحة ومصلحة، وفكر وفكر، وتصوّر وتصورّ، ولم تجد أمريكا وحلفاؤها مناصاً من تحريك المواجهة لتقضي على أي نفس عروبي إسلامي يرفض الاحتلال والاستغلال والاستلاب، ومع كل ذلك ومع كل علامات الضعف العربي والتشرذم واستلاب الإرادات يبقى رصيد الأمة قوياً في عقيدتها وعروبتها وحضارتها وتراثها، وهذه القوة التي لا تظهر على السطح دوماً تؤرق الفكر الغربي الذي يريد المنطقة بلا عقائد روحية وبلا أبعاد عروبية.

لذلك تطلب أمريكا من أبناء العرب أن يحذفوا من كتب التربية والتاريخ والجغرافيا والدين كل ماله علاقة برفض الصهيونية، وتطلب أن يكون القرآن الكريم خالياً من كل ما يتعلق ببني إسرائيل وجرائمهم القديمة والحديثة، وتطلب أيضاً حذف كل ما له علاقة بالجهاد ومقاومة البغي والظلم، ويود منظمو العولمة الأمريكية أن يصبح مصير القرآن الكريم مصير كتب الماركسية والشيوعية السوفياتية، يوضع على الأرصفة كتراث قديم ليس له قيمة، وهكذا يريدون ويودون لو استطاعوا أن يصلوا إلى ذلك.

على أي حال إذا كانت سياسة العولمة الأمريكية تعني القضاء على كل معارضيها وعدم التهاون مع كل من يقف في طريقها فإن ذلك يعني التصادم والمواجهة، ويعني أنهما حاصلان لا محالة، لأن الطرف الذي بقي وسيبقى ثابتاً في موقفه هو موقف الذين يرون العروبة كانتماء وأرض راسخة الجذور هوية يمتد عمقها آلاف السنين وما تزال حية بلغتها وتراثها وعطاءاتها، وهو موقف الذين يرون المسيح ابن فلسطين وهو يصمد بروحه وتعاليمه في وجه هؤلاء الغربيين الذي انقلبوا على الدين وعلى المسيح، وطعنوا عقيدته التوحيدية من الظهر، وهو موقف الذين يرون القرآن العظيم وهو يتحدى كل من يحاولون شطبه أو تغييبه أو شطب إسلامه الذي ينتمي له هذا الوطن العربي الكبير، وأمة الإسلام ذات الحضارة الرفيعة التي تتمدد تعاليمها وتتسع في شعاب أوروبا وأمريكا وليس فقط في مناطقها وحدودها، وإذا كنا نتحسس بدء الهجوم على الهوية العربية الإسلامية فإننا نتحسس من خلاله أن منظري سيادة القطب الواحد يرون أن العالم كله ملك لسيادتهم، ولا يجوز بنظرهم أن تكون العروبة والإسلام العقبة الكأداء في وجوههم.

ومع كل هذا وذاك وعلى سبيل التذكير فحسب، نرى أن سياسة إلغاء الأمة لن تكون سوى سياسة قميئة وفاشلة، ولو عاد منظرو سياسة القطب الواحد إلى دراسة التاريخ والجغرافية والعقيدة التي تخص منطقتنا العربية والإسلامية لوجدوا أن في تاريخ الأمة وجغرافيتها وعقائدها أسراراً للبقاء قد لا يفهمونها أو يخترقون جوهرها، فعلى الرغم من كل ما أصاب هذه الأمة من ضعف وتمزق وانحدار وإقليمية واستلاب فإن فيها من الأسرار ما يجعلها حية على مدى الزمن، فليتذكر أولو سياسة القطب الواحد أن التتار غزوا المنطقة وهددوا أوروبا نفسها وكانوا كالسيل الجارف بكل ما امتلكوه من قوة بطش وجيوش ووحشية ثم اندحروا، ولكن الأهم من ذلك كله عادوا إلى مواطنهم وهم يحملون في قلوبهم الإسلام، فبدل أن يوثّنوا أرض العروبة منحتهم هذه الأرض الرسالية روحاً عقيدية توحيدية عمتهم جميعاً وخلّصت نفوسهم من كل آثار الوحشية والفتك والقسوة والوثنية.

وليتذكروا أيضاً أن الغزوات الصليبية ظلت تهب من الغرب على مدى مائتي عام واندحرت، ولكن الأهم من ذلك كله تعلموا أن العروبة جمعت المسلم والمسيحي في التضحية والتصدي، وجمعتهما دماً واحداً يُراق على الأرض دفاعاً عن مقدساتنا، فلا ستار الصليب نفعهم، ولا خداع الدين نصرهم، وعادت أرض العروبة والإسلام تحمل للمستقبل آفاقاً جديدة متجددة من الحرية والكرامة، وليتذكر أولو الحملة الصليبية الجديدة أن هذه المنطقة صدرت للعالم كله قيماً رائعة من الحوار والحب والتسامح والبناء والحضارة، ليتذكروا أن المسيح الذي حارب الفريسيين والكتبة ولعنهم هو حي موجود يحارب بتعاليمه الغزاة الصهاينة الذين حملوا أفكار هؤلاء الفريسيين وعنصريتهم، وكرههم للحب والسلام والحوار المتساوي بين الشعوب.

فليكن أصحاب سياسة القطب الواحد ضد المسيح لأنهم حلفاء لأعداء المسيح من عنصريين يهود، وليتذكروا أن العروبة جسد الإسلام، والإسلام روح العروبة، ومحرك فعلها، فقد أحكم الله سبحانه وتعالى ما بين العروبة والإسلام، فكتاب الإسلام القرآن الكريم هو ذاته كتاب العربية الأول، وهما لا ينفصلان مهما حاولوا أن يفصلوا بين معتنقي العقيدة وبين الانتماء للعروبة والإسلام، وإذا كانوا يراهنون

على هذا الواقع العربي المتردي فإن في الأمة روح القرآن الكريم تظل حية بكل تعاليمه وقوانينه وعالميته وإنسانيته، وهم يخدعون أنفسهم إذا ظنوا أن يخدشوا هذه الروح لأن العروبة والإسلام ليسا مرحلة زمنية، فهما التاريخ كله والحضارة كلها والآفاق المستقبلية كلها.

إن الحوار الذي يصرحون به هنا وهناك ليس إلا ذر الرماد في العيون. وما قدمناه في السطور السابقة من حقائق يدحض افتراءهم بأنهم يريدون الحوار أو آنَ الأوان لفتح حوار بين الشعوب، فلا حوار إن ظلوا بهذه العقلية الاستعلائية التي تحفر للإيقاع بالمسلمين وعقيدتهم.

إغلاق الأبواب الأمريكية في وجه الصوت العربي إغلاق لإمكانية الحوار.

من المؤسف جداً أن الحملة الأمريكية الغربية على أفغانستان حشدت معها المناصر والخائف والمرتعب وحتى اللاعنين لهذه الإمبراطورية الرعناء.

ولكل الكثير من العرب انخرطوا للدفاع، عن هذه الحملة تحت ذريعة محاربة الإرهاب، أما حين تتعلق المسألة بقضية فلسطين والمقاومة المشروعة للشعب الفلسطيني فإن الإدارة الأمريكية تشطب من قاموسها وجود أمة عربية من المحيط إلى الخليج فهي ترى أن الصهيوني الإرهابي يجب أن يدافع عن نفسه بقتل الأبرياء بالمئات، وقصف المنازل والبيوت حتى التدمير الشامل.

فإذا دفعت الجرأة أحد العرب ليطلب من الإدارة الأمريكية فتح الأبواب لمناقشة ما يجري فإن الأبواب توصد بوجهه، فهي لا تفتح أبوابها، بل إن الإدارة الأمريكية تتقزز من استقبال أي عربي يريد البحث في العدوان البربري الصهيوني الإرهابي على شعب فلسطين، حين جرى ما جرى في الحادي عشر من الشهر التاسع في نيويورك وواشنطن تهافت العرب ليعلنوا وقفتهم الكلية مع أمريكا ضد الإرهاب ومن يحمي الإرهابيين، وكانت أمريكا تفتح أبوابها وذراعيها لتحضن هذا الحشد المؤيد لها على الرغم من أن طبيعة السياسة الأمريكية وعقليتها الأنجلوساكسونية تتأبى أن ترى عربياً أو مسلماً على أراضيها، أو في أروقة بيتها الأبيض، أو وزارة خارجيتها.

إذن لماذا تفتح الأبواب عندما يخص الوضع شؤون أمريكا وسياستها وأمنها؟ لماذا تفتح الأبواب لشارون وكذلك الآذان؟ ولماذا تغلق في وجه أصحاب الحق الذين تنفّذ بحقهم أبشع الجرائم الإنسانية في هذا العصر.

شارون بكل ما أوتي من عنصرية ودموية يسوّق في أمريكا مقولة: إن ما أصاب أمريكا في الحادي عشر من أيلول من هجمات إرهابية يشبه تماماً ما يتعرض له الكيان الصهيوني من علميات إرهابية من قبل المجاهدين الفلسطينيين، وما قامت به وتقوم به أمريكا في أفغانستان من قتل وتدمير يبرر ما يقوم به الكيان الصهيوني من قتل وتدمير، لأن ذلك كله يأتي في سياق الدفاع عن النفس.

أمريكا تحتضن شارون وتسمع صوته وتمنحه الضوء الأخضر ليفعل ما يريد بالشعب الفلسطيني، فلماذا لا تسمع الولايات المتحدة للصوت العربي الفلسطيني ولو مجرد استماع؟

نعتقد أن العرب يدركون انحياز أمريكا للصهاينة وممارساتهم الدموية، ولكنهم أُلجموا عن الكلام والاحتجاج إلا من رحم ربي، والعربي الذي يرفض هذا الانحياز ليس مسموحاً له أن يتكلم إلا في حشوة ثوبه، وقد أعلنتها الإدارة الأمريكية دوماً وبدون حياء أو خجل أو مواربة أنها مع الكيان الصهيوني قلباً وقالباً، وأن من حق هذا الكيان أن يذبح الفلسطينيين ويفنيهم عن بكرة أبيهم، فمن اقتنع من العرب اقتنع، ومن لم يقتنع فليضرب رأسه بالصخر أو بالجدار.

إذن متى تفتح أمريكا أبوابها ليدخل منها الصوت العربي المدافع عن قضية شعب فلسطين، وعن حقهم في الدفاع عن أنفسهم، وتحقيق حقوقهم؟

يبدو أن الوضع العربي الحالي بشكل عام لن يخرج منه صوت قوي يطرق أسماع الأمريكيين طرقاً يصدم طبلة الأذن، ولو عدنا إلى سنوات خلت لعرفنا أن الصوت العربي المحتج على سياسة الكيان الصهيوني الغاصب ودعم الولايات المتحدة لن يصل الشعيرات القصيرة المتراكمة على جوانب آذان الأمريكيين وخاصة كبار مسؤوليهم، لأن أمريكا وساستها يدركون أن هذه الأصوات مجرد كلام يُطلق في الأثير وليس وراءه أي فعل حقيقي يؤثر على المصالح الأمريكية في المنطقة أو خارجها.

فإذا كان العيب الأول في الأذن الأمريكية فإن العيب الثاني والأخطر يكمن في الصوت العربي الذي إن صرخ كان صراخه كالهمس الذي لا تُفهم لغته، ولا تسمع الأذن الأمريكية إلا لصوت نشاز كالأصوات التي خرجت مؤخراً تدين العمليات الاستشهادية الأخيرة وتعتبرها عملاً إرهابياً، فليتصور المواطن العربي كم أعادت محطة السي إن إن هذه التصريحات، فمثل هذه الأصوات العربية تُسمع في أمريكا، وتنشرها وسائل الإعلام وتكررها على الملأ، وتستثمر استثماراً كبيراً لأنها تصب في مصلحة التوجه الأمريكي الصهيوني، وليس في مصلحة الحق العربي، عندما قامت قوات الاحتلال بقتل أربعة أطفال دفعة واحدة ثم أتبعتها بجريمة قتل امرأة وأطفالها وبعض المدنيين، لم تُفتح الآذان الأمريكية لتسمع صراخ الثكالى من الأمهات اللواتي فقدن أطفالهن، ولم تسمع لصوت الأطفال الذين فقدوا أمهاتهم.

وعندما يقوم أبناء فلسطين بالدفاع عن أنفسهم يصبحون إرهابيين يجب القضاء عليهم، فالرئيس بوش يصف المجاهدين الفلسطينيين بأنهم كتنظيم القاعدة يجب محاربتهم، ووزير خارجيته كولن باول يقول: إن ما يقوم به الفلسطينيون من إطلاق نار وقذف بالحجارة وعمليات ضد الكيان الصهيوني هي أعمال إرهابية، وإن من حق شارون أن يختار الرد المناسب للدفاع عن شعبه وبلده، وزير العدل الأميركي يشبّه المجاهدين الفلسطينيين بمن قاموا بتفجيرات واشنطن ونيويورك.

أمريكا تسمع لصوت شارون في لحظة صفاء وحب بين بوش ورئيس وزراء الكيان الغاصب ويتفقان أن يقوم بوش بعد هذه اللحظة بإصدار قرار تجميد أموال مؤسسة الأرض المقدسة التي ترعى الأيتام من أبناء شهداء فلسطين.

صوت الصهيونية يعلو فوق كل صوت في الولايات المتحدة، الصحفيّة الصهيونية الأمريكية جودث ميلر أول من يتصل بمؤسسة الأرض المقدسة لتخبر من يشرف عليها بقرار الإغلاق وتجميد الأموال حتى قبل أن يصدر من الحكومة الأمريكية أي دليل أو قرائن تدين هذه المؤسسة، فهذا هو الصوت اليهودي الأمريكي الصادر عن اللوبي اليهودي قبل أن يصدر أي شيء رسمي أمريكي، وهذه هي الأذن الأمريكية التي لا تستمع إلا للصوت الصهيوني.

ومرة أخرى نتساءل متى تفتح الأذن الأمريكية للصوت العربي إن وُجد هناك صوت؟ نعتقد أن الأذن الأمريكية لن تعتاد أن تسمع صوتاً سوى الصوت الصهيوني، وقادة الكيان الصهيوني، ولن تعتاد أن تسمع صوت الحق حتى لو جاء من فيتنام أو كوريا أو الصومال أو حتى روسيا لأن هذه الأذن هي جزء لا يتجزأ من التركيبة الأمريكية المعتمدة على العنصرية الأنجلو ساكسونية، فهي في حل من فهم معاني الحق والعدل والحرية للشعوب، فلا عدل إلاّ عدل المفهوم الأمريكي، ولا حرية إلا حرية الرجل الأمريكي المتفوق، ولا حق إلا حق السيادة للأقوى في هذا الكون.

وعلى الرغم من كل التشاؤم الذي يلفنا واليأس الذي يخامر نفوسنا من عدم قيام الصوت العربي بالصراخ القوي فإننا ومن باب ثقتنا بالتغيير الدائم مهما طال الزمن فإن هذه الأمة لن تظل خرساء ولن تظل بكماء لأن قدرها أن ترفع صوتها مساندة للحق والعدل والحرية وإذا كان الرعب قد دخل النفوس والقلوب وعشش فيها فإنه لا بد في النهاية أن تخرج خلية الحياة تجدد نفسها بعيدة عن الرعب والجبن والخرس.

إن ما حدث في أمريكا وما جره من رفع أصوات عربية مساندة للموقف الأمريكي لن يكون أعز مما يحدث في فلسطين المباركة من قتل وتدمير وتشريد وحصار، وتدميرُ مبنى التجارة العالمية لن يكون أعز وأهم من تدمير المسجد الأقصى، مبنى التجارة الأمريكية ليس محطة إسراء الأنبياء ومحطة حب الملايين من الموحدين، إنما هو أكبر سوق للربا وامتصاص دماء الشعوب، بل هو محفل من محافل الأغنياء الذين لا يشبعون، فإذا كان الصوت العربي قد ارتفع تعاطفاً مع ما حدث لهذا المبنى فأحرى أن يرتفع تعاطفاً مع نداء الأقصى الذي ظل يهتف بالتوحيد منذ آلاف السنين.

وإذا كان الصوت العربي قد ارتفع احتجاجاً على قتل الصهاينة في القدس أو الخضيرة وحيفا وهو يعرف أنهم محتلون غاصبون فالأحرى أن يرتفع احتجاجاً وفي كل ساعة ويوم على قتل الأطفال والنساء والشيوخ في غزة وجنين وطولكرم والخليل ورام الله وبيت لحم، وهل دم هؤلاء الصهاينة المحتلين المعتدين أغلى من الدم العربي المسلم والمسيحي الذي يراق على أبواب المساجد والكنائس والأديرة والأوقاف الإسلامية؟

مرة أخرى نعود إلى السؤال: متى تفتح الأذن الأمريكية للصوت العربي، فإذا كنا قد أظهرنا يأسنا من فتح هذه الأذن - ولنا مبرراتنا - فإننا قد نظن أن هذه الأذن التي تعودت النفاق وسماع أصوات الباطل سوف تستمع رغم طرشها للحق العربي عندما يرافق صوتنا فعلنا فيكفينا أن نخرج من قلوبنا وهم الرعب، ويكفينا فقط أن نتحمل مسؤولياتنا تجاه أمتنا وتاريخنا ومقدساتنا وأبناء شعبنا، يكفينا فقط أن نخشى لعنة الأجيال لنا، بل لعنة التاريخ ومدوني التاريخ.

وإذا كنا مصرين على أن من يكتب تاريخنا الرسمي هم ليسوا من أبناء جلدتنا إنما هم كذابون مزورون، فإننا لن نخلد في هذا الكون مهما طال بنا الزمن ولو صعدنا إلى السماء بسلم، إن الصوت العربي الذي يكره سماعه الصهاينة أعداء الأنبياء وأعداء الإنسانية وكذلك الأمريكان ومن يشنون حروبهم الصليبية لن يكون صوتاً مؤثراً إلا إذا حمل صراخه قول الحق الذي لا يخاف لومة لائم.

من خلال ما تقدم ندرك أن الروح الأمريكية وكذلك سياستها لا يعنيها الحوار بشيء لأنها آلت على نفسها أن تكون منحازة إلى الباطل دوماً، وعندما يخرج بعض الغربيين وينادون بأنه حان الوقت لفتح الحوار بين الشعوب والحضارات فإن ذلك يصبح مدعاة للسخرية، لأن ما يقولونه شيء وما يمارسونه شيء آخر ينافي بل ينفي الآخر الذي يدعون أنهم يريدون محاورته.

الفصل الرابع
العولمة والصدام بين الشعوب

1 ـ العالمية والعولمة .
2 ـ العولمة وتخفيض عدد سكان الدول الفقيرة .
3 ـ سيادة الثقافة الواحدة .
4 ـ الصهيونية والعولمة .
5 ـ نموذج عولمي تربوي أمريكي .
6 ـ العولمة إنجاز الحكومة الماسونية العالمية .
7 ـ طوائف خلاصية تحكم بنهاية العالم بسبب العولمة .
8 ـ مؤتمر الألفية العالمي ، هل يتخلى العقل العنصري عن فوقيته؟
9 ـ لماذا تحارب الشعوب ضد العولمة ؟
10 ـ أمريكا بعد 11 أيلول تغيّرٌ أم تطور؟

أولاً: بين العالمية والعولمة:

ما يشغل العالم اليوم، الجدال الناشئ حول مفهوم العولمة ونتائجها على المستوى الاقتصادي والتجاري والعلاقات الدولية ذات التوجه الاقتصادي الصرف.

لكن الذي يشغلنا أسئلة عديدة تبحث عن العولمة كطرح فكري رأسمالي، وتبحث عن مخاطرها وآثارها السلبية على الهوية والحضارة والتراث والعقيدة.

كثيرون لا تعجبهم الهواجس والمخاوف التي نتحدث عنها جراء سيطرة العولمة وآثارها، وكثيرون آخرون يتهموننا بالمبالغة والتوهم، وعدم فهم العولمة فهماً موضوعياً علمياً.

ونعتقد بداية أن فهم العولمة وفهم آثارها لم يعد محصوراً بفئة جماهيرية دون أخرى.

صحيح أن الأفكار تختلف، وأن التركيب العقلي والنفسي لكل فرد يتميز عن الفرد الآخر، ولكن الجميع يدركون اليوم معنى العولمة، ولكنهم أيضاً يتنافرون جراء الفهم المختلف، لآثار هذه العولمة خاصة على عالمنا العربي والإسلامي الذي يطلقون عليه العالم المتخلف.

بعضنا يرى أنه علينا الدخول في العولمة شأننا شأن بقية الأمم والشعوب التي دخلتها، وبعضنا الآخر يرى أن لا خطر علينا من دخول العولمة والاندماج فيها، وثالثنا يرى أن العولمة قدر الإنسانية شئنا أم أبينا، فنحن مساقون إليها رغماً عن أنوفنا إن صح التعبير، ماذا تغير فينا منذ أن طرح مفهوم العولمة من الجانب الغربي؟ ما الذي تغيّر في عالمنا العربي والإسلامي منذ أن بدأ اكتساح العولمة يأكل الأخضر واليابس؟

قد يقول بعضنا: لم يتغير شيء، ما دمنا في حيرة وجدال، وما إذا كنا نتقبل العولمة أو نرفضها، لكن الواقع يقول لنا: إن الذي تغير هو مزيد من التمزق على المستوى النفسي والعقلي والعقيدي، ومزيد من الضعف والتخبط على المستوى الاقتصادي، ومزيد من القطرية والتقوقع على المستوى الجغرافي والسياسي.

على أية حال فإننا لسنا محرومين من إبداء رأينا وقناعاتنا وأفكارنا ما دمنا نواجه هذا الواقع، وما دمنا نحتار في تقبل العولمة أو رفضها.

فنحن نرى أن بين جوانحنا وعقائدنا مفهوماً آخر بديلاً عن مفهوم العولمة وهو مفهوم العالمية . وما دمنا نحن أصحاب هوية عربية إسلامية ما زلنا نداقع عنها ، فلا بد من النظر بدقة إلى مفهوم العولمة وفوارقه عن مفهوم العالمية .

إن تراثنا العربي الإسلامي وعبر أكثر من أربعة عشر قرناً ظل حاملاً في جوهره مئات المفاهيم الإنسانية التي لا تموت لأنها أشبه بالثوابت القيمية التي لا يغيرها بشر ، ولعل مفهوم العالمية كان ولا يزال أهم تلك المفاهيم وأوسعها أفقاً ، وحتى لا يستغرقنا الجدل فإننا نرى أن هناك فروقاً شاسعة بين العولمة والعالمية ، وهذه الفروق تقع في الأسس أولاً ، ثم في العلاقات الإنسانية ثانياً .

فالعالم الغربي اليوم يتحدث عن صيغ عولمية تضع الشعوب والأمم في مواجهة التحولات السريعة إن كان ذلك على المستوى الاجتماعي أو التقني ، لكن هذه الصيغ تحذف من قانونها كثيراً من النواميس ، وكثيراً من حبال الوصل بين الماضي والحاضر والمستقبل ، وكذلك تحذف من قاموسها مفهوم الهويات والشخصيات المتنوعة في الأرض .

لقد طُرحت العولمة من قبل الرأسمالية العالمية لتحل محل جميع أشكال الخصوصية والتنوع والتمايز ، ولتحذف حدود الجغرافيات الوطنية والقومية والعقيدية حتى تصل إلى غاية أقل نتائجها ذوبان الإنسانية في إطار لا تاريخ فيه ، ولا تراث ولا عقائد ولا مستقبل سوى زيادة الغنى لأصحاب رؤوس الأموال ، وزيادة الفقر لغيرهم من البشر ، وحين نداقع عن مفهوم العالمية نقتنع أنه إطار ينفتح على الشعوب دون أن تلغى الهويات والشخصيات ، وطبيعة التواجد البشرى على الأرض طبيعية تقر بالتنوع وتعترف للجميع بحق الحياة وتحقيق الحقوق الإنسانية بكافة مستوياتها الفردية والاجتماعية .

إن طبيعة مفهوم العالمية تعني العلاقات البشرية المعترفة بوجود أمم وشعوب لها هوياتها ولغاتها وتراثها وتطلعاتها ، وهذا الوجود خلق ليصنع ما يسمى تلاقح الثقافات والعلوم والحضارات ، وتجاذب المفاهيم والأفكار الساعية لخير البشرية ، وفي النتيجة فإن البشرية لا بد أن تتجه نحو التطور الفكري والمادي الذي يسعى لحل

أزمات العالم، وابتداع كل الوسائل التي تريح أبناء هذا الكوكب من عناء الفقر والظلم والاستلاب وعدم الكفاية المادية.

والعالمية لا بد لها من أسس وهذه الأسس رسخها التراث العربي الإسلامي لأنها استُحدثت من قيم ثابتة للتعامل البشري، وهي تقوم على احترام الإنسان للإنسان، احترام لونه وعقله ولغته وعواطفه ومشاعره ومعتقداته، وتقوم أيضاً على حوار بناء يصنع تفاعلاً إيجابياً بين الناس.

ومفهوم العالمية يحركه الإيمان المطلق بأن لا تمايز بين أبناء البشرية بسبب باللون أو العرق أو النسب أو الجاه أو المال، فالجميع يؤمنون بأن الإنسان بمفهومه الفيزيولوجي واحد، وتتوسع أسس العالمية لتشمل إقامة العدل ورفض الظلم والتعدّي. وكذلك عدم التسفيه والتصغير من شأن الآخرين أفراداً وأمماً وشعوباً، وهذه الأسس تدعو إلى الحركة الدائمة للإنسانية في كافة الاتجاهات من أجل بناء ثقافة وحضارة إنسانية توزع ألوان الطيف الحضاري على كل إنتاج إنساني مشترك، وهذا النتاج يقر بأن ألوان الطيف لا يمكن أن تتشكل خارج نطاق اللون الأبيض إذ هو الأصل الذي يمنح الطيف ألوانه جميعها.

إن مفهوم العالمية لا يلغي الآخر ولا يظلمه ولا يقهره، فالمفهوم ملك للجميع يدافعون عنه لأنه إنساني النزعة شمولي المساحة، يرفض كل أشكال الاستغلال والاستعباد. وعندما نسبر ما وراء العولمة التي يطرحها العالم الرأسمالي فإن أول ما يستوقفنا هو أن الذين يطرحونه ينظرون إلى التفاعل البشري على أنه تفاعل بين طرف ذكي قوي وطرف غبي ضعيف، طرف يمتلك وطرف يجب أن يكون فاقداً للتملك.

وإذا نظرنا إلى آلية تحقيق هذه العولمة يبرز لنا على الفور مفهوم إلغاء الآخر، وقد يكون هذا الإلغاء إلغاء حقيقياً من الوجود من خلال تفريغ الأرض من سكانها من خلال نشر الإيدز والأوبئة الفتاكة كما يجري الآن في أفريقيا وجنوب آسيا، وقد يكون الإلغاء تهميشاً كاملاً للدور البشري في استقلال الاقتصاد والتجارة والتوسع التقني والعمراني كما يجري الآن في أقطار النفط.

إن الآلية الغربية الرأسمالية للعولمة تعني الفرز الحقيقي بين نمطين من البشر أو بين عنصرين من الإنسان، عنصر مبدع منتج، وعنصر خامل مستهلك، عنصر يصنع كل ساعة تطوراً ملموساً في التكنولوجيا، ويؤسس لربح فاحش سريع، وعنصر يراد له أن يكون بعيداً عن التطور والإبداع والاكتفاء المادي الذاتي.

وفي ظل هذه العولمة أو لنقل تحت نير هذه العولمة يصبح الظلم حالة جماعية لا تتناول فرداً أو حالة فردية، إنما تتناول شعوباً برمتها، ويصبح التعدي سمة عولمة العالم الرأسمالي وليس التعدي ذا الوجه الواحد، إنما التعدي المتعدد السبل والأساليب، فهو تعدّ على خيرات الشعوب ومستودعات أراضيها من بترول وذهب وماس، وهو تعد على الهويات الوطنية والطموحات القومية والإنسانية.

فكيف يمكن أن ينظر بعضنا إلى العولمة على أنها بناء للحضارة الإنسانية المتمثلة بالتطور العلمي وراحة الإنسان، فهي لن تتجه إلى بناء الحضارة الإنسانية الشمولية، إنما تتجه لتحقيق سعادة دول الشمال الصناعي، سعادة أبناء الغرب المتقدم، ولعل أقرب مثال على ذلك نسبة الدخل القومي ودخل الأفراد في تلك الدول فهي لا تقارن مطلقاً بما لدى الشعوب في الجنوب الفقير من دخل قومي، أو دخل الأفراد، وهي في ازدياد غير متوقف، فهذه العولمة تبني أرضاً وتدمر أخرى، تسعد إنساناً وتتعس آخر، ولعل الأخطر من ذلك كله فصل الأرض إلى شقين مختلفين في الأهداف والغايات، فلا حوار بينهما لأن الطرف الأضعف مُلغَى بنظر الطرف الأقوى، فكيف يتم الحوار بين موجود ومُلغى؟ كيف يتم احترام الإنسان للإنسان والطرف الأقوى لا يرى في الطرف الأضعف إلا رقما زائداً فائضاً عن الاستيعاب؟

وحتى لا نكون مرهونين للإطار النظري فإننا نعتقد أن هناك صراعاً فكرياً ونفسياً، اجتماعياً ووجودياً يبن العالمية التي يطرحها الفهم العربي الإسلامي، وبين العولمة التي يطرحها الفهم الغربي الرأسمالي الذي أنهى منذ زمنٍ كل أشكال الهوية سوى هوية النهب والسلب، وتراكم الرأسمالية والسيطرة المطلقة على مقدرات الشعوب.

ولئن بدا للعيان أن بعض الشعوب قد وقعت فعلاً في شرك العولمة وراحت تذوب شيئاً فشيئاً في ظلمتها، فإن مهمة الأمة العربية وكذلك الإسلامية ليست كمهمة الآخرين، لأن تراث هذه الأمة وُجد ليبقى ويتطور ويفتح للإنسانية آفاقاً واسعة من العلاقات الإنسانية الراقية المتقدمة.

وبعد هذا وذاك هل تقبل العولمة الرأسمالية أن يحافظ العربي على هويته وشخصيته؟ هل تقبل العولمة أن يتساوى الشرق والغرب أو الشمال والجنوب بالتعامل والعلاقات الإنسانية وكذلك الإنتاج والاستهلاك؟

هل يقبل العالم الغربي الرأسمالي عالميتنا التي تؤكد احترام الآخر، ولا تسعى لنفيه من الوجود؟

هل يقبل العالم الرأسمالي عالميتنا التي تنفي العدوان والاستلاب والاسترقاق والاحتلال؟

ربما، ولكن العولمة الرأسمالية الكاسحة لن تتوقف لأن من يقودها هو من ابتدعها، ونعتقد أنه الفكر اليهودي الصهيوني الذي لا يروق له سوى دمار الشعوب، وحرق هوياتها، ومن ثم إلغائها إن أمكن.

لقد طرحنا المفهومين في إطارين نظريين وربما - وهذا حق مشروع - أن يتساءل الكثيرون منا ما معنى مفهوم العالمية من وجهة نظر إسلامية مستندة على أساس قرآني؟.

ثانياً: العالمية في القرآن الكريم والعقيدة الإسلامية:

لقد طرح القرآن الكريم مفهوم العالمية كأفق ينفتح على شعوب الأرض دون أن يلغي الهويات والشخصيات، وطبيعة التواجد البشري على هذه الأرض طبيعة تقر بالتنوع.

يقول الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: 13].

فطبيعة العلاقة البشرية تقتضي وجود الأمم والشعوب والقبائل، لا وجود شعب واحد وأمة واحدة، وهذا الوجود خلق ليكون هناك تلاقح في الثقافة والعلم، وتجاذب

في المفاهيم والأفكار. والنتيجة فإن الإنسانية جمعاء تتجه نحو الإنتاج الفكري والمادي الذي فيه سعادة الجميع وليس سعادة طرف على حساب تعاسة طرف آخر.

كيف طرح القرآن مفهوم العالمية:

في آيات القرآن الكريم يبدأ مفهوم العالمية من خلال مفهوم رب العالمين، وقد ورد هذا المفهوم في أكثر من ستين موقعاً في القرآن الكريم، فالله سبحانه يعلّم البشرية جمعاء أن الله واحد وهو مدبر الكون والبشر، ومطلوب من البشرية أن تتجه له، فهو الكلي المطلق ليس إلهاً لأحد دون الآخر، فلا تمايز في العبودية ولا فرق بين الناس في طبيعة الخلق، ولا فرق بينهم في طبيعة توجههم نحو الإله الواحد.

فعندما يطرح اليهود مفهوم الإله الخاص بهم فإنهم ينفون فهم العالمية من عقولهم، وعندما تعرض القرآن الكريم لكيفية تحقيق العالمية وضع أسساً ثابتة للتعامل البشري وهذه الأسس تقوم على احترام الإنسان للإنسان، احترام عقله وعاطفته ومشاعره وتقوم على أساس الحوار البناء الذي يخلق تفاعلاً إيجابياً بين الخلق.

لقد أوضح القرآن الكريم أن البشرية كانت واحدة، لكن النزوع نحو الشر من قبل بعض البشر فرّق البشرية، فكان لزاماً أن يبعث الله النبيين ليردهم إلى وحدة الأمة وإلى الخالق الواحد والأهداف الإنسانية الواحدة.

يقول الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة: 213].

وعندما ننظر في الأسس التي أقرها ورسّخها القرآن الكريم لمفهوم العالمية نجد أن التحرك الإيماني يبدأ بقوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ ثم تتوسع الأسس فنرى المساواة بين البشر وإقامة العدل ورفض الحرام

والظلم والتعدي، ونرى احترام رأي الآخر وعدم التسفيه وتصغير الآخرين أو احتقارهم، ومن ثم يدعو القرآن الكريم إلى التحرك الإنساني في كافة اتجاهات الأرض، وذلك لبناء ثقافة إنسانية وحضارة إنسانية وتوزع ألوان الطيف الحضاري، لكنها تدرك أن تكليف الإنسان بعمارة الأرض هو تنفيذ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.

وحين نقترب من مهمة الأنبياء والرسل نراها مهمة عالمية وليست مقتصرة على محيط ضيق، فالدعوة هي للتوحيد والسلوك والخير، ونرى أن النبي إبراهيم ـ عليه السلام ـ جاء المثالَ الأوضح لإظهار الخطوط العامة لمفهوم العالمية.

يقول الله تعالى مخاطباً إبراهيم ـ عليه السلام ـ: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾.

وبقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[النحل: 120].

أما المفهوم المفصل لتلك العالمية فقد أوضحه القرآن الكريم مرتبطاً بالنبي محمد ـ ﷺ ـ إذ أنه بُعث للناس كافة، ثم بُعث رحمة لهم، وليس انتقاماً منهم، ولذلك كانت الدعوة الإسلامية عالمية التوجه منذ البدء، وعلى هذا الأساس كان انتشار الإسلام سريعاً بين الأمم والشعوب.

وحتى لا نكون مرهونين للإطار النظري والتنظير فإننا نعتبر أن هناك صراعاً فكرياً نفسياً اجتماعياً ووجودياً بين العالمية والعولمة، فمهمة الإسلام ليست كمهمة الآخرين من أصحاب دعاة العولمة، لأن الإسلام وُجد ليكون السبيل الحقيقي لتحقيق عالمية المثل والقيم، عالمية المساواة والعدالة والتطور، ونعتقد أن أهم العقبات وأثبتها في وجه تيار العولمة الرأسمالي هو الإسلام المستند إلى فهم واع لمهمة حملة القرآن الكريم، وفهم واع للدور الرسالي لهذا الدين الحنيف.

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [النحل: 92].

إننا نرى أن بين العولمة والعالمية مسافة شاسعة تماماً كالمسافة بين الرؤية الربانية القرآنية والفلسفة الوضعية، وإذا عدنا إلى كافة ما طرحه القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة لوجدنا دستوراً عالمياً شمولياً يصلح للجميع ولسعادة الجميع.

ثالثاً: العولمة وتخفيض عدد سكان الدول الفقيرة:

حينما يطرح العالم الصناعي مفهوم العولمة والمفاهيم السكانية المعاصرة يرقب المرء أن الوجه الآخر للعولمة هو الفقر، وحين يدعي أصحاب العولمة أن عولمتهم تمنح الحرية فإن من الواضح أن هذه الحرية تمنح السقوط والفشل للمجتمعات الإنسانية...

فالعولمة بالمحصلة أخفقت وستخفق في تحقيق المساواة بين الشعوب، وفي القضاء على الفقر في أفريقيا وآسيا وحتى أوروبا وأمريكا.

هذا هو الوجه البارز للعولمة يخفي وراءه ما هو أخطر بكثير، فالدول الصناعية منذ أمد بعيد وهي تطرح على العالم الثالث الحد من النسل، وتتكرر الدعوات من قبل هذه الدول، وتُبرزها من خلال مؤتمرات كثيرة تعقد مرة في القاهرة، ومرة في الصين تحت شعار مؤتمر بكين للمرأة والتنمية السكانية، وثالثة تطرح في بلد ثالث تحت شعار الشمال والجنوب وما إلى ذلك.

وتختفي تصريحات هذه الدول بشأن الحد من الفقر والمرض والتخلف حينما تطرح موضوع تخفيض النسل، وكأن العلة أو علة العلل هي في هذا الأمر دون سواه، أما الأزمات الحقيقية وأهمها مديونية الدول الفقيرة فلا تحاول الدول الصناعية معالجتها، أو الحد من توسعها وانتشارها.

وحينما يدرس الواقع الاجتماعي والاقتصادي في الدول الفقيرة تبرز ثلاث معضلات أساسية تهدد تلك المجتمعات بالفناء.

ففي أفريقيا لا سيما الجنوب ينتشر مرض الإيدز بشكل مرعب، حيث تقول الإحصائيات: إن نسبة المصابين والحاملين لفيروس الإيدز تبلغ الآن 65٪، بمعنى أن بعض المجتمعات سوف تنمحي من الوجود خلال سنوات قليلة مقبلة، فمن أين جاءت هذه النسبة المخيفة؟ هل جاءت فقط نتيجة العلاقات غير الأخلاقية في المجتمع؟ أم أن العالم الصناعي لعب دوراً في تصدير فيروس الإيدز إلى تلك الدول للقضاء على سكانها؟ تقول بعض التقارير الصادرة عن الأطباء الأمريكيين: إن فيروس الإيدز منذ البداية صُنع ليصدر إلى دول أفريقية وآسيوية للقضاء على مجتمعاتها، وبمعنى من المعاني فإن هذه الشعوب بنظر بعض الدول الصناعية الكبرى فائض عن حاجة البشرية، ويجب إزالة هذا الفائض، ولا يتم ذلك من خلال الإبادة الجماعية العسكرية، أو إجراء مذابح مكشوفة تطال الملايين من البشر، أما الوسيلة الناجحة فهي تصدير مرض الإيدز، وجعله يفتك بأكبر قدر ممكن من الشعوب الفقيرة، وبذلك فإن بعضاً من نظرية مالتوس القائلة بالفائض البشري الذي يجب أن يزول، يصبح في محل التطبيق ولكن بأساليب بشرية وليس طبيعية كما تقرر تلك النظرية.

وحين يتساءل بعضنا عن الأسباب الكامنة وراء ذلك الإخفاء، فإن أموراً كثيرة تأتي لترد أو تجيب على التساؤل، فالعالم الغربي ما يزال ينظر إلى شعوب أفريقيا وجنوب آسيا نظرة عنصرية فوقية، ولم يتخلص منها وإن برزت محاولات فكرية فردية لمحوها.

ومن ناحية أخرى فإن أرض أفريقيا ما تزال قادرة على العطاء بخيراتها وحاجاتها، فإذا ما استطاعت هذه الشعوب أن تتحرر من عقلية الخوف فإنها قادرة على النهوض مرة بعد مرة، وهذا لا يروق للغرب الصناعي إذ أن دُولَهُ تسعى وما تزال حتى هذه اللحظة تسعى للاستفادة من حاجيات أرض الفقراء إلى أقصى درجة، حتى تبقى الدول الصناعية وصناعتها الأوروبية والأمريكية سيدة الاقتصاد والتجارة.

وحينما يطرح العالم الصناعي العولمة فإنه يدرك أنها لن تأتي بالخير على الشعوب الفقيرة، فلا مكان لتلك الشعوب في حساب الأغنياء والرأسمالية المرعبة في أمريكا وأوروبا واليابان.

ولعل التقارير التي تشير إلى الملايين من البشر الذين يقعون تحت خط الفقر في أفريقيا تعطينا صورة واضحة عن تخطيط العالم الغربي للقضاء على الشعوب الفقيرة.

فما قدمته الهيئات الدولية والدول الصناعية من معونات للمناطق الأفريقية التي يكتسحها الجوع لا تفي بعُشر الحاجة التي تحتاجها تلك الشعوب، والدول الصناعية قادرة على منح هذه الشعوب الفقيرة الكثير من الغذاء والدواء حتى تفي ما تحتاجه منه.

وتشير التقارير إلى فائض الغذاء في الدول الغنية، وما يقدم للحيوانات وما يُلقى في القمامات، هو أكثر بكثير مما يقدم للشعوب الفقيرة المنكوبة، لكن الدول الصناعية لا تريد أن تحيا شعوب العالم الفقير، بل تريدها أن تموت وتفنى ليتخلص العالم الصناعي المتقدم منها، لأنه يعتبرها عالة عليه يجب التخلص منها بأي شكل من الأشكال.

ونعتقد أن المسؤولية الأخلاقية تجاه الشعوب الفقيرة معدومة لدى العالم الصناعي إذ لو كانت موجودة فإن مشاهد الجوع والفقر والعطش التي نراها كل يوم في الفضائيات يجب أن تهز الضمائر في العالم الصناعي، فآلاف يموتون يومياً دون إبداء أي تأثر أو حس إنساني تجاههم.

وإذا كان الإيدز والجفاف والتصحر مظاهر أساسية في المشهد المأساوي للشعوب الفقيرة فإن مظهر الحروب الداخلية والخارجية وأساليب الإبادة القبلية يعتبر من المشاهد الأساسية المثيرة، فما يجري من هذا المظهر على الساحة الأفريقية والآسيوية ينبه إلى أن العالم الصناعي ليس بعيداً عما يحدث، فمخلفات الاستعمار القديم وكذلك التطلع الاقتصادي الاستعماري الجديد يشيران بوضوح إلى أن العالم الصناعي يلعب دوراً أخطر في الحروب القبلية والدولية والإثنية، وما تجارة الماس إلا شاهد على ذلك.

ولعلنا نذكر أنه خلال عشر سنوات ماضية كانت نسبة القتلى في أفريقيا تفوق كل تصور. فمئات الألوف قضوا ضحية العنف بين التوتسي والهوتو في رواندا وبروندي، ومئات الألوف ذهبوا هباء منثوراً في الحرب الدائرة بين أفراد الشعب

الكونغولي والسيراليوني وساحل العاج وجنوب السودان، وكل هذه الآلاف من البشر ليس لها اعتبار في عالم الغرب الصناعي طالما أنها تؤدي خدمة لأهدافها الاستراتيجية وأهمها تفريغ الأرض من سكانها لتبقى ثرواتها مستغلّة من قبل العالم الصناعي. ومن الواضح جداً عدم الاكتراث لمن يموتون قتلاً أو جوعاً. وإلا لو كان العالم الغربي يريد حلاً حقيقياً للأزمات والحروب المستعصية في أفريقيا لحُلت جميع المشاكل، ولكن لا يريد حلاً ولا يسعى له.

أندونيسيا التي حاولت النهوض والتقدم والمنافسة الاقتصادية حوصرت بشكل اقتصادي مخيف. وقام الغرب بتمزيقها إلى دويلات وما زال يفعل جاهداً لتمزيقها.

جنوب أفريقيا الغنية بالماس والصناعات الحربية دمّر شعبها من خلال تصدير الإيدز لهم، ومن خلال زيادة سيطرة العنصر الأبيض على المناجم والخامات والصناعات الثقيلة، الكونغو التي تعتبر من أغنى دول أفريقيا خلقوا لها حرباً أهلية، وحركوا دولاً أفريقية للتدخل في شؤونها حتى لا تستقر مطلقاً، ولا تُحل مشاكلها.

وقس على ذلك معظم دول آسيا وأفريقيا، وإذا كان الغرب الصناعي يريد فعلاً إنقاذ البشرية من الفقر والمرض والجهل - ولن يفعل - فعليه التفكير أخلاقياً وإنسانياً بتنظيم الموارد الطبيعية، وتوزيعها بالتساوي بين أفراد الشعوب. فما يعانيه العالم من هذه العولمة اليوم هو زيادة غنى الغني، وزيادة فقر الفقراء، وقد أصبحت الهوة شاسعة بين الطرفين.

ومن باب أولى أن لا يفتعل الغرب الصناعي الأزمات والحروب ويغذي الصراعات القبلية، فهذه الأزمات هي الأشد فتكاً بالشعوب الراغبة في التنمية وتحسين أوضاعها البيئية والجغرافية، فبدل أن تصدر الأسلحة خفيةً إلى المتصارعين، فمن المفترض أن تصدر الأغذية أولاً، ومخططات بناء السدود وتصدير الأدوية اللازمة للقضاء على الحشرات القاتلة الفتاكة بالمحاصيل الزراعية الأساسية.

وبدل أن يطلب العالم الصناعي إيقاف النسل وإيقاف زيادة السكان عليه أن يعمل جاهداً لحملات التثقيف بين الشعوب حتى ينظم النسل ولا يقضي عليه.

وبدل أن يتجاهل الغرب الصناعي طبيعة الشعوب وثقافتها، عليه أن يمنح كل شعوب الأرض فرصتها حتى تتمكن من إيقاف النزيف البشري والاقتصادي في مجتمعاتها.

وهيهات أن يفهم الغرب الصناعي هذا الدور الأخلاقي الإنساني، ويبدو أن طبيعة الفكر الذي يحمله الغرب ليس بعيداً عن إرث ما يسمى الرجل الأبيض الذي قضى على الهنود الحمر قضاءً مبرماً، واستعبد شعوباً سوداء، ونقل خير شبابها إلى عالمه ليكونوا عبيداً مسخرين في مزارعه ومصانعه، وحتى في أماكنه المشبوهة.

رابعاً: العولمة وسيادة الثقافة الواحدة:

هيمنة أحادية أم تسويق ثقافي فاسد؟

تعاظمت نداءات الإدارة الأمريكية ومحاولاتها لتسويق النظام الاقتصادي والاجتماعي والسلوكي كنمط واحد في العالم، ويسمون هذا النظام النمط الأمريكي.

بطبيعة الحال فإن ما يقصدونه هو النمط الرأسمالي بثقافته وتصوراته الاجتماعية والاقتصادية، فبعد انهيار النظام الشيوعي وانهيار ثقافته بدا واضحاً وكأن نمطاً وحيداً واحداً هو الصالح فقط كي يكون مثالاً يُحتذى للأمم والشعوب كلها.

وراح الكثيرون من المعجبين بهذا النمط الأمريكي يروجون له في العالم كله بما فيه العالمين العربي والإسلامي.

وتأتي أحداث ما بعد الحادي عشر من الشهر التاسع ليرتفع الصوت الأمريكي عالياً ليقول: إن النموذج الأمريكي يجب أن يسود العالم على الصعد كلها الاقتصادية والثقافية والاجتماعية.

قد يكون هذا الحديث ضيق التناول بين الأوساط الجماهيرية لشعوب العالم قاطبة، لكنه يفرض نفسه في أوساط بعض المفكرين والسياسيين وأصحاب الشأن.

وبات من الطبيعي أن يطرح كل منا أسئلته على قدر فهمه للحاضر والمستقبل، حاضر الأمة ومستقبلها باعتبار أن الأمة العربية والإسلامية ستظل مستهدفة من عدة قوى، ومن عدة تيارات فكرية، باعتبارها لا تزال تحمل مخزوناً فكرياً قد يتقدم على

غيره من مخزون الأمم والشعوب التي انهارت مع انهيار النظم التي كانت سائدة قبل عقد التسعينات .

وبداية لا يجدر بنا أن نسلم بتلك التي تطرح سيادة الثقافة الواحدة مهما كانت أسسها وتوجهاتها الوضعية ، ومهما كان مصدرها البشري ، وحتى تستوضح تفصيلات الطرح المذكور لا بد أن نشير إلى حقائق لا يختلف عليها إثنان .

إن النموذج الثقافي الفكري الأمريكي ليس بالضرورة مثالاً للثقافة العالمية الإنسانية فهو بشكل أو بآخر وُجد للأمريكيين ، ولكنه غير صالح مثلاً لزمبابوي أو اليمن أو بورما وحتى في الدول المشابهة لأمريكا من حيث نمطها الرأسمالي تجد في تسيّد النمط الثقافي الأمريكي خطراً على ثقافتها ومثال ذلك فرنسا وبعض الدول الغربية .

وعندما تطرح ثقافة ما كبديل لثقافات الشعوب كلها لا بد أن تكون عالمية القيم وإنسانية المُثل ، وحتى وقت قريب كان مفهوم الحرية الشخصية في أمريكا يبهر الكثيرين ويعجبهم . وبعد الأحداث الأخيرة أصبح الكثيرون من الأمريكيين يعيشون حالة التقيّد والتضييق الأمني هي أشبه بأي حالة في الدولة الديكتاتورية كتشيلي مثلاً أيام حكم بينوشيه ، ولعل الإجراء الأمني الذي اتخذته أمريكا والمتعلق بالتنصت على المكالمات الهاتفية أشعر المواطن الأمريكي بأنه مراقب حتى داخل غرفة نومه .

وهذا بالطبع جزء يسير من النمط الأمريكي الذي تحول من حرية إلى تقيد ، ومن أمان إلى عدم أمان ، وهذا ما يقودنا إلى القول إن الثقافة البديلة التي يطرحون النموذج الأمريكي مثالاً لها هي متبدلة غير ثابتة حتى في الولايات المتحدة ذاتها .

وإذا أخذنا النموذج الاقتصادي الأمريكي الحالي فإننا سنرى نمطاً يتزعم هستريا العولمة ، فمجموعة الآليات المقنّنة اقتصادياً في التوجه الاقتصادي الأمريكي لا تحسب حساباً للأمم الفقيرة والدول الصغيرة من العالم الثالث ، فهي منسحقة تماماً أمام تيار العولمة الذي تسعى الولايات المتحدة فرضه على العالم .

ونعتقد أن العالم الذي يسمونه ثالثاً يعيش في أغلبه حالة فقر اقتصادي ، والدول الصناعية المعدودة على الأصابع تتحكم بالمال والاقتصاد العالمين ، ولا نرى في العالم هذا دولة إلا وعليها من الديون ما تعجز عن سداده في مئة عام .

فكيف يكون النموذج الاقتصادي الأمريكي مثالاً يُحتذى وهو في أساسه اقتصاد يكرس رأسمالية أمريكية وينفي ويلغي الاقتصادات الأخرى كلها لا سيما اقتصادات الدول الفقيرة والنامية.

إن النموذج الثقافي الأمريكي نموذج متلون المشارب، وفي معظمة ليس إلا تصديراً لنمط أوربي قديم ترفضه اليوم معظم الدول الأوربية، وبمعنى آخر فإن هذا النموذج لم يتأسس في نسق حضاري كما هو الحال مثلاً لدى الشعوب صاحبة الحضارات التقليدية المعروفة، وحتى هذه اللحظة لا يزال هذا النموذج نموذجاً تجريبياً خاضعاً للتبديل والتغيّر والتطوير أو عدمه، وهذا التغيّر والتبدل أمر طبيعي ما دام المجتمع الأمريكي يحوي من عناصر التكوين البشرية ما هو متناقض أو متنافر لا سيما في الأفكار والمعتقدات والعقائد الدينية والفلسفية وغيرها.

فما الذي يجمع الفكر البوذي مع الفكر الإفريقي الوثني أو الطوطمي، وما الذي يجمع المسلم بالوثني الذي يؤمن بالأرواح الشريرة مثلاً؟

إن التجربة أكدت أن النموذج الأمريكي الثقافي لا يزال غير قابل لكثير من الأعراق والأجناس والديانات والثقافات، وكأن الذي حدث رفع الغطاء عن حقيقة أن النموذج الثقافي الأمريكي ليس سوى نموذج الأنجلو ساكسون فحسب.

وما تحمله الشعوب والأعراق الأخرى من ثقافات ومعتقدات ليس له أي قيمة في سلم المعايير الثقافية الأمريكية.

بعد انهيار النظام الشيوعي وتداعياته على أوربا الشرقية وغيرها من المناطق بدا لكثير من الشعوب أن الأفكار المعاكسة للرأسمالية ليست إلا نماذج هشة وسطحية، لكن الأخطر من ذلك أن هذه الشعوب فقدت توازنها الفكري والثقافي، فلا هي قادرة على تمثل الرأسمالية، ولا هي قادرة على التمسك بنماذج فكرية باتت ضعيفة ومتلاشية أحياناً، وهنا برز الدور الأمريكي في نشر النموذج الرأسمالي الثقافي، حيث راح الكثيرون يدعون إلى العولمة، ولو كانت على حساب تراثهم وثقافتهم الوطنية المحلية أو القومية.

وبات من الواضح أن جميع النماذج الثقافية التي سادت خلال العقود القليلة الماضية راحت تفقد كثيراً من ثوابتها الفكرية وتميل باتجاه الذوبان في الاتجاه العولمي الذي تتسيده الولايات المتحدة.

وعلى الرغم من أن العالم العربي والإسلامي لم يشكل نموذجاً اقتصادياً يوازي النموذج الرأسمالي إلا أن الباحثين والدارسين كلهم يرون أن العالم العربي والإسلامي يجدد دوماً نموذجاً فكرياً خاصاً يصعب على التوجه الفكري العولمي ابتلاعه أو التأثير فيه كما حدث مع غيره، قد يرى بعضنا أن هذا الطرح مبالغ فيه، فهناك الكثير من العلاقات الدالة على التأثير بل الانخراط في بعض آليات العولمة التي فرضتها الرأسمالية الأمريكية.

قد تكون بعض الملامح الاقتصادية تشير إلى وجود تأثير في الجانب الاقتصادي نفسه، ولكن قد يكون مستغرباً أن نرى من يدعو إلى تمثّل النموذج الثقافي الأمريكي على حساب النموذج العربي الإسلامي المتمثل في طبيعة الأبعاد العقيدية والتراث العربي واللغة العربية التي يحاول بعضنا القفز عنها، ويعتبرها من مخلفات الماضي، والذي يُلفت النظر أن النموذج الإسلامي التنويري يؤثر الآن وبشكل واضح في الكثيرين من الذين كانوا قبل أحداث أمريكا لا يعرفون شيئاً عن الإسلام سوى الوجه الإرهابي الذي صنعته وسائل الإعلام الصهيونية والمتحالفة معها.

ويبدو أن أمريكا وكذلك الغرب يدركان أن التصادم وليس التفاهم هو الذي سيسود العلاقات بين الشرق والغرب على الرغم من كل المحاولات الجارية لتسويق الثقافة الأمريكية في العالمين العربي والإسلامي، وقد اعترف بذلك أكثر من مسؤول أمريكي، فقد قال جون ليسي رئيس مجلس إدارة شركة ويبر شاندويك وهي شركة علاقات عامة في أمريكا: ليس من الواقعي كثيراً وقد يكون من غير المثمر أن نوحي بأنه بإمكاننا تسويق قيم أمريكا في الشارع العربي على المدى القريب، وقال: ليست هذه حرباً يمكننا الانتصار فيها عبر الموجات الإذاعية، بل يتحتم علينا خوضها في الشارع، ويبدو للأمريكان وللغرب عموماً أن الإسلام إذا ما وصل إلى البنى التحتية

الشعبية في مجتمعاته فإنه بالمقارنة مع ما يسوده من فراغ روحي وعلاقات غير سليمة بين الناس سيكون له الحظ الأوفر من الانتشار والتقبل.

من هنا نقول: إن من المستحيل أن يصبح النموذج الثقافي الأمريكي سيد العالم لأنه لا يمتلك ما يمتلكه الشرق الإسلامي من عمق عقيدي يقوم على أسس إنسانية واضحة، فهذا العالم العربي الإسلامي الذي حمل قيم الإسلام سلاماً وتفاهماً بين الشعوب ما زال ينقل البشر من ضلال المادة والوثنية إلى حقيقة الروح والتسامي والأحدية، وإذا كان المفكرون والسياسيون الأمريكيون يظنون أن تسويق النموذج الأمريكي ثقافياً بالقوة وبفرض الأفكار فرضاً فإن ذلك يعني التصادم الحتمي والمكشوف والمباشر، والتصادم الذي يعني رفض الأفكار الأمريكية كلها والعمل الدؤوب على محاربتها، وإذا كان بعضنا يبحث عن حلول وسط فإن الواقع يقول لنا: إن عالمنا العربي والإسلامي يمتلك نموذجاً ثقافياً يعترف له الجميع بفضله على بني البشرية.

وإن حاول بعض المغرضين من إعلاميين صهاينة ومتعصبين غربيين أن يصوروا الإسلام إرهابياً بسبب ما حدث في نيويورك وواشنطن فإننا نعرف يقيناً أن النموذج الإسلامي العربي يقوم أساساً على احترام الآخر لا نفيه، وعلى تقبل أشكال الثقافات العالمية كلها دون تشنج أو تعصب، ولكن دون أن يكون للتغلغل الثقافي الفاسد دور في تخريب العقل العربي أو تشويهه أو محاولة خداعه وإبعاده عن عقيدته الإسلامية وتراثه الكبير وقيمه الخالدة.

خامساً: الصهيونية والعولمة، عالمية التسيّب وخصوصية التسيّد:

لماذا يفرض علينا أن نتقبل العولمة كقدر محتوم؟ ونلغي تراثنا وثقافتنا وعقائدنا؟ كيف يتعامل العدو الصهيوني مع العولمة في جانبها الثقافي والديني والاقتصادي؟

لا نريد أن نعيد مضغ الشعارات والبديهيات ونقول: إن الصهيونية تتحكم مالياً واقتصادياً بالعالم، فهذا الأمر المكشوف ليس من الأسرار، وليس من المستهجنات، إنه أمر واقع، نعم كان اليهود وما يزالون يتحكمون بالمال العالمي والاقتصاد الدولي.

العولمة ليست جانباً واحداً وهو الاقتصاد، إنها كما هو معروف منظومة متكاملة من التحكم الاقتصادي والإلغاء الديني والقومي والوطني.

وإذا كنا كعرب أو كأمة عربية وإسلامية قد شغلت مفكريها وباحثيها مسألة العولمة وأخذت من أوقاتهم أغلاها، ومن مناقشاتهم أصخبها، ومن محاضراتهم ومناظراتهم أوسعها وأخطرها، فكيف لم نفكر بسؤال مشروع نطرحه على أنفسنا وعلى أبناء أمتنا، وهو:

ما شأن العولمة لدى الصهيونية والكيان الصهيوني العدو المباشر لأمتنا؟ كيف يتعامل هذا العدو مع مفهوم العولمة، لماذا لم نسمع مفكراً عربياً يتنطح لدراسة العولمة وكيفية تعامل الفكر الصهيوني معها؟ ولماذا يصدر إلينا الصراع حول العولمة فنصبح الأخوة الأعداء منا الرافض، ومنا القابل والمروّج، ومنا الحائر المتخبط بينما نحن غافلون تماماً أو نائمون تماماً عن فهم العلاقة بين العولمة وعدونا الصهيوني؟

العدو الصهيوني يرفض العولمة إن لم يكن هو الرأس منها والمدبر لها، يريدها أداة لتحكُّمه في الاقتصاد العالمي، لكنه يرفضها إذا كانت تمس الثقافة الصهيونية والتراث اليهودي والهوية التي يريد لها أن تسجّل في سجل الهويات للأمم والشعوب.

قد يكون هذا الكلام لا معنى له في لغة الحقائق والوثائق والموضوعية، لكنه في الوقت نفسه قد يكون صدمة أو ضربة على الرأس ليصحو المرء على مسألة هي من أخطر المسائل التي نغفل أو نتغافل عنها.

مطلوب منا كعرب ومسلمين أن نتقبل العولمة، ندخلها ونهضمها، وليس مهماً أن نلغي عقائدنا وتراثنا وثقافتنا، فهي تستحق أن توضع في المتاحف كما يقول المفلسون والحاقدون.

ومطلوب من اليهود أن يصدروا مفهوم العولمة ويعمموه بشرط أن تكون السيادة لهم ولثقافتهم وتراثهم إذا كان لديهم تراث، فاليهود شعب الله المختار، والآخرون خلقوا ليكونوا خدماً لهذا الشعب كما تقول التوراة، الاقتصاد العالمي لا يحيا دون رأسمال، والرأس مال موجود في أيدي أغنياء العالم من اليهود، والعولمة تعني بالمحصلة عدم وجود رؤوس الأموال الصغيرة والمتوسطة، فالكبيرة تلتهم كل شيء والقوي يأكل الضعيف.

وباعتبار أننا لسنا مـن الاقتصـاديين فلنترك الاقتصـاد لأصحابـه علـهم ينتبـهون لمخاطر العولمة اليهودية البغيضة.

ماذا تعني العولمة في المفهوم الصهيوني على المستوى الفكري والثقافي والتراثي؟

منـذ نهايـة القـرن التاسـع عشـر طرحـت الحركـة الصهيونيـة أفكارهـا المسـتقبلية وحددت رؤيتها تجاه العلاقـات مع الشـعوب وذلـك علـى ضـوء مشروعها السياسـي الفكري الهادف إلى إنشـاء كيان يجمـع يـهود العـالم فـي فلسـطين باعتبار أنـها أرض الميعاد لكافة اليهود حسب ما يزعمون، والحركة الصهيونيـة لـم تفكـك نفسـها بعـد أن حققـت إقامـة الكيـان بـل ظلـت قائمـة ومنتشرة، وظلـت تسعى إلـى نشـر أفكارهـا السياسية والفكرية والفلسفية فـي أرجـاء العـالم، وكمـا بـات مـن المؤكـد هيمنـة المال اليهودي على الاقتصاد العالمي فإن هيمنة فكرة الصهيونيـة أصبحـت ظـاهرة جليـة فـي الأوساط الأمريكية خاصة والغربية بشكل عام، وليس غريباً أن نجد الآن أكثر من مئة مليون بروتستانتي أمريكي يؤمنون بما تؤمن به الصهيونية اليهودية.

فالعولمة فـي هـذا الإطـار تعنـي سـيادة الفكـرة الصهيونيـة علـى مجمـل الأفكـار والفلسـفات الأمريكيـة والغربيـة والبروتسـتانتية، وعلـى الرغـم مـن كـثرة دعـاة الصهيونية، وعلى الرغم من مرور أكثر من قرن على بروز الحركة الصهيونية فإن هـذه الحركة تلعب الدور الأخطر في توجه الطغيان الأمريكي بكل فلسفاته وأفكاره.

الفكرة الصهيونية فكرة خلق ما يسمى القومية اليهودية الخاصـة، وهـي حسـب كـل مـن يؤمنـون بـها، ابتـداءً بالآبـاء الصهاينـة الأولـين أمثـال هرتـزل وموشـي لايـب وموسى هـس، وانتـهاءً بالسياسـيين كبيغـن وشـارون وبـاراك ورابـين وبـيريز انتمـاء لا يمكن التفريط به.

وإذا عدنا إلى مطالب العولمة التي لم تعلن بل يُعمل لأجلها، وجدنا أنها تسعى إلـى إلغـاء القوميـة العربيـة أولاً، وإلغـاء المضمـون العقيـدي ثانيـاً، فـالعربي وكذلـك الإيراني والتركي والأفغاني والنيجيري يجب أن يتخلى عن قوميته حتـى يدخـل عـالم العولمة، يجب أن لا تبقى القوميات محركة للشعوب للتقدم والاعتزاز لأنـها حسـب العولمة لا تناسب العصر، فاذا كان هذا هو الحل بالنسبة للإطارات القوميـة فـي العـالم

الفقير فما هو الحل بشأن الصهيونية؟ هل يتخلى الصهاينة عنها؟ هل يجرؤ دعاة العولمة على التخلي عن الفكرة الصهيونية والكيان اليهودي القائم على الصهيونية؟ والحقيقة تقول لنا: إن العولمة هي اسم جديد للصهيونية ما دام منظروها هم أنفسهم منظرو الصهيونية، وما دام المنهج والاستيراتيجية والأدوات جميعها صهيونية، إن كانت يهودية العقيدة، أو بروستانتية أمريكية، فكلتا الصهيونيتين تخرجان من نفس الكهف التوراتي التلمودي المظلم.

أما على المستوى العقيدي والتراثي فإن أحد أهم العوامل الذرائعية في إقامة الكيان الصهيوني استناد التحرك الصهيوني على البعد العقيدي والتراثي، فإذا كان المطلوب من العرب والمسلمين ونصارى الشرق لكي يدخلوا العولمة أن يتخلوا عن كثير من عقائدهم وتراثهم ومعتقداتهم فإن الصهاينة يؤكدون أن التراث اليهودي سيدٌ لكل أشكال التراث، ويؤكدون كذلك تسيّد العقيدة اليهودية على كل العقائد والديانات، على الرغم من كل نفعيتها وانحرافها وعنصريتها.

لاحظ ماذا يقول ناحوم غولدمان رئيس المؤتمر الصهيوني اليهودي الأسبق، وأحد أبرز مفكري الصهيونية الحديثة: (لا أحد يستطيع أن ينكر دور اليهود الرائع في تاريخ العالم، لقد بلغ الإسهام اليهودي ذروته وذاع صيته عندما أخرج للنور ثلاثة عباقرة صاغوا وكونوا أكثر من كل الآخرين حضارتنا الحالية، كارل ماركس، وسيغموند فرويد، وألبير أنشتاين، ومن النادر أن نجد شعباً من الشعوب في أبعاد مماثلة تمكن من إغناء الفكر البشري في كافة المجالات الدينية الاجتماعية الأخلاقية الفلسفية والفنية كما فعل الشعب اليهودي، ومن أجل أن نتيح له الاستمرار في تأدية إسهامه بالحضارة يجب أن نقر له بلا شك ليس فقط ادعاء شرعياً بهذا الشعب، وإنما أيضاً إلزاماً لا يقل شرعية من الوجهة الثقافية العالمية، والخير البشري).

ويقول متابعاً: (ليس هناك من واجب ملح من الوجهة الثقافية والروحية أكثر من إفهام هذا الجيل السمة الفريدة من نوعها لحياة اليهود في بلاد الشتات سواء من جوانبها الإيجابية أم السلبية، إذ لا شعب على الإطلاق يسمح لنفسه بإنكار وإهمال حقب طويلة من تاريخه استمرت لأجيال عديدة) ناحوم غولدمان، إسرائيل إلى أين، ص (12) ص (24).

وعلى ضوء ذلك تتصرف قيادات الحركة الصهيونية بحيث لا يمكن أن تكون العولمة إلا أسلوباً صهيونياً لتسيّد اليهود اقتصادياً، وثقافياً، وعقدياً.

وحسب غولدمان فإن الدين اليهودي هو الذي أفرز الدين المسيحي وكذلك الإسلامي، ويعود الفضل إليه في نشر عقيدة التوحيد كما يزعم، ويتساءل غولدمان: هل نحن اكتفينا بإقامة دولة مشابهة لكافة الدول الأخرى في العالم؟ أم أننا نطمح إلى أن نعطيها سمة فريدة وشاذة، بمعنى أن تكون مماثلة لما هو عليه تاريخنا).

ومرة أخرى نرى أن مهمة الصهيونية فيما يسمى العولمة تدمير تواريخ الأمم إلا التاريخ اليهودي، وتدمير كل ما تمتلكه الشعوب من تراث، وتسييد التراث اليهودي القائم على مقولة شعب الله المختار، وتدمير كافة العقائد والديانات، وسيادة دين الحاخامات اليهود.

في طبيعة الفكرة الصهيونية مسألة المركز الذي يعني أن اليهودي هو محور الكون بشرياً، وأن الكيان الصهيوني محور الكون قوة نسبة إلى حجمه الصغير وفعله الكبير، وفي ظل العولمة المطروحة فإن ظواهر الأمور تقول: بأنها تقرب العالم من الوحدة الاقتصادية، وتقربه من بناء ثقافة مشتركة للجميع، وتطلعات مستقبلية صالحة لكل مواطني العالم، إنها بالمحصلة شعارات محرفة قليلاً عن شعارات الحكومة الماسونية العالمية، وشعارات دهاة صهيون بينما مضمونها واحد، وكذلك أهدافها وغاياتها، ألم تطرح الماسونية شعارات الحرية والإخاء والمحبة؟ ألم تطرح بروتوكولات دهاة صهيون مفهوم الحكومة العالمية؟ ألم يقل جابوتنسكي يوماً بأنك أيها اليهودي أنت الحقيقة وحدك وما عداك باطل؟ تلك هي حال العولمة الصهيونية على نطاق العالم، فما هو الحال بالنسبة للكيان الصهيوني؟ لا شك أن هذا الكيان لا ينفصل عن المنظومة الصهيونية الكلية، ولكنّ للتجمع الصهيوني في الكيان شأناً آخر وحظاً آخر من العولمة.

مما لا ريب فيه أن النسيج اليهودي داخل الكيان هو من خيوط مختلفة الألوان مختلفة الطبيعة، فمن هو علماني يعيش في أعماقه ما هو ديني، ومن هو ديني تنحط به العلاقات الاجتماعية ليصبح لا أخلاقياً ولا علمانياً، ومع كل هذا وذاك يحاول

القادة الدينيون تثبيت أسطورة تفوق الجنس اليهودي إذا صح التعبير، وفي الوقت نفسه يثبتون مواقعهم القيادية في الكيان ليصبح أو يظل الطابع التوراتي مسيطراً على مجمل الحياة اليهودية السياسية وخاصة في جانبها الصدامي التوتري، وطبيعة بقاء هذا الكيان ترتبط كلية بخلق حالة مستمدة من التوتر العصابي، فهو لا يستطيع أن يحيا دون عنف، وبمعنى آخر فإنه لا يعرف من مفهوم السلام شيئاً، فالسلام نقيض الحياة بالنسبة للشخصية الصهيونية، فكيف يوفق بين مفهوم ما يسمى العولمة وبين طبيعته، ألم يقولوا: إن العولمة خلق ثقافة مشتركة وعالم إنساني جديد، إن أكثر المنظرين الصهاينة يرون أن اليهود يمتلكون حق سيادة العالم لأنهم أصحاب أقدم تراث ديني على الإطلاق حسب زعمهم.

فالعولمة بنظر اليهود داخل الكيان لا تعني أكثر من مطية يركبونها ويقودونها من أجل مصلحتهم ووجودهم الاستعماري، وتفوقهم وقوتهم المالية والاقتصادية والهيمنة على كل قنوات التطور البشري.

أما العلاقات القائمة بين أفراد هذا التجمع وكذلك أهدافهم وغاياتهم فهي في حل من التفكير فيما يسمى العولمة ما دام أكبر الأدمغة اليهودية العالمية يشتغل نيابة عنه وعن كل يهودي يؤمن بسيادة شعب الله المختار.

كيف يفكر أفراد هذا التجمع الصهيوني بالعولمة إذا كان فعلاً يفكر بها؟ أو إذا سمح لنفسه أن يتجاوز العقول الكبرى التي تسيره وتغذيه وتحييه وتنظر له وتصدر للعالم الآخر معالم العولمة وظاهرها وباطنها.

الحق يقال إن الشخصية اليهودية التي لعبت دوماً دور المخرب في المجتمعات العالمية لا تنفك تعمل في سبيل التخريب الدائم في العقائد والأديان والفلسفات والأفكار والثقافات والإعلام، وهذا التخريب يعني في العولمة تسيّب الإنسان العربي وتسيد اليهودي مهما حاولنا خداع أنفسنا وتبسيط صراعنا.

يقول تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: 75].

ويقول تعالى: ﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [المائدة: 67].

سادساً: العولمة: نموذج تربوي أمريكي لتعليم المسلمين دينهم!!:

أمريكا تشكل لجنة من كبار الباحثين التربويين لدراسة كيفية صنع مناهج التعليم الإسلامي وتصديرها إلى الدول العربية والإسلامية، لأن هذه الدول تفتقر كثيراً لمناهج التعليم الإسلامي، ولأنها أيضاً فقيرة بالباحثين التربويين المتخصصين بوضع المناهج التربوية والتعليمية لأبناء شعوبهم.

هذا آخر ما تفكر به العولمة على الطريقة الأمريكية، وهذا آخر ما نشر من صرعات الخيال الأمريكي بعد الحادي عشر من أيلول سبتمبر، وهذا أحد الأنماط الفكرية للتصور الأمريكي للهيمنة على العالم العربي والإسلامي روحياً وثقافياً، والأمر الذي يثير الاستهجان والاستغراب هو أن زعماء السياسة الأمريكية يقدمون هذا النمط من التعليم الإسلامي وكأنهم يحاولون تصديق أنفسهم بأنهم قادرون على إلغاء الإسلام، واستبداله بإسلام على الطريقة الأمريكية.

ومناهج تعليم المسلمين على الطريقة العولمية الأمريكية تضع في أوليات تخطيطها حذف كافة آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الجهاد والقتال، وكذلك حذف كل الآيات التي تذم وتفضح بني إسرائيل واليهود، وبمعنى آخر صنع قرآن أمريكي والعياذ بالله.

ومن الطبيعي أن يوصف هذا التفكير بالسذاجة والسخف قبل أن يوصف بأنه حاقد شرير، وصهيوني مارق.

وسذاجته ليست أقل انحطاطاً من حقده، لكن الذي يدفع هذا التفكير الأمريكي لمثل هذا التوجه ليس إلا استخفافاً بالوضع العربي المتردي، وما جعل الأمريكيين يفكرون بذلك هو هذا الوضع المزري للشخصية العربية الرسمية بأغلبيتها، فهذه العربية الرسمية وُضعت تحت المحك منذ زمن، وكلما ازداد حكها تبين أنها من معدن غير كريم، وجهه مثل جوهره.

فالأزمات التي مرت في المنطقة أثبتت عجز النظام العربي القائم، بل أثبتت تقبله لكل ما يفرض عليه بدءاً من رفع أو خفض الإنتاج البترولي وأسعاره، وانتهاءً

بفرض النمط الثقافي والسلوكي الأمريكي، وما بينهما الكثير من الأوامر الأمريكية، التي تفرض دون أي احتجاج أو اعتراض، ولكن إذا كان التصور الأمريكي قد تجاوز الخطوط الحمر بالتعاطي مع العالم العربي فإنه لاشك يزرع بذور الصراع الديني والقومي، بل يؤسس لمواجهة شمولية لن تكون سهلة بالمستقبل.

وحتى إذا استطاعت الولايات المتحدة أن تفرض تصورها التربوي الإسلامي على النظام الرسمي العربي، فإن الشعب العربي والمسلمين ما يزالون وسيبقون متمسكين بهويتهم أولاً، ومناهجهم التربوية ثانياً، وما يقدم للجماهير من فتات الثقافة الإسلامية كان وما يزال أمراً هامشياً جداً في حياة المواطنين، والذي يعوّل عليه تلك الثقافة الإسلامية وعلوم الإسلام التي تُنهل من العلماء والمعاهد والجامعات الإسلامية العريقة والخاصة في أكثر الأقطار العربية والإسلامية، وهذا النمط الأمريكي مرفوض بشكل بدهي حتى لو فرض في المدارس الرسمية وبعض الجامعات.

ولنا أن نضرب أكثر من مثال على ذلك، ففي تركيا يشكل المسلمون 99٪ من عدد السكان والنظام القائم في هذا البلد هو نظام معاد للدين الإسلامي وليس علمانياً فحسب، ونحن نعرف أن مجمل الدول الغربية ليست دولاً دينية وهي تفصل بين الدين والدولة، ولكنها ليست معادية للكنيسة، وليست قاهرة للمتدينين المسيحيين، إنما في تركيا يعيش المسلمون حالة غريبة من الرعب والحرب على عقيدتهم، وعلى الرغم من ذلك فإن المساجد والحركات الإسلامية الفكرية والصوفية والجمعيات الإصلاحية والمدنية ما تزال هي المغذي الأقوى لروح الإسلام وتعاليمه بين الشعب التركي، ومن الصعب جداً اقتلاع الإسلام من قلوب أتباعه لأنه عقيدة تخص جوهر الإنسان قبل شكله وسلوكه، وهاهي تركيا اليوم تعيش أزمة للهوية، فلا هي قادرة على التخلي عن الشخصية الإسلامية، ولا هي قادرة على ابتداع هوية أوروبية، ويرى المفكرون الأتراك أن تركيا اليوم هي وليدة العثمانية بكل الأشكال، والعثمانية ما كان لها أن تتمدد وتتسع وتفرض هيمنتها على الشرق العربي وبعض أجزاء أوروبا لولا تبنيها الإسلام، وإذا فتشت عن ثقافة تركية خاصة ومنفصلة عن الإسلام لما وجدت شيئاً لا حضارة ولا ثقافة ولا هوية، إنما جذوراً بدوية متنقلة

بالسيوف والسهام، وقس على ذلك أندونيسيا وباكستان وغيرهما من الدول التي لا تستطيع حكوماتها أن تنفصل عن الهوية الإسلامية حتى لو كانت في موقف معادٍ ومستهتر بالقيم الإسلامية الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

فإذا كان التفكير الأمريكي ينصب على ابتداع إسلام أمريكي، فهذا يعني أنه سيلغي ألفاً وأربعمائة سنة من الإسلام، من الفقه الديني والتفسير القرآني، من السيرة النبوية والأفكار الإسلامية، ومن اجتهادات مئات العلماء والفلاسفة المسلمين الذي رسخوا في العقول والقلوب مبادئ أساسية للحياة والناس كافة.

إنه يعني انسلاخ الأمة عن جذورها، عن تراثها، عن عقيدتها، عن تاريخها لتعيش الحاضر الأمريكي فقط، الذي يريد من أفراد هذه الأمة أن يكونوا مجترين للثقافة الأمريكية، وإذا رحنا نبش في التفاصيل فإن ما يستوقفنا ويدهشنا في آن معاً هو أن التوجه الأمريكي يريد أن يقلب المخزون النفسي لدى الإنسان العربي المسلم، يريد أن يحول كره المحتل إلى حب له، فإذا كان العدو الصهيوني التلمودي الدموي يمثل في المخزون النفسي العربي والمسلم أبشع أنواع الشر، فعلى النمط الأمريكي التربوي يصبح هذا العدو صديقاً محبباً مقبولاً، حتى لو ارتكب في حقنا الجرائم الإنسانية، ويجب أن نعذره ونعذره حتى لو حوّل فلسطين كلها إلى مستعمرة يهودية خالصة وطرد كل فلسطيني يقول إن هويته فلسطينية.

فهل من العقل أن يحول التصور التربوي الأمريكي الكره إلى محبة؟ وهل هناك قناعة بهذا التصور؟

وعلى مستوى آخر فإن الإنسان العربي والمسلم الذي تعود العفة والحفاظ على الأسرة وذم الرذائل والسلوك الشائن يراد له في التصور الأمريكي أن يذيب جميع القيود الأخلاقية، فالأسرة يجب أن تكون على النمط الغربي، وهذا النمط يقر بالأسر غير الشرعية، ويصبح الجنس مثلاً كما هو في المفهوم الغربي حاجة عضوية ليس لها علاقة بالمحرمات الدينية، والقيم الأخلاقية، والأعراف الاجتماعية.

فإذا كان التصور الأمريكي التربوي يريد للمسلمين أن يبدلوا المشاعر ويقلبوا السلوك حتى يصبحوا عصريين مقبولين فإنه بذلك يؤكد آلية تصوره القاضية بحذف

جميع الأسس الدينية والنفسية والاجتماعية التي قدمها القرآن الكريم، وبينتها سنة النبي محمد ـ ﷺ ـ وإذا كنا مبالغين في ذلك حسب زعم بعضهم أو متهمين بأننا نتجنى على التصور الأمريكي فلنا الحق أن نتساءل أولاً بأول، ما الذي يحويه المفهوم التربوي الأمريكي الذي يصنع للمسلمين؟ هل يحوي قيم الحرية والنضال ضد المحتل الصهيوني وعنفه الدموي؟

أم أنه يحوي طلب الخنوع والذل لهذا الاحتلال وقبوله بكل ما أوتي من صلف ووحشية وعنصرية؟

هل يحوي قيم الجهاد والنضال ودفع الظلم، أم أنه يدفع باتجاه إلغاء هذا المفهوم الإسلامي الخاص الذي هو فرض على المظلومين المقهورين والمحتلة أرضهم والمهددة بلادهم؟

إن قيم الدفاع عن الأرض المحتلة وعن المظلومين أينما كانوا هي قيم الإسلام الأساسية، والمطلوب أميركياً أن تحذف قيم الإسلام لأنها قيم الدفاع عن النفس والعرض والأرض، وإذا كانوا يحاولون تزييف توجهاتهم فإن لدينا آلاف الأسباب التي تشير إلى اعوجاج تفكيرهم وانحراف أهدافهم، إنهم يقولون إن النمط الذي نريده يعلم المسلمين التسامح والمحبة، وكأن المسلمين لا يعرفون التسامح والمحبة، وكأنهم هم الذين يعرفون وتسامحهم يتناسى هيروشيما وفيتنام وفلسطين وأفغانستان وغيرها.

إنه لمن المدهش حقاً أن نسمع الأمريكان وهم يصرحون بأنهم يتصورون نمطاً تربوياً خاصاً يعلم التسامح والمحبة، وهم يدركون تماماً أن الإسلام هو دين التسامح كما هو دين العزة والقوة والحرية والكرامة، وهو دين المحبة كما هو دين ردّ العدوان ودفع الظالمين وقهر الشر أينما كان، لكنهم يريدون إسلاماً بلا قوة، بلا حرية بلا عزة أو كرامة، ويريدون الإسلام قابلاً للعدوان، راضياً بالظلم والشر، خانعاً للاستلاب والنهب.

وليس أدل على ذلك من موقف أمريكا والغرب برمته مما يجري على أرض فلسطين، فالمسلمون الذي يجاهدون لدفع الظلم والاستلاب والعدوان والاحتلال

هم إرهابيون يجب محاربتهم، بينما الصهاينة المحتلون المتوحشون القاتلون يدافعون عن أنفسهم ولهم الحق بنسف بيوت الفقراء، وقلع أشجار الزيتون، ونسف المدارس والمساجد، فحسب نمطهم التربوي يريدون شعب فلسطين بلا هوية بلا ملامح يريدونه منقطع الجذور والصلات بأمته العربية والإسلامية، يريدون منه أن يلغي ارتباطه الديني بالقدس والمسجد الأقصى.

ويجدر بنا أن نتوقف هنا لنذكر أن مناهج التربية الدينية في كافة المدارس والمعاهد والجامعات الخاصة الموجودة في الولايات المتحدة تستند في تربيتها على بعد ديني بروتستانتي متطرف وفي ميتشغن وشيكاغو أمثلة كثيرة على ذلك، وهذه المدارس والمعاهد هي التي تخرج الجماعات الإرهابية العنصرية كجماعة كوكلوكس كلان ومجموعات متشغن المسلحة، فهل فكرت الولايات المتحدة وإدارتها بتغيير مناهج التربية في تلك المدارس والمعاهد؟

ونشير هنا إلى أن تياراً أصولياً عنصرياً في الولايات المتحدة أخذ بالاتساع والانتشار بعد الذي حدث في أيلول سبتمبر الماضي، وبات من الواضح أن التغذية التربوية لهذا التيار لا تعلم التسامح ولا المحبة بل تعلم التفرقة العنصرية والدينية، فهو ضد الزنوج أولاً بسبب اللون والعرق، وهو ضد المسلمين بسبب الدين، وهو ضد المسيحية الأرثوذكسية بسبب هذا المذهب.

غير أن الولايات المتحدة اليوم هي أكثر تقرباً من هذا التيار لأنه يغذي طموحاتها ويقاتل من أجل استعلائها واستفرادها بالقوة والهيمنة، فهي تريد لهذا النموذج أن ينمو وتتصاعد أصواته ليصبح الوحيد الذي يحكم التصورات الأمريكية تجاه الآخرين من الشعوب خاصة الشعب العربي والشعوب الإسلامية.

وإضافة لهذا التذكر فإننا نفتح أمام الأمريكان ملفات التربية الصهيونية الدينية وغير الدينية، فمن يصدق أن التربية الصهيونية تعلم الصبيان والفتيان التسامح والمحبة والمساواة؟

وكم مرة خرجت البرامج التلفزيونية تصور أطفال الصهاينة وفتيانهم وهم ينشدون الأناشيد العنصرية المقززة، وخاصة عندما يقومون برحلات ترفيهية أو تعليمية بالحافلات.

ولعل أمريكا تعلم حق العلم أن في كل مؤسسة تعليمية صهيونية حاخام يلقن الطلبة نصوصاً منتقاة من التوراة والتلمود تحث الطلاب على كره العرب والحقد عليهم، وتدسّ في أفكارهم القتل والطرد والتعذيب لمن خالفهم أو عاداهم، فهل فكرت الإدارة الأمريكية بتشكيل طاقم من الباحثين التربويين يعلمون الصهاينة التسامح والمحبة والابتعاد عن الحس العنصري؟

أم أن سلّم القيم حسب الوجهة الأمريكية يقلب المفاهيم رأساً على عقب ليصبح الشر خيراً، والعنصرية مساواة، والحقد محبة، والتسامح حقداً؟

أم أن الصهاينة معفيون من كل الموازين الأمريكية والمقاييس الغربية؟

لكن السؤال الذي يطرح نفسه مرة أخرى هو لماذا تفكر الإدارة الأمريكية بوضع مناهج تربوية تعلم المسلمين التسامح والصفح والمحبة؟

بينما لا تفكر بوضع مناهج تربوية تعلم العنصريين البيض في أمريكا والعنصريين الصهاينة في الكيان الصهيوني والتجمعات اليهودية في العالم؟

نعتقد أن الحقد الأمريكي على الإسلام هو الذي يدفعهم لمثل هذه التصورات، ونحن ندرك كعرب ومسلمين أن السياسة الأمريكية لن تعمل لصالح العرب والمسلمين على حساب الصهاينة، وأن التفكير الأمريكي لن يعمل لصالح الإسلام والمسلمين، إنما يريد تدميرهم من خلال سلبهم هويتهم الحضارية الإنسانية، ومن خلال فصلهم نفسياً وروحياً عن قرآنهم وسيرة نبيهم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن تراثهم وتاريخهم الإسلامي المجيد.

ونعتقد أن الأمة على الرغم من كل مظاهر ضعفها وتكاسلها إلا أنها ليست بحاجة لمن يعلمها ما هو الإسلام وسماحة الإسلام، فالقرآن ما يزال في قلوب أبناء الأمة وعقولهم كما هو موجود في بيوتهم، وملايين الدروس ما تزال تتفتق كلما رجع أبناء الأمة إلى تراثهم وسيرة عظمائهم.

واستكمالاً لتذكير أمريكا والغرب عموماً فإننا نورد هنا بعض ما جاء في بروتوكولات دهاة صهيون ليعرفوا أن العولمة التي تدفعهم للتفكير بوضع مناهج تربوية تعلم المسلمين دينهم هي نفسها التي وضعت الأسس التربوية التدميرية التي يقصد من ورائها تدمير كافة الشعوب والأمم.

جاء في البروتوكول السادس عشر ما نصه:

رغبة في تدمير أي نوع من المشروعات الجمعية غير مشروعنا سنبيد العمل الجمعي في مرحلته التمهيدية، أي: أننا سنغيّر الجامعات ونعيد إنشاءها حسب خططنا الخاصة، وسيكون رؤساء الجامعات وأساتذتها معدين إعداداً خاصاً، وسيلته برنامج عمل سري متقن سيُهذبون ويُشكلون بحسبه، ولن يستطيعوا الانحراف عنه بغير عقاب، وسيُرشّحون بعناية بالغة، ويكونون معتمدين كل الاعتماد على الحكومة Government وسنحذف من فهرسنا syllabus كل تعاليم القانون المدني مثله في ذلك مثل أي موضوع سياسي آخر، ولن يختار لتعلم هذه العلوم إلا رجال قليل من بين المدربين لمواهبهم الممتازة، ولن يسمح للجامعات أن تخرج للعالم فتياناً خضر الشباب ذوي أفكار عن الإصلاحات الدستورية الجديدة كأنما هذه الإصلاحات مهازل Comedies أو مآس Tragedeis ولن يسمح للجامعات أيضاً أن تخرج فتياناً ذوي اهتمام من أنفسهم بالمسائل السياسية التي لا يستطيع ولو آباؤهم أن يفهموها.

إن المعرفة الخاطئة للسياسة بين أكداس الناس هي منبع الأفكار الطوباوية، وهي التي تجعلهم رعايا فاسدين، وهذا ما تستطيعون أن تروه بأنفسكم في النظام التربوي للأميين (غير اليهود) وعلينا أن نقدم كل هذه المبادئ في نظامهم التربوي، كي نتمكن من تحطيم بنيانهم الاجتماعي بنجاح كما قد فعلنا، وحين نستحوذ على السلطة سنبعد من برامج التربية كل المواد التي يمكن أن تمسح Upset عقول الشباب، وسنصنع منهم أطفالاً طيّعين يحبون حاكمهم، ويتبينون في شخصه الدعامة الرئيسية للسلام والمصلحة العامة، وسنتقدم بدراسة مشكلات المستقبل بدلاً من الكلاسيكيات (التراث) وبدراسة التاريخ القديم الذي يشتمل على (أمثلة) سيئة أكثر من اشتماله على أمثلة حسنة، وسنطمس في ذاكرة الإنسان العصور الماضية التي قد

تكون شؤماً علينا، ولا نترك إلا الحقائق التي ستظهر أخطاء الحكومات في ألوان قاتمة فاضحة، وتكون في مقدمة برنامجنا التربوي الموضوعات التي تُعنى بمشكلات الحياة العملية والتنظيم الاجتماعي، وتصرفات كل إنسان مع غيره، وإننا بالتربية النظامية سنراقب ما قد بقي من ذلك الاستقلال الفكري الذي نستغله استغلالاً تاماً لغايتنا الخاصة منذ زمان مضى[1].

سابعاً: العولمة إنجاز الحكومة الماسونية العالمية:

ربما نقع مرة بعد الأخرى في مطب الحديث عن الماسونية العالمية ونُتهم بأننا نتحدث عن مجهول نزيّن بخيالنا أعماله وأخطاره ورموزه وعلاقاته بالصهيونية العالمية ومفرزاتها المشبوهة.

هذه المرة ربما ترتسم علامة الاستغراب على الكثيرين لأن الموضوع ليس عن الماسونية فحسب إنما عن تقاطعات تصل حد التطابق بين أسس العولمة وأسس الحكومة الماسونية العالمية.

فمن أين نخترع هذه العناوين؟ ومن أين نأتي بهذه التطابقات؟ هل من إحساس داخلي كاره؟ أم من موقف معاد لكل من له علاقة بالمفرزات الرأسمالية الصهيونية ولكل ما تطرحه الإمبريالية الاقتصادية؟

نعتقد بداية أن هناك اتفاقاً عاماً على أن الحركة الصهيونية ومفرزاتها لها من النفوذ المالي والاقتصادي ما يجعلها دوماً حركة ضاغطة في كثير من أقطار الدنيا، وحينما نطرح موقف الصهيونية العالمية من العولمة نكتشف وباختصار شديد أن العولمة تعني تسيّد القوة الصهيونية وهيمنة مالها واقتصادها وأساليبها الخطرة في العلاقات مع الأمم والشعوب.

فالعولمة تعني بالمحصلة سيادة الأقوى عالمياً، وتعني ذوبان الدولة الوطنية والقومية في إطار أوسع يكون الحاكم فيه رأس المال ومفكرو الرأسمالية العالمية.

---

(1) بروتوكولات صهيون ـ محمد خليفة التونسي ص 184 الطبعة الرابعة ـ دار الكتاب العربي بيروت دون تاريخ.

يسخر هذه الفكرة عندما تكون ضرورية فيتخذها طعماً لجذب العامة إلى صفه إذا كان قد قرر أن ينتزع سلطة منافس له.

ثم تقول: إن السياسة لا تتفق مع الأخلاق في شيء، والحاكم المقيّد بالأخلاق ليس بسياسي بارع.

أما مفهوم الماسونية للحق فإنه يرتبط بالقوة، وكلمة الحق فكرة مجردة قائمة على غير أساس، فهي كلمة لا تدل على أكثر من (أعطني ما أريد لتمكنني من أن أبرهن لك بهذا على أني أقوى منك).

إن الغاية تبرر الوسيلة، وعلينا ونحن نضع خططنا ألا نلتفت إلى ما هو خير وأخلاقي بقدر ما نلتفت إلى ما هو ضروري ومفيد.

وإذا كانت العولمة تسعى لتجعل الحكومات الوطنية والقومية مهمشة خاضعة لنفوذ قوى كبرى فإن الماسونية العالمية قد خططت من قبل لذلك، فهي تقول: إن مبادئنا في مثل قوة وسائلنا التي نعدها لتنفيذها، وسوف ننتصر ونستعبد الحكومات جميعاً تحت حكومتنا العليا لا بهذه الوسائل فحسب بل بصرامة عقائدنا أيضاً.

وعندما نبحث في مخاطر العولمة على الهوية الثقافية فإننا نرى أن العولمة هي مزيد من تبعية الأطراف للمركز، وتجميع قوى المركز، وتفتيت لقوى الأطراف.

وقد جاء في البروتوكول الثالث: أستطيع اليوم أن أؤكد لكم أننا على مدى خطوات قليلة من هدفنا، ولم تبق إلاّ مسافة قصيرة كي تتم الأفعى الرمزية شعار شعبنا ـ دورتها ـ وحينما تغلق هذه الدائرة ستكون كل دول أوروبا محصورة فيها بأغلاق لا تكسر.

وجاء في البروتوكول الخامس: بكل هذه الوسائل سنضغط على المسيحيين حتى يضطروا إلى أن يطلبوا منا أن نحكمهم دولياً، وعندما نصل إلى هذا المقام سنستطيع مباشرة أن نستنزف كل قوى الحكم في جميع أنحاء العالم، وأن نشكل حكومة عالمية عليا.

وطبيعة العولمة تنتج تعميم قيم الاستهلاك والمتعة بالحياة ولا تنظر الأمم إلى مشاريع قومية وخطط استراتيجية بعيدة المدى فذلك من اختصاص المركز، وما على

الأطراف إلا ركوب القطار الذي يحدد المركز اتجاهه وسرعته ونوع حمولته وقائده ووقوده ومحطاته التي يتوقف فيها، أو التي يتجاوزها، فإذا ما اتسعت المسافة بين الأغنياء والفقراء انتشرت الجرائم المنظمة والحماية الشخصية واسترداد الحقوق أو نهبها باليد، وتطبيق الشريعة بالعنف والإكراه والإجبار ما دام العنف أصبح وسيلة لتحقيق المطالب.

ويزداد الغلاء والترف، وتضيع القيم العامة، وينتهي ما يربط الناس، ويزداد التفكك الأسري والتشرذم الاجتماعي.

بينما تقول الماسونية: إن صيحتنا الحرية والمواساة والإخاء قد جلبت إلى صفوفنا فرقاً كاملة من زوايا العالم الأربع عن طريق وكلائنا المغفلين، وقد حملت هذه الفرق ألويتنا في نشوة بينما كانت هذه الكلمات مثل الديدان تلتهم سعادة الآخرين، وتحطم سلامهم واستقرارهم ووحدتهم مدمرة لذلك أسس الدول.

وتقول كما جاء في البروتوكول الأول: إن العنف الحقود وحده هو العامل الرئيسي من قوة العدالة فيجب أن نتمسك بخطة العنف والخديعة لا من أجل المصلحة فحسب، بل من أجل الواجب والنصر أيضاً، ويقول: نحن نحكم الناس باستغلال مشاعر الحسد والبغضاء التي يؤججها الضيق والفقر، وهذه المشاعر هي وسيلتنا التي نكتسح بها كل من يصدوننا عن سبيلنا، إن البغضاء التي ستصير أشر مضاء حيث تكون الأزمات الاقتصادية مستحكمة لأنها ستوقف الأسواق والإنتاج، وسنخلق أزمة اقتصادية عالمية بكل الوسائل الممكنة التي في قبضتنا، إن كلمة الحرية تزج بالمجتمع في نزاع مع كل القوى حتى قوة الطبيعة وقوة الله، وذلك هو السبب في أنه يجب علينا حين نستحوذ على السلطة، أن نمحق كلمة الحرية من معجم الإنسانية باعتبار أنها رمز القوة الوحشية الذي يمسخ الشعب حيوانات متعطشة إلى الدماء، ولكن يجب أن نركز في عقولنا أن هذه الحيوانات تستغرق في النوم حينما تشبع، وقد يستبعد بعض القارئين لتطور المجتمعات الإنسانية الصلة بين العولمة والتخطيط الصهيوني الماسوني العالمي، لأن العولمة باعتقادهم جاءت نتيجة طبيعية لتطور وسائل الاتصال والتقنيات العالية في تقارب الشعوب، ولكنهم يرون ذلك من خلال اتجاه

واحد، أما الاتجاه الآخر للعولمة فهو الاتجاه الذي تبنيه الصهيونية العالمية ليسير باتجاه آخر يحقق فقط مصالح محددة للرأسمالية الصهيونية والهيمنة على العالم، وعلى الرغم من الفهم المختلف للعولمة بين المدافعين عنها، وبين من خططوا لها، إلا أن مراجعة دقيقة واعية لمسيرة الحركة الصهيونية الماسونية العالمية تعيدنا إلى التيقن من أن العولمة في أهدافها لا تفترق عن الماسونية العالمية في أهدافها وآلياتها.

ماذا تريد الصهيونية الماسونية العالمية؟

وماذا تريد العولمة؟

يجب أن يكون شعارنا (كل وسائل العنف والخديعة) هكذا ترى نظرية الصهيونية الماسونية آلية العمل تجاه العالم، ويعترف البروتوكول الأول بأن الصهيونية عملت في السابق على نشر كل أساليب الفساد في المجتمعات الغربية وغيرها، لقد انقلب شبان المجتمعات إلى المجون المبكر الذي أغراهم به وكلاؤنا ومعلّمونا وخدمنا وقهرماناتنا (مربيات البيوت) في البيوتات الغنية، وكتبتُنا ومن إليهم ونساؤنا في أماكن لهوهم، وإليهن أضيف من يسمين نساء المجتمع والراغبات من زملائهن في الفساد والترف.

ويستنتج الدكتور حسن حنفي أن مخاطر العولمة تتجلى في ازدياد الغلاء والترف، وازدهار الجنس كمتعة رخيصة لمن يملك المال، ولمن يبيع الرقيق الأبيض، وتضييع القيم العامة.

والواقع أن الصهيونية الماسونية سعت منذ أمد بعيد وتسعى لكي تجعل المركز العولمي قوة المال الصهيونية بحيث يلجأ جميع أفراد الشعوب إلى هذا المركز، بينما تنفذ بعض الأدوات الغربية مطامح هذا المركز تحت شعارات النظام العالمي الجديد، والعالم قرية واحدة، وثورة المعلومات، وهناك حيثُ تنشر أساطير الثقافة العالمية والوعي الكوني، والكوكبة، والعولمة، ويتوحد العالم كله تحت سيطرة المركز.

إن أهم ما تسعى إليه الصهيونية الماسونية: هو خلق الصراع والمضاربة في عالم الأعمال، وهما اللذان سيخلقان مجتمعاً أنانياً غليظ القلب منحل الأخلاق، هذا

المجتمع سيصير منحلاً كل الانحلال، ومبغضاً أيضاً من الدين والسياسة، وستكون شهوة الذهب رائده الوحيد، وسيدافع هذا المجتمع من أجل الذهب متخذاً اللذّات المادية مذهباً أصيلاً.

ثامنا: العولمة والدفع للانتحار البشري

الطوائف الخلاصية والحلم بنهاية العالم:

وبعيداً عن الصراعات السياسية والإقليمية، وبعيداً عن انعكاسات المواقف المنحازة لصالح الشر والباطل، وعلى هامش مخيف مرعب تخرج في العالم الجديد حركات وطوائف تدعو لاستعمال دمار العالم باعتباره الخلاص من مآسي الإنسانية والشر الذي نشره دعاة العولمة والتفرد وسيادة العرق الواحد على أعراق بني البشر.

وعلى الرغم من هول الدمار الذي حدث في أوكلاهوما ونيويورك، وعلى الرغم من كثرة القتلى والمفقودين راحت تنتشر أو تتسرب مقولات تشير إلى سعادة حلت على عقول أعضاء تلك الحركات والطوائف مستبشرة باقتراب نهاية العالم والخلاص البشري.

بالطبع فإن السعادة التي تغمر هؤلاء حين يرون بني البشرية يُقتلون بالآلاف في نيويورك أو طوكيو أو في أي مكان آخر في العالم ليس إلا سعادة ساديّة منحرفة لا يقبلها ذوق إنساني ولا إحساس بشري.

وبغض النظر عن موقف كل منا مما حدث فإن المسألة لا تتوقف عند حدود، فهي أكبر بكثير وأعمق لأنها ليست موقفاً انفعالياً عاطفياً، إنما هي موقف فلسفي له أفكاره ومعتقداته وطقوسه، وطبيعي أن تشهد الإنسانية بعض الأفكار والفلسفات التي تراها منحرفة شاذة خاصة عندما نقرأ غايتها الكبرى رؤية البشرية تنهار وتُدمر وتفني الكرة الأرضية بمن فيها.

ما هي الطوائف الخلاصية؟

لا شك أن الكثيرين منا سمعوا ببعض الحركات التي ظهرت في أمريكا بشكل خاص، والعالم بشكل عام، ولا شك أن بعضنا قرأ عنها وتلبسه الاندهاش

والعجب، ولكننا أو لنقل لكنّ بعضنا قرأ ونسي أي: كما ينسى أي منا أحداث العالم المتسارعة.

فظاهرة الحركات الخلاصية ليست ظاهرة عادية لأنها شكلت في أفكارها وأفعالها مساراً آخر للكون والإنسان يرى في النهاية أن العالم يجب أن ينتهي، وأن الحياة على الأرض ليست مبررة، لقد وصل الإنسان إلى التخمة فلا حاجة للبقاء أو للحياة.

في اليابان ظهرت حركة (الحقيقة المطلقة) كنموذج للحركات الخلاصية في الطرف الآسيوي من العالم، وفي أمريكا برزت حركة بوابة السماء، والطائفة الداودية كنموذجين لمئات الطوائف والحركات الغربية في الولايات المتحدة، وفي أكثر بلاد الدنيا كانت تظهر بعض الحركات وتنطفئ لكنها تبذر بذورها التي تنمو بعد وقت قصير أو طويل من الزمن.

وفي عام (1995) وفي شهر آذار تحديداً سُرب غاز قاتل في مترو طوكيو، فقُتل الكثيرون خنقاً وتسمماً، وبعد أن حوصر الخطر قبل انتشاره على مساحة واسعة ألقت أجهزة الأمن اليابانية القبض على العديد من أعضاء طائفة (الحقيقة المطلقة "أوموم") واكتشفت الشرطة اليابانية كمية من الغاز المخزن يكفي لقتل ما بين أربعة وعشرة ملايين إنسان.

وفي شهر نيسان من عام (1995) وقع انفجار هائل في أكبر المباني الفدرالية الأمريكية في أوكلاهوما فقتل العشرات، وجرح المئات وشوّه الكثيرين، وراحت التحقيقات تتكهن وتتهم إلى أن تم القبض على الشخص الذي كان وراء الانفجار مباشرة وتبين أنه أمريكي ينتمي إلى الطائفة الداودية الأمريكية.

في ذات الوقت كانت تتجه أصابع الاتهام لأتباع الطائفة الداودية المتكاثرين في مدينة واكو في ولاية تكساس، هذه الطائفة التي أسسها أحد أساتذة الجامعات، استمدت أفكارها من شروحات توراتية، وادعى صاحبها أنه مسيح آخر الزمان، وضمت الطائفة أعضاء ينتمون لعدة أجناس، وأنشأت معبداً خاصاً بها في ضواحي نيويورك، وقالت سلطات أمريكية: إنها هاجمت المعبد الذي أغلقت أبوابه بإحكام

ثم تسرب غاز من نوافذه، وأخيراً دخل رجال الأمن المبنى فوجدوا أكثر من مائة جثة ملقاة وهي منتحرة حرقاً.

لكن المصادر قالت: إن عملاء مكتب التحقيقات الفدرالي قتلوا زعيم هذه الطائفة وعدداً كبيراً من أنصاره وذلك عام (1993) وتبين أن للحركة أتباعاً في كافة أنحاء الولايات المتحدة، ومن أهم أفكارها أنه يجب أن يدمر العالم لينتقل الصالحون إلى عالم آخر أفضل من عالمنا.

وكذا حركة بوابة السماء التي ادعت صلتها بمذنب هالي، وقالت: إن سفينة فضاء كونية تنتظر لتقل أتباع الحركة إلى عالم آخر أفضل من هذا العالم، وعندما ضيقت قوات الأمن الأمريكية الخناق على الحركة انتحر جميع أفرادها البالغ عددهم أربعمائة رجل وامرأة، ومعهم زعيم الحركة الذي ادعى بعض النبوءات، وراح ينشر أفكاره الغريبة بين الناس على شتى أصولهم العرقية.

المهم في هذا كله أن هذه الحركات الخلاصية رأت في المجتمع الذي تعيش فيه مجتمعاً منحرفاً مدمراً بفرديته ورأسماليته، ولذلك افترضت وجود عالم أجمل وأنقى، ورأت أن خلاص العالم من انحرافيته لا يتم إلا من خلال تدميره.

هرمجدون وحتمية الدمار النووي

إن ما ذكرناه عن الحركات والطوائف الخلاصية لا يكفي في أغلب الأحيان لإقناع أبناء البشرية بأن هذه الحركات يمكن أن تسعى لتدمير العالم، أو إنها قادرة على تدميره، ولذلك لا بد من الإشارة هنا إلى أن فكرة التدمير الكوني لم تقتصر على هذه الحركات، والناظر في العقلية الأمريكية وتوجهات القوى الدينة فيها يرى أن القوى الكبرى التي تسيّر تلك العقلية تتمثل في الصهيونية غير اليهودية، فهي التي تهيمن على الفكر الأمريكي وسياسة الدولة، وتمثلها منظمات بروتستانتية كبرى على رأسها منظمة الأكثرية الأخلاقية الأمريكية التي يتزعمها جيري فولويل، وترى هذه المنظمة التي يصل عدد أفرادها إلى الملايين - أن الله قضى علينا أن نخوض غمار حرب نووية (هرمجدون).

ويقول فولويل: أنت وأنا نعرف أنه لن يكون هناك سلام حقيقي في الشرق الأوسط إلى أن يأتي يوم يجلس الإله المسيح على عرش داود في القدس، إن هذا اليوم مقبل، وستكون أنا وأنت جزءاً منه.

وتأكيداً على ما تقوله الصهيونية المسيحية قال الرئيس ريغن عام (1980): إن (إسرائيل) هي الديموقراطية الوحيدة الثابتة التي يمكن أن نعتمد عليها كموقع لحدوث هرمجدون، وإذا كانت الصهيونية الإنجيلية تؤيد سياسة رؤساء الولايات المتحدة المتعصبين مثال ريغن، وكارتر، وكلينتون فإن منظمات وحركات أخرى تقف على طرف نقيض واضح معهم.

فالحركة الداودية التي أشرنا إليها تؤمن بقرب مجيء المسيح الثاني، وترى أننا على أبواب يوم القيامة، وأن حرب هرمجدون (الحرب الدينية الأخيرة) ستكون بشارة مجيء المسيح إلى الأرض لرفع الظلم عن البشر، ونشر السلام على الأرض كلها.

وأهم ما تتبناه هذه الجماعة من أفكار أنها تعيش في دولة كافرة (الولايات المتحدة) وأن النظام السياسي الأمريكي فاسد بعدما ابتعد عن تعاليم الله، الأمر الذي أدى إلى اصطدامها بأجهزة الأمن الأمريكية، حيث هاجمت قوة من الـ f B I المباحث الفدرالية هذه الجماعة وألقت القبض على كثيرين منهم بتهمة حيازة السلاح، وقد أشرنا إلى أن أجهزة الأمن الأمريكية قامت بهجوم بالغاز المسيل للدموع على الجماعة، لكن الغاز انفجر واشتعل حريق هائل مات فيه زعيم الجماعة ديفيد فريش ومعه (75) من أتباعه، ومعهم (21) طفلاً، والأمر اللافت للنظر أن الناجين من المذبحة الكبرى رأوا أنه يجب الرد على الحكومة الأمريكية، فقام المدعو ثيموثي ماكفاي بتفجير مبنى أوكلاهوما، وأسفر عن مصرع المئات من الأشخاص، وقد تم القبض على ثيموثي وصدر حكم عليه بالإعدام بالسم، ونفذ في عام (2001).

على أي حال فإن الإرهاب الذي تجيّش أمريكا وحلفاؤها الجيوشَ للقضاء عليه ليس سوى ردة فعل لطبيعة السياسة الأمريكية وفكرها، وبعيداً عن الشرق الأوسط الذي وُجهت تهمة الإرهاب له مباشرة بعد الذي حدث في نيويورك

وواشنطن، فإن الحركات والمنظمات المتطرفة في أمريكا تهدد هذه القوة الكبرى من داخلها، وانفجار أوكلاهوما لا يقل فداحة عما حدث في الحادي عشر من أيلول، ففي البداية راحت الأصوات الأمريكية توجه الاتهام لجماعات شرق أوسطية، ثم ألقي القبض على الفاعل وهو أمريكي ينتمي للجماعة الداودية الأمريكية وليس إلى الشرق أوسطية.

إن الخطر الإرهابي الأمريكي الداخلي نتيجة حتمية لسياسة العولمة، وهو الخطر الذي يهدد أمريكا وليس أي خطر آخر، وعندما حدث انفجار أوكلاهوما راحت أصوات أمريكية وغربية تنذر بخطر استخدام السلاح النووي من قبل بعض الجماعات.

وقد قدم جاك أتالي مستشار الرئيس الفرنسي السابق ميتران تقريراً قال فيه: إن سيارة مفخخة بنصف طن من المتفجرات العادية تستطيع تفجير نصف كيلو غرام من المواد النووية وتحويلها إلى قنبلة نووية صغيرة، أو مصدر إشعاعات قاتلة، والذي يستطيع الحصول على المواد المشعة لن يكون من خارج الولايات المتحدة، فالمنظمات الإرهابية الأمريكية هي الأكثر قدرة على امتلاك مثل هذا السلاح، وهذا ما أشار له أكثر من مفكر وباحث استيراتيجي أمريكي، وقد أشار الكثيرون منهم إلى أن هذه المنظمات الخلاصية ليست سوى ردة فعل على سياسة العولمة الرأسمالية الأمريكية.

العولمة...والشعوب...لماذا المواجهة؟

من خلال ما يجري من مواجهة للعولمة، نرى أن الذين أحسوا بخطرها هم من الشعوب الأوروبية أو الغربية بشكل عام، فعلى الرغم من أن الشعوب الفقيرة في أفريقيا وآسيا وعلى الرغم من أن الشعب العربي بشكل عام جميعها مهددة تهديداً حقيقياً بسبب طروحات العولمة المتعلقة بالهوية والدولة الوطنية والقومية إلا أن الذين واجهوا العولمة هم من الشعوب الأوروبية أو الغربية.

وإذا تساءلنا لماذا اقتصرت الاحتجاجات والمظاهرات على شعوب غير عربية وأفريقية وآسيوية؟

الواقع أن الشعوب التي تظاهرت واحتجت على العولمة هي على تماس مباشر بالمؤثرات التي صنعتها العولمة، ويبدو أن الشعوب العربية والأفريقية والآسيوية ما

تزال تستوضح مفهوم العولمة، ويبدو أن هذا المفهوم ما يزال يلفه شيء من الغموض بالنسبة لهذه الشعوب، ولا شك أن عدم وضوح الرؤية لدى هذه الشعوب هو ما يجعلها مسترخية غير شاعرة بالخطر شعوراً مباشراً.

في أول مواجهة جرت بين الشعب وبين دعاة العولمة كانت في مدينة جنوه عندما عُقد مؤتمر للدول الصناعية وفرضت فيه أمريكا أفكاراً وتصورات رأسمالية مرعبة.

تصادم الشعب مع قوات الأمن وسُفكت الدماء وقتل أحد المتظاهرين، وكان ما حدث أول إشارة واعية لتصادم الشعوب مع دعاة العولمة.

لم يمض عام على ما حدث حتى اشتدت المواجهة وتمظهرت في سياتل حيث قام دعاة رفض العولمة بالتظاهر والاحتجاج، وحدث صدام آخر مع قوات الأمن التي كانت تحيط بمقر عقد المؤتمر الأوروبي الصناعي، وتبع ذلك سيل من المظاهرات في فرنسا وبعض الدول الاسكندنافية.

لم تكن المظاهرات والاحتجاجات فارغة من محتوى، لقد استشعرت الشعوب خطر العولمة خاصة من الناحية الصناعية، ورأى العمال وصغار الكسبة أنهم يُجرون إلى هذه العولمة جراً ليموت إحساسهم بإنسانيتهم، وليموت شعورهم بحريتهم الشخصية وكرامتهم البشرية، فالعولمة على النمط الرأسمالي الأمريكي تطحن آمال الملايين من البشر في تحسين أوضاعهم وتحقيق أقل مكتسباتهم، وبات من الواضح أن الرأسمالية العالمية لا تسعى إلا لاستعباد المال والإنسان والأرض والثروات، ولا يهمها أن تُسحق آمال الشعوب البسيطة في العيش بكرامة وعدم سلبها مقومات حياتها الأولية.

ولعل ما حدث في البيرو وهي دولة أمريكية لاتينية فقيرة يدلل أكثر فأكثر على فهم أوضح للعولمة الرأسمالية الأمريكية.

فقبل زيارة بوش الرئيس الأمريكي إلى هذا البلد عمت المظاهرات والصدامات وقد اعتبر الشعب في هذا البلد أن الرئيس الأمريكي يمثل رأس العولمة الرأسمالية التي

جعلت البيرو وغيرها من البلدان تعيش حالة فقر مقذع جراء مليارات الدولارات من الديون والعجز في الإنفاق وتحسين الظروف المعيشية.

ولعل ما حدث في الأرجنتين ليس بعيداً عن الاحتجاج على العولمة، فبدل أن تتحسن ظروف الملايين وتتخطى حالة الفقر ازداد إرهاق الديون على هذا البلد الكبير حتى بلغ أكثر من مائة وخمسين مليار دولار، وإلى الآن لا يوجد حل لهذه المشكلة المستعصية لأن الرأسمالية العالمية لا تريد أن تجد حلاً، ولأن العولمة قررت أن تمضي وهي تدوس بأقدامها الحديدية الثقيلة على كل الشعوب الفقيرة.

ولعل إحساس الشعوب بخطر العولمة المدمر هو إحساس مزدوج، فالعولمة ليست طريقة سليمة في تحقيق غاياتها إنما هي طريقة عسكرية دموية شاملة، فالولايات المتحدة تستخدم في سبيل هيمنة الرأسمالية وسائلها العسكرية التدميرية وليس في جعبتها سوى هذه الهيمنة العسكرية والقوة الفتاكة.

فعن طريق الرعب العسكري والتلويح بالقوة الأخطبوطية وتسويق مقولة إن أمريكا قادرة على فعل أي شيء وفي أي مكان، تنفذ أمريكا مشروع العولمة وهيمنته على كافة أرجاء الأرض، وحين ننظر بشكل دقيق إلى آلية العمل الأمريكية ندرك أن تسويق العولمة لا يتم إلاّ من خلال القوة العسكرية والتهديد والوعيد، وفرض القلق والرعب على الشعوب جميعها لا سيما الشعوب التي ما تزال قادرة على الرفض كونها تستند إلى انتماء لهوية حضارية ورسالة إنسانية، وتشعر أنها وإن عجزت اليوم عن المواجهة فإن المستقبل يبشرها بأنها قادرة على الدفاع عن هويتها وصونها، والحفاظ على أسس وجودها الثقافية والدينية والتاريخية.

وحين تحتج الشعوب على هذه العولمة فإنها في حقيقة الواقع تحتج على أنظمة الحكم في بلدانها لأن هذه الأنظمة تشترك بشكل أو بآخر في آلية تسويق العولمة وتطبيقها.

ومآل ذلك إلى أن النظام الرأسمالي لا تمثله فقط أمريكا أو بريطانيا إنما يمثله العالم الصناعي برمته حيث يصبح المال وسيلة وهدفاً، ويصبح الإنسان آلة إنتاج ليس أكثر، ولعل من أغرب ما يحدث أن نرى الاحتجاج الشعبي العالمي على العولمة يواجه

بالقمع ليس في أمريكا فحسب إنما في بلدان أخرى انخرطت بالمخطط العولمي الرأسمالي الأمريكي وكادت أن تذوب فيه.

وإلا ماذا يعني ما حدث في جنوه وسياتل وباريس وبعض عواصم الدول الاسكندنافية؟

ألم تكن المواجهات بين الجماهير المنكوبة بسبب العولمة وبين أنظمة الحكم في بلادها؟

إن المواجهة في أحد وجوهها احتجاج عملي على هذا الانسياق في ركب العولمة الأمريكية فبدل أن تكون كل دولة لها سياستها الاقتصادية الخاصة المتناسبة مع واقع جماهيرها باتت مرتهنة لسيادة القطب الواحد، وبمعنى آخر إنها تعني ذوبان الشخصية الوطنية والقومية وعدم الاكتراث بالهوية والخصوصية.

إن أزمة المواجهة بين الشعوب والرأسمالية العولمية لا تقف عند حدود فرز المجتمعات إلى غنية وفقيرة فحسب، إنما تتعداها لتصبح فرزاً بين حفنة من الرأسماليين العالميين يتحكمون باقتصاد العالم وثرواته وبين بقية الملايين من الشعوب، فالرأسمالية لا تعمل من أجل شعب على حساب شعب، فالجميع مستهدفون بالفقر والانصياع وراء المخطط الرأسمالي العولمي.

لقد كان معروفاً في بداية القرن العشرين أن نهب خيرات الشعوب من قبل الاستعمار التقليدي كان يصب في تحسين حياة شعوب الدول الاستعمارية ذاتها، وليس خافياً على أحد أن بريطانيا أو فرنسا أو غيرهما من الدول الاستعمارية في بداية القرن الماضي نهبت أفريقيا وآسيا ليعم الرخاء في شعوبها، ولذلك كان التطلع الاستعماري آنذاك يحظى بشكل عام بتأييد تلك الشعوب لحكوماتها في حركة استعمارها لأراضي الشعوب الأخرى، ولا تنسى تلك الشعوب مستوى دخل الفرد الذي كان يحصل كلما تمددت الحكومات الاستعمارية باتجاه أراضٍ جديدة في أفريقيا أو آسيا.

لكن الذي يحدث اليوم وفي أجواء هذه العولمة أن المسألة صارت أكثر تعقيداً وأكثر إشكالية، فالشعوب ما عادت تلك الشعوب التي تستفيد من توجهات

حكوماتها الاستعمارية الاقتصادية، فالمفاهيم تغيرت وقيمة الإنسان فيها ما عادت ذات وزن ومحل احترام، وعلى الكتل البشرية أن تنساق في طريق واحد، طريق الإنسان المنتج المستهلك كالآلة المنتجة تماماً، أمام فائض المال، ومليارات الدولارات فهي تصب لصالح الفئة الرأسمالية الأخطبوطية المستحكمة بالشركات العملاقة والرأسمال العالمي...

ولذلك كانت المواجهات في أغلبها قد حدثت بين الشعوب الأوروبية ذاتها وبين دعاة العولمة وحماتها من الرأسماليين والسياسيين المتحكمين في تلك الدول.

إلى أين ستصل المواجهة؟

لا شك أن ما حدث من مواجهات بين بعض الشعوب وأنظمتها الرأسمالية لم يصبح حالة شعبية عامة، ولكن يبشر بأن المستقبل لن يكون كما هو عليه اليوم، فالعولمة ستزيد من غلوائها، وستزيد من امتصاص روح الإنسان وجهده ودمه وعرقه، وقد تلجأ إلى أساليب دعائية واقتصادية مخدرة، قد ترفع دولة ما أجور عمالها لتُسكتهم ولكن المنهج الاستلابي الطبيعي لصانعي العولمة سيظل ساري التطبيق وهذا ما وعته الشعوب من خلال حركتها الفكرية والاجتماعية عبر مائة عام على الأقل، فالرأسمالية تطوّر نفسها وتطور أهدافها وأساليبها خاصة بعد أن فشلت الشيوعية الاشتراكية وتحطمت في الاتحاد السوفياتي السابق والدول الاشتراكية الأخرى.

وبالمقابل فإن جماهير الشعوب وخاصة في الدول الرأسمالية الكبرى ستخسر شيئاً فشيئاً الكثير من طموحاتها الاجتماعية والإنسانية، وهذا ما سيؤدي إلى تفاقم المواجهة واتساعها، وهذا ما سيؤدي بالتالي إلى الصدام الحقيقي بين رأس المال وقوة الجماهير المستلبة.

وإذا ما حاولت الرأسمالية العولمية تصدير أزمتها من جراء المواجهة إلى خارجها أي: إلى أجزاء جغرافية في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية لن تنجح كما نجحت جحافل الاستعمار التقليدي إبان بداية القرن العشرين.

فالتمديد الذي قد يحدث لن يكون بالمحصلة لصالح جماهير هذه الدول والمجتمعات بل سيبقى لصالح الفئة الرأسمالية المتحكمة بالاقتصاد العالمي، ومن جهة

أخرى فإن الظروف قبل مائة عام ليست مشابهة للظروف الحالية، فالشعوب كبرت وتنامت وكبر وعيها وتنامى شعورها بالهوية والخصوصية، وهذا ما يحتم تصادم الخصوصيات والهويات وتصادم المصالح.

ولعل ما يحمله المستقبل من إرهاصات يقول لنا: إن الرأسمالية العولمية لن تُواجه من قبل شعوب الدول الرأسمالية فحسب إنما ستجد أن تلك الشعوب ستلتقي مع شعوب العالم الفقير المستهدف بثرواته ومواقعه الحسّاسة الاستراتيجية.

وهذا ما يعيد إلى الذاكرة الشعارات الجماهيرية العالمية التي طرحت في القرن الماضي. فاليوم وفي الغد لن يقف الشعار عند مقولة يا عمال العالم اتحدوا، بل سيتعداه ليقول يا بني الإنسانية اتحدوا في وجه العولمة، ومن يدري فقد يحمل المستقبل القريب أو البعيد مفاجآت في غاية الخطورة، ومن يدري هل تكون المواجهة بين الشعوب والعولمة مواجهة كونية عارمة يكون فيها خلاص البشرية أو دمارها.

مؤتمر الألفية العالمي، هل يتخلى العقل العنصري عن فوقيته؟

بعد حلول ما يسمى الألفية الثانية عُقد في نيويورك ما يسمى مؤتمر الألفية العالمي وحضره العشرات من رؤساء الدول.

فهل تجاوز هذا المؤتمر حالة التصادم بين القوي المتجبر، وبين الضعيف المستلب. هل أفصحت الشعوب المقهورة عن أهدافها وغاياتها الوطنية والإنسانية، أم أن المؤتمر عكس تصورات زعماء العالم بعيداً عن شعوبهم وطموحاتها.

ماذا يعني حوار الحضارات في ظل اندحار وانهيار القيم الحضارية في معظم دول العالم؟

وهل تستجيب أمريكا لنداء التخلي عن الانحياز للباطل على حساب الحق؟

آلاف الأسئلة تطرح بعد أن رحل زعماء العالم وعادوا إلى بلادهم ومشاكلها المستعصية تاركين نيويورك لحالها وشأنها؟

مؤتمر الألفية الذي اعتبر أكبر اجتماع في التاريخ، حضره رؤساء وملوك ووزراء من شتى بقاع الدنيا.

تفاصح فيه كلٌ على قدر فصاحته، حتى أمراء دول هي أشبه بالقرى النائية على خارطة الكون تحدثوا عن السلام وحل المشاكل والتعاون الدولي، وما إلى ذلك من هذه المشاكل التي ما تزال تتفاقم يوماً بعد يوم وتستعصي على الحل.

ماذا عنى وماذا يعني هذا المؤتمر لنا كعرب ومسلمين؟ وهل تجاوز المؤتمر قضية فلسطين لأنها حُلت بالطريقة المناسبة الصّالحة للكيان الصهيوني والفلسطيني والعرب والمسلمين؟

هل انتهت الإبادات العنصرية للمسلمين في كشمير والفلبين وتايلاند وبورما والقوقاز.

أم أن لقاء زعماء العالم في الألفية أعطى الضوء الأخضر لمزيد من القمع العنصري والإبادة لأبناء الإسلام المنتشرين في أصقاع الأرض؟

الغربيون الأغنياء أو الشمال الصناعي كما يقولون.. يرى أن مشاكل الكون لا يمكن أن تُحل على حساب التقدم الغربي والغنى الشمالي، ويطرح هذا الشمال بعض التصورات لرفع المعانات الجزئية عن الشعوب الفقيرة بتقديم المساعدات المالية والغذائية والتعاون بالقدر الذي تسمح به الظروف السياسية والاجتماعية.

الجنوب الفقير كما يسمونه يشعر بالمرارة والألم والقهر لأنه يدرك أن الشمال الغربي هو الذي امتص خيرات الجنوب، وما زال على حاله من امتصاص لخامات الأرض واستغلال الثروات الجنوبية استغلالاً فاحشاً، وفي غمرة أيام المؤتمر يخرج الرئيس الأمريكي السابق كلينتون ليطلب من الدول النفطية تخفيض أسعار نفطها وزيادة إنتاجها، ويتناسى أن يطلب من الكيان الصهيوني الامتثال لقرارات الشرعية الدولية، على الرغم من أنها في أساسها مجحفة أو ظالمة بحق الشعب العربي الفلسطيني، يطلب أن ينساح النفط العربي إلى الماكينة الأمريكية بأقل الأثمان، ويطلب أن يتنازل الفلسطينيون عن القدس، وأن ينسوا حق عودة اللاجئين إلى ديارهم التي شردوا منها قبل أكثر من خمسين عاماً.

كان باراك رئيس وزراء الكيان الصهيوني في المؤتمر وخرج ليقول:

إن المشكلة المستعصية بين اليهود والفلسطينيين هي مشكلة جبل الهيكل، فلا قدس ولا مسجد أقصى، جبل الهيكل هو حق يهودي أقيم عليه المسجد الأقصى، ويأتي الفلسطينيون لينازعوا اليهود عليه، وفوق هذا وذاك يلتقي أمير قطر بباراك ويوقعان اتفاقات تجارية واسعة، ويصرح أمير قطر بأن العلاقات بين قطر والكيان الصهيوني ستقوى وتتطور، ولن يوقف تطورها أي طارئ أو حدث.

ولعل الأولويات التي يراها غالبية زعماء العالم هي بعيدة تماماً عن المشكلة الفلسطينية، فالجميع يتحدث عن أحداث سيراليون، والنزاعات الدموية في الكونغو الشعبية، وكوفي عنان يفترض أن المشكلة بين الكيان الصهيوني والفلسطيني هي أقرب للحل من أي وقت مضى، فأي حل هو ذاك الذي يتحدث عنه عنان؟

هل اتفق اليهود والفلسطينيون على إعادة اللاجئين إلى بلادهم دون قيد أو شرط؟

أم اتفقوا أن تكون القدس وتبقى عاصمة أبدية لليهود؟

أم اتفقوا أن يكون المسجد الأقصى وما يسمى حائط البراق بناء واحداً بإشراف اليهود وبعض رجال الدين المسلمين؟

وإذا رحنا بعيداً عن مشاكلنا الكبرى ـ نحن أبناء العروبة والإسلام ـ توضحت صورة مؤتمر الألفية أكثر فأكثر.

فالوفد الكوري الشمالي يتعرض لحملة تفتيش وهو في طريقه إلى نيويورك، تطال أعضاء الوفد جميعهم، تخلع ملابسهم وأحذيتهم وتفتش أجزاء من أجسامهم من العار والعيب أن يذكرها المرء على لسانه أو بقلمه.

وفي الجانب الآخر من الصورة تصرح المتحدثة باسم كوفي عنان أن الكثيرين ينظرون إلى هذا المؤتمر بسخرية لأن المؤتمرين لن ينفذوا شيئاً على الأرض، لكنها تستدرك قائلة إن كثيراً من الإيجابيات حصلت بسبب هذا المؤتمر وينتظر العالم المزيد.

والواقع أن المشكلات العالمية كثيرة ومستعصية، وسوى المشاكل السياسية هناك مشكلة مليار إنسان يعيشون تحت خط الفقر، ويتفاءل بعض رؤساء الدول الذين

حضروا المؤتمر وكذلك كوفي عنان عندما يرون أنه بحلول عام (2010) يجب أن يتمكن العالم من القضاء على الفقر.

فكيف يتم القضاء على الفقر العالمي؟

مليار فقير معدم في العالم، فكيف يتم تحسين أوضاعهم ورفع مستواهم إلى ما فوق الصفر في حياتهم المعيشية؟

كيف يتم القضاء على مرض الإيدز الذي يفتك بالملايين في أفريقيا وجنوب آسيا وحتى في الغرب المتقدم تكنولوجيا وطبيا.

الغرب في صورته الظاهرية يقدم نموذجا لما يسمى بالديموقراطية والحرية، وفي صورته الباطنية أو جوهره يقدم نموذجا قديما حديثا للعنصرية الفظة واكتساح قيم الإنسانية وتدميرها.

خبراء اجتماعيون يؤكدون أن دول العالم الغنية تشهد موجة متصاعدة من الاتجار بالبشر، ومعظمهم من النساء والفتيات اللاتي يجبرن على ممارسة البغاء، ولم تتمكن هذه الدول أو لم تبذل جهدها لوقف العصابات المسؤولة عن تجارة الرقيق الأبيض في العصر الحديث.

سان براوبناك عضو مجلس الشيوخ الجمهوري الأمريكي يرى: أنه عمل سيئ حقيقة وهو الجانب المظلم للعولمة الذي بدأ يتشكل مع زيادة سبل الاتصالات بين الدول وسهولة السفر.

أكثر من مليون شخص يتم تهريبهم في مختلف أرجاء العالم سنويا، ويرى الخبراء أن الرقم قد يكون ضعف الرقم المذكور، والطامة الكبرى أن هؤلاء أو أغلبهم يوجهون للدعارة، في حين يوجه آخرون للخدمة في البيوت والمصانع والحقول.

فالذين يحاولون إظهار محاربتهم لظاهرة تهريب الملايين من البشر واستخدامهم في المهن الشريرة يتناسون الدوافع وراء هذه الظاهرة المشينة، فأغلب الضحايا عادة من النساء اللواتي يرغبن في الهروب من الفقر في بلادهن فيقبلن عرضا خادعا للعمل في الخارج في رعاية الأطفال أو المطعم، ثم يجبرن على العمل في البغاء في بلد غريب لا يتحدثن لغته، وفي ظروف مزرية لدفع دين من آلاف

الدولارات مستحقة عليهن مقابل تهريبهن، والشيء المحزن أن هؤلاء النساء لا يعدْن إلى بلادهن إلا بعد إصابتهن بالإيدز، فأين مؤتمر الألفية من هذه الظاهرة المشينة، هل تستطيع الأمم المتحدة أن تقضي على الحد الأدنى من الفقر، هل تقدم الدول الغنية فائض حاجتها للدول الفقيرة حتى لا تلجأ موجات من النساء للهجرة الإجبارية وامتهان كرامتها وحياتها، أم أن الغرب اتخذ على عاتقه أن يدمر الإنسانية ويقضي على سكان أفريقيا كلهم، حتى تصبح أرضاً بلا شعب؟

الآن وبعد أن فتك الإيدز المصدر من أمريكا بآلاف البشر في أفريقيا وجنوب شرق آسيا تتحرك الأمم المتحدة، يتحرك المسؤولون الأمريكيون والغربيون لعقد مؤتمر يعالج المشكلة وإصدار بروتوكول يعتبر تهريب البشر جزءاً من معاهدة الأمم المتحدة ضد الجريمة الدولية.

ولو أن الاتجار بالبشر ظل محصوراً في مناطق أفريقية وآسيوية ولم يصل إلى أمريكا وأوربا لما تحرك المسؤولون في الدول الغنية، ولكن الخطر الداهم وصل إلى عواصم الغرب فتحركوا لينقذوا بلادهم من ازدياد المهاجرين السود والملونين الذين لا يرغب الغرب بوجودهم هناك.

إن الذين تسببوا في تفشي هذه الظواهر هم الذين منعوا القوت عن الفقراء، وهم الذين سلبوا خيرات الشعوب وسرقوها وتركوها عظماً بلا لحم كما يُقال، وإذا كان لا بد من إنقاذ ملايين البشر من الجوع والموت وامتهان الكرامة الإنسانية فما على الدول الغنية إلا أن تكفر عن أخطائها الكبرى بدفع كل الإمكانات الغذائية والمالية لاستعادة الفقراء لحياتهم وكرامتهم، وما ذاك إلا جزء من رد الأموال لأصحابها الذين ظلوا عشرات السنين عبيداً مسخرين، وظلت أراضيهم محل نهب شرس من قبل تجار الموت المنتشرين في العالم الغربي، والذين يمتلكون أفتك الأسلحة الدعائية والنفسية والسياسية.

وبعد كل هذا وذاك هل يستطيع مؤتمر الألفية فعلاً حل المشاكل الإنسانية المستعصية حتى يخطو خطوة صحيحة نحو حوار الحضارات؟

لا نعتقد ذلك إلا في حالة واحدة، وهي أن يتنازل الغرب عن فوقيته وعنصريته وأن يعود إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

أمريكا بعد الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر. تغيّر أم تطور؟

حينما نتحدث عن صدام أو حوار يجري بين الشعوب لا بد أن تستوقفنا محطات قد تبدو بعيدة عن طبيعة البحث، لكن ما يجري في العالم لا يجري في كوكب آخر، وقد باتت كافة الظواهر السياسية والفكرية والاجتماعية مترابطة يؤثر بعضها ببعضها الآخر.

فما حدث في أمريكا يوم الحادي عشر من أيلول عام (2001) ليس حدثاً منفصلاً عما يطرح من أفكار وبحوث في صدام الحضارات أو حوارها.

والواقع أن فوكوياما أو هنتغتون لم يطرحا مفهوم صدام الحضارات إلا بعد الذي حدث في أمريكا، واعتبرا أن ما حدث هو جزء من ذلك الصدام المستقبلي بين الحضارات والشعوب.

فحين حلّل فوكوياما علاقة العالم الإسلامي بالغرب: ذكر أن المشكلة بينهما ليست محصورة في مجموعة من الإرهابيين بل هي تتسع لتشمل عامة الراديكاليين الإسلاميين الذين وصفهم بالأصوليين الذين يرفضون الحداثة والعلمانية.

أما هنتغتون فقد قال في تحليله لأحداث (11) أيلول: إنها تظهر الفجوة وعمقها بين الحضارتين الغربية والإسلامية، وقد بشر بالعديد من الحروب الدموية التي ستنشب على حدود المسلمين.

والواقع أن كثيراً منا يتساءل هل أمريكا هي نفسها قبل وبعد الحادي عشر من أيلول؟

والواقع أن مسألة التغير الأمريكي تتعلق وترتبط بعدة جوانب منها الجوانب الفكرية، ومنها جانب المواقف من قضايا العالم وخاصة القضية الفلسطينية، ومنها ما يرتبط بفلسفتها الاستعمارية المنطلقة من قناعتها بسيادة القطب الواحد على العالم.

في الجانب الفكري فإن الولايات المتحدة كانت وما زالت قبل وبعد أحداث أيلول تنطلق من مواقف فكرية ثابتة تجاه العالم عامة، وتجاه العرب والمسلمين خاصة.

فعبر عقود كثيرة ظلت أمريكا الراعية الأولى للكيان الصهيوني تمده بمقومات الحياة بدءاً من أصغر حاجة بشرية إلى أكبر تقنية عسكرية، وظلت مهيمنة على البترول العربي في الخليج بشكل عسكري واضح من خلال قواعدها العسكرية وتواجد أساطيلها في الخليج، وعلى الرغم من الوضوح التام في انحيازها إلى جانب الكيان الصهيوني كانت تدرك أن العرب وخاصة ما يسمى بالمعتدلين غير قادرين على فعل شيء، بل بالعكس فإنها تسعى دوماً لفتح الباب لهم لإقامة علاقات مع الكيان وتحقيق مطامعه وتسيّده على المنطقة.

ومن الواضح أيضاً أن أمريكا تدرك أن الجماهير العربية مستلبة مخدرة مستهلكة، وأن الإسلام على شكله التقليدي مريح لها، ما لم تصح الجماهير وتدرك أن الإسلام عقيدة لها شخصيتها وآفاتها ومكانتها الواقعية العالية في الأرض.

وقد عملت أمريكا على استغلال مظاهر الصحوة فوجهت الأنظار والإرادات نحو ما يسمى الخطر الشيوعي في أفغانستان، وعملت هي وكثير من الدول العربية على امتصاص نقمة الشعوب الإسلامية فدفعت الآلاف من أبناء الأمة نحو أفغانستان لمحاربة التواجد الشيوعي السوفياتي، وظلت وسائل إعلامها تمدح صورة هؤلاء العرب والمسلمين الذين يقاتلون هذه الشيوعية، كل هذا يحدث بينما تمد الكيان الصهيوني بكل ما تملك، وقد استطاعت أن تحوّل معظم الدول العربية ووجهتها عن فلسطين نحو منطقة أخرى بعيدة كل البعد عن جوهر الصراع الحقيقي بين الأمة العربية والإسلامية وأعدائها.

والواقع أن كل ذلك لم يغيّر من طبيعة التفكير الأمريكي، فالعداء للإسلام كامنٌ في هذا الفكر البروتستانتي المتحالف حتى العظم مع الحركة الصهيونية والكيان الصهيوني، ولم يتزحزح قيد أنملة عن إيمانه بقوة الكيان الصهيوني وتفوقه المستمر والمهيمن بشكل مطلق على المنطقة.

وعندما بدأ العداء العربي الإسلامي يظهر بشكل عملي ضد الولايات المتحدة بسبب انحيازها المطلق للصهاينة، وبسبب سلب خيرات المنطقة وإهانة الأمة وهويتها وتراثها، لم يعد أمام الولايات المتحدة إلا أن تقفز قفزة نوعية في الإعلان صراحة عن عدائها للإسلام والمسلمين، وكان أن طورت تفكيرها وممارساتها وتحركاتها باتجاه الصدام الدامي مع المسلمين.

وجاءت أحداث أيلول لتقول إن الاستلاب الأمريكي للعرب وأرضهم لا بد له أن يُردع بأي شكل من الأشكال، لقد ظنت الولايات المتحدة أن قوتها وتواجدها العسكري والسياسي والاقتصادي في المنطقة العربية لن تسمح لأي من العرب بالتفكير بالمساس بالولايات المتحدة، وكانت أحداث أيلول فوق ما يتصوره العقل الأمريكي. كان لدى الأمريكيين تصور أن العرب يمكن لهم أن يفعلوا شيئاً ما في فلسطين مثلاً، أو في أي بقعة أخرى، وهي تعرف كيف تمتص نقمة الجماهير العربية والمسلمة، ولكنها لم تكن تتخيل أن الضربة ستكون في مدنها وفي أهم مراكزها التجارية والعسكرية.

وألصقت جريرة هذا العمل الكبير بما يسمى الأفغان العرب، الذين منذ البداية كانت أمريكا تبارك جهادهم ضد التواجد الشيوعي في أفغانستان باعتباره نضالاً من أجل الحرية والكرامة وما شابه ذلك من الشعارات التي استغلها الإعلام الأمريكي بشكل مكثف وكبير.

وبدأ يظهر تطور التعامل الأمريكي والتفكير الأمريكي تجاه الإسلام والمسلمين، وجاءت علامات هذا التطور لتقول: إن الولايات المتحدة لم تكن على حال حسن مع المسلمين فتغيرت أو انقلبت، إنما هي وضمن الاستراتيجية العقيدية البروتستانتية وضمن الاستراتيجية السياسية والعسكرية وصل بها الحد إلى هذا السقف من العداء السافر للإسلام والمسلمين.

وبعد الذي حدث في أيلول أصبح أمراً طبيعياً أن تصدر في أمريكا تصريحات كثيرة مختلفة المصادر تفصح عن عدائها للإسلام والمسلمين، وتبدأ من رئيس الدولة وتنتقل إلى الباحثين والمفكرين والعسكريين وتجار السلاح والرأسماليين الكبار، وبدا

طبيعياً أن التوجه الإعلامي الأمريكي والمسيطر عليه من قبل اليهود والمتعصبين البروتستانت سينصبُّ على قضية واحدة وهي قضية إلصاق الإرهاب بالعقيدة الإسلامية والمسلمين.

ولم تتوقف التصورات الأمريكية عند الحدث نفسه أو تداعياته بل أصبح الحدث نفسه مادة خصبة لما اخترعوه من مصطلح صراع الحضارات أو صدامها وحتمية الدمار الكوني وما إلى ذلك من تصورات.

بدأ الإفصاح عن مكنون العداء الأمريكي للإسلام والمسلمين عن طريق الرئيس الأمريكي بوش عندما قال عن الحرب التي شنها على ما يسمى الإرهاب: حرب صليبية جديدة.

وفي استطلاع أجرته مجلة ذي إيكونوميست في أمريكا خلصت إلى نتيجة تقول: إن الحرب الجديدة التي تخوضها الولايات المتحدة حالياً ليست جديدة لكنها استمرارٌ وتصعيد لأنماط سابقة من العنف تشمل المسلمين.

وبعد أيلول ببضعة أشهر وتحديداً بتاريخ (25) كانون الأول (2001) كتب صموئيل هنتغتون الأستاذ بجامعة هارفرد عن نظرية صدام الحضارات التي تحدث عنها منذ عام (1993) وصرح فيها بأن بذور صدام عام بين الحضارات باتت منشورة، فردود الفعل على أحداث (11) أيلول وردة الفعل الأمريكية جاءت وفقاً لمنظور حضاري، إذ أن حكومات الدول الغربية وشعوبها تعاطفت بشكل كاسح مع الولايات المتحدة، وكانت داعمة لها وهي نظرة لخصتها صحيفة ليموند الشهيرة حين كتبت في عنوان رئيسي لها (كلنا أمريكيون).

ويتابع هنتغتون قوله: فيما يبدو مستبعداً أن تتحقق الوحدة في صفوف المسلمين خلال السنوات القليلة، فإن المؤشرات الديموغرافية تعكس صورة أكثر تفاؤلاً.

فقد كانت معدلات الولادة في عدد كبير من البلدان الإسلامية آخذة في الهبوط بشكل كبير لا سيما في البلقان، إلا أنها تبقى مرتفعة في بعض الدول الإسلامية مثل السعودية، وبحلول عام (2020) سيتقلص عدد الشباب المسلم،

وعندها سيكون من المنطقي أن يضمحل زمن حروب المسلمين ليخلفه عصر جديد تسيطر عليه أشكال أخرى من العنف بين شعوب الأرض، وكان هينتغتون قد بشر بعد سقوط الشيوعية بوجوب إيجاد عدو بديل، وقال في هذا الصدد: أن المجابهة مع الغرب ستبدأ من جانب العالم الإسلامي، وأن النضال من أجل نظام عالمي سيتحقق بتحرك شامل للدول الإسلامية من المغرب إلى باكستان بما يهدد الغرب وحضارته.

وتبعه فوكوياما صاحب نظرية نهاية التاريخ بتصريحات واضحة عن الحرب مع المسلمين.

وقال في مجلة النيوزويك: إن التحدي الذي يواجه الولايات المتحدة اليوم هو أكثر من مجرد معركة مع مجموعة من الإرهابيين، فبحر الفاشية الإسلامية الذي يسبح فيه الأمريكيون يشكل تحدياً أيديولوجياً هو في بعض جوانبه أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية، ويقول: إن الصراع بين الديموقراطية الليبرالية الغربية والفاشية الإسلامية ليس صراعاً بين نظامين حضاريين يتمتعان بقابلية البقاء نفسها ويستطيع كلاهما ركوب العلم والتكنولوجيا، وخلق الثروات والتعامل مع التنوع الموجود في عالمنا المعاصر.

وليس السياسيون الأمريكيون بعيدين عن هذا التصور إلا أنهم ينطلقون من منظور سياسي عسكري ويعتمدون كلياً في هذا التصور على موقف سلفي مسبق تجاه الإسلام والمسلمين موقف يستند إلى موروث صليبي قديم.

ولم يكن حدث (11) أيلول المحطة التي قفز إليها هؤلاء السياسيون ليفصحوا عن مواقفهم تجاه الإسلام، والواقع أنهم بعد انهيار الشيوعية وجدوا في الإسلام العدو القادم لأمريكا والغرب، وافترضوا أن الصدام سيكون مع هذه العقيدة التي يسمونها الأيدلوجية الإرهابية.

فمنذ عام (1991) وفي منتدى الشؤون الأمنية الدولية الذي عقد في ميونيخ رفع ديك شيني شعار ـ الإسلام عدو بديل ـ وعندما أصبح شيني نائباً لبوش قبل سنتين أخذ يترجم قوله على أرض الواقع إذ أصبح في موقع القرار الأمريكي ولا حدود تمنعه من أن يطبق ما يقول.

أما الصحفي المشهور توماس فريدمان ـ وهو يهودي أمريكي ـ فقد كان أكثر وضوحاً في عدائه للإسلام وقد قال بعد (11) أيلول:

إذا كان تاريخ (11) أيلول بداية الحرب العالمية الثالثة فعلينا أن نفهم ما تقصده هذه الحرب.

علينا أن لا نكافح لاستئصال الإرهاب فحسب، لكننا نحارب لهزيمة الإيديولوجية والتدين الدكتاتوري، وإذا اعتبرنا الحرب العالمية الثانية ثم الحرب الباردة صراعاً لهزيمة النازية والشيوعية فإن الحرب الثالثة الحالية هي حرب ضد الحزب الديني المتطرف الذي يفرض على العالم سلطة إيمانية تنفي الآخرين، وحكم الحزب الديني لا يمكن أن يقاتل بالجيوش وحدها، بل يجب أن يقاتل أيضاً في المدارس والمساجد والكنائس والمعابد.

وقد ترجمت الولايات المتحدة هذا العداء الفكري على الأرض، وذلك على مستوى التعامل مع العرب والمسلمين الذين يعيشون في الولايات المتحدة ومستوى التعامل الأمريكي تجاه العرب والمسلمين في عالمنا العربي والإسلامي، وخاصة تجاه القضية الفلسطينية باعتبارها المحور الأساسي للصراع بين قوى الصهيونية وحلفائها، وبين العرب والمسلمين.

أما على المستوى الداخلي الأمريكي فقد لجأت السلطات الأمريكية إلى إجراءات عديدة ضد العرب والمسلمين، فاعتقلت المئات منهم دون أن يكون لديها أي برهان مادي على أنهم إرهابيون يريدون تقويض الأمن الأمريكي! وهوجمت الجمعيات الخيرية ومراكز الدراسات الإسلامية، وأغلقت بعض هذه الجمعيات الخيرية لأنها حسب الزعم الأميركي لها نشاطات مشبوهة، أو هي تموّل بعض الحركات الإسلامية الجهادية في فلسطين، وجمدت أموال المؤسسات العربية والإسلامية ومنع أعضاؤها من التحرك، واستُدعي بعضهم الآخر للتحقيق، وطرد آخرون بحجة أنهم غير مرغوب فيهم بالولايات المتحدة.

وأصبح التحقيق مع المسافرين العرب والمسلمين سمة المطارات الأمريكية حتى أن السلطات الأمريكية أصدرت قانوناً يمنع المرأة المسلمة بوضع صورتها على جواز

سفر إذا كانت متحجبة. ويمنع الرجال من وضع صورهم على جوازات السفر إذا كانوا يرتدون أي غطاء للرأس، وبات كل عربي أو مسلم مشبوهاً من قبل أجهزة الأمن الأمريكية.

وقد لاقت الإجراءات الأمريكية الحكومية صداها لدى كثير من الأمريكيين وخاصة المتطرفين منهم، فهوجمت بعض المساجد ومراكز الدراسات، واغتيل بعض الأفراد في عدة ولايات، وتطور الحسّ العنصري كثيراً لدى الأمريكيين خاصة أن أجهزة الإعلام لا سيما الصحافة الصهيونية لعبت الدور الأخطر في تغذية هذا الشعور العنصري، ومن المعروف أن الصحفي الأمريكي اليهودي توماس فريدمان كان على رأس اللوبي الإعلامي الصهيوني الذي كرس كل مقالاته في الصحف الأمريكية للتحريض وإثارة المشاعر العدائية ضد العرب والمسلمين.

أما على المستوى الخارجي فقد شنت القوات الأمريكية بكل أسلحتها المدمرة هجوماً على أفغانستان طال جميع المناطق الأفغانية الفقيرة، وتقول التقارير: أن عدد من سقطوا قتلى من الأفغان بلغ خمسة وثلاثين ألف مواطن جميعهم من الفقراء والأطفال والنساء، وجعلت أمريكا من هذا البلد الفقير حقل تجارب لأفتك الأسلحة وأشدها دماراً.

وجعلت أمريكا شعارها الأول محاربة الإرهاب في كل أرجاء المعمورة. ووضعت على قائمتها ضرب العراق، وجنوب الفلبين، والصومال، ولبنان، وفلسطين، وطورت من حربها على المسلمين فشاركت القوات الفليبينية في حربها ضد الجنوب الفليبيني المسلم، وراحت تهدد يومياً العراق والصومال وغيرهما من البلدان العربية والإسلامية.

وقد شعر الكثيرون من المحلّلين العالمين أن حملة الولايات المتحدة على أفغانستان قد فشلت في تحقيق أهدافها، وأنها عندما تلوّح بضرب العراق أو بإعطاء الإيعاز لشارون باكتساح الضفة والقطاع ليس إلا تغطية عجزها في أفغانستان.

وعندما حاولت الولايات المتحدة إقناع العرب بالسكوت على ضربة ساحقة للعراق في شهر آذار من عام (2002) وجدت عدم توافق بينها وبين العرب فكان

مخططها إما العراق أو السلطة الفلسطينية والضفة والقطاع، وتم الخيار الأخير حيث أوعزت أمريكا لشارون باكتساح الضفة والقطاع، وارتكاب أبشع المجازر بحق الشعب الفلسطيني.

ولا شك أن الحملة الأمريكية لن تتوقف عند حدود، فهي التي وضعت في حسابها أن ضرب الفلسطينيين ضربة قاسية قد يجر أطرافاً للصدام مع الكيان الصهيوني. فلذلك راحت تلوّح بين الفترة والفترة بأن دولاً مثل العراق وسوريا وإيران تغذي الإرهاب، وهي حسب المنظور الأمريكي دول إرهابية سيأتيها الدور إن عاجلاً أو آجلاً، ولن تسلم من ضربة أمريكية قد تنفذها أمريكا نفسها أو وكيلتها في المنطقة.

إن كل هذه المعطيات تشير إلى أن المواجهة حتمية بين العرب والمسلمين وأمريكا، وإنْ بدا أن العرب غير قادرين تماماً على هذه المواجهة لكن فرضها بقوة السلاح على العرب لن يؤدي إلاّ لرفض أمريكا وهيمنتها.

لقد خلقت الولايات المتحدة حالة من العداء العربي والإسلامي لم يسبق لها مثيل، فالجماهير العربية المقهورة والمقموعة لن تصبر كثيراً على ما يجري، ولعل الصدام بين هذه الجماهير وأنظمتها التي تقيم علاقات حميمية مع العدو الصهيوني وأمريكا وشيك وهو ينذر بعدم الاستقرار في هذه البلدان.

وكل ذلك لا ينفصل بكل تفاصيله عن المواجهة مع الفكر الأمريكي الصهيوني والهيمنة الأمريكية المستشرية.

إن الصدام لا يقتصر فقط على جانب، فهناك العشرات من الأسباب التي ستؤدي إلى المواجهة، منها ما يتعلق بالظروف المعيشية للعرب، ومنها ما يرتبط بالنواحي الدينية والتاريخية، ومنها ما هو أخطر حيث تُستهدف الهوية العربية الإسلامية بإلغائها ومحاربتها بشراسة، وأهمها أن فلسطين بما لها من مكانة قدسية تسكن في قلوب المسلمين والعرب وتفجرهم دوماً باتجاه رفض الصهيونية ومحاربتها بكل الأشكال.

الفصل الخامس
صدام الحضارات والمواجهة
مع الصهيونية

في مواجهة المفاهيم

1 ـ مفهوم الموت .

2 ـ مفهوم الرعب .

3 ـ مفهوم التبرير الديني للإجرام المرضي .

4 ـ مفهوم القوانين التوراتية والتطبيق النازي لجيش صهيون .

5 ـ مفهوم أرض الميعاد في مواجهة حق العودة .

والمواجهة مع الصهيونية أولاً:

مما لاشك فيه أن أي صدام بين الشعوب أو بين الحضارة والتكنولوجيا ستكون فيه الصهيونية الطرف الأبرز، وذلك بسبب ما تحمله هذه الحركة من أفكار دينية عنصرية، وتنظيرات إرهابية متميزة، وباعتبار أن الكيان الصهيوني يمثل ثقل هذه المرحلة العملي على الأرض فإن المواجهة الأساسية في الكون ستكون من هذه المنطقة التي يحتلها الصهاينة، ويقيمون فيها أكبر قوة طغيانية بعد الولايات المتحدة الأمريكية.

ولا يمكن أن تخرج الصهيونية من المعادلة، فالصدام الحضاري الإنساني على مدى التاريخ ما كان ليحصل لولا وجود اليهود، وفاعليتهم المتشعبة في الأمم والشعوب وخاصة الشعوب الغربية، وقد مثلوا عبر التاريخ الطويل وجه الشر الأشرس، وبؤرة الإفساد العالمي على كافة المستويات السياسية والمالية والأخلاقية.

وقد قُدر أن يكون العرب وخاصة الفلسطينيون في المواجهة الأولى مع الصهيونية التي يمثل ثقلها الكيان الصهيوني.

وإذا نظرنا إلى الصراع بدقائقه نرى أنه صراع يلف بين دفتيه عشرات الأمور، بدءاً بالمفاهيم الفكرية ومروراً بأبعاد الصراع الدينية والعسكرية والنفسية وغيرها، وانتهاءً بمفهوم صراع الوجود والبقاء الذي يحتم إلغاء أحد الطرفين إلغاءً كلياً من فلسطين.

ففي ظل هذه المواجهة برزت مفاهيم كثيرة تحدد طبيعة الشخصيتين المتصارعتين أي: الصهاينة من جهة والفلسطينيين من جهة أخرى - فهي تنبش في الماضي وتُظهره على السطح، تستحضر التاريخ والعقيدة وتربطهما بمجريات الصراع الحالي، وتنبعث مفردات كثيرة من المفاهيم والأفكار، وتؤطر أبسط الأمور وأعقدها في إطار هذا الاستحضار الذي يشهد صراعاً دموياً لم يشهده التاريخ من قبل.

أرض فلسطين هي محور الصراع بما لها من أبعاد تاريخية وعقيدية، وبما لها من موقع روحي ومادي واستيراتيجي.

الكيان الصهيوني قوة عسكرية ضخمة تمده أمريكا بكل مقومات القوة والتفوق والهيمنة، والشعب الفلسطيني يرى أن من حقه وواجبه الديني والتاريخي أن يقاتل بكل الوسائل المتاحة والمبتكرة حتى يحافظ على وجوده وبقائه فوق أرضه التاريخية والدينية والاستراتيجية.

الكيان الصهيوني يريد إلغاء هذا الشعب الفلسطيني من الوجود بكل الوسائل من تصفيات وترحيل وتدمير، والشعب الفلسطيني يريد إلغاء الاحتلال ووجوده الاستعماري من أرضه، ولاشك أن المواجهة الدموية تستحضر كافة وسائل الصراع العسكرية والفكرية والإعلامية وغيرها.

أ. أول المفاهيم:

مفهوم الموت في إطار الصراع

قد يتساءل بعضنا ما العلاقة بين هذا العنوان وبين الموضوع الكلي صدام الحضارات؟

لاشك أن هذا العنوان يوحي ببحث فلسفي فكري ليس له علاقة فيما نطرح، لكننا اعتبرنا منذ عنوان الفصل الخامس أي: هذا الفصل الذي نكتب فيه أن هناك صراعاً جارياً وحتمياً مع الصهيونية وقلنا: إن الصهيونية هي الوجه الشرس الأول للعولمة، وهي طليعة القوى الشريرة في صدام الحضارات، ولا نريد هنا أن نتحدث عن الصراع مع الكيان الصهيوني في جانبه العسكري فحسب، أو جانبه الاقتصادي، إنما نريد أن نبحث فيما حاول الكثيرون تغييبه عن العقول.

والواقع أن هناك عدداً من المفاهيم التي تدخل في صلب الصراع، وأول هذه المفاهيم مفهوم الموت باعتباره أهم ما يسيطر على الشعور الشخصي للفرد خاصة الذي قد غرق في قلب الصراع الدموي.

متى يكون الموت قبيحاً؟ متى يكون الموت جميلاً؟ ماذا يعني مفهوم الموت في إطار الصراع؟

لا شك أن الموت كحالة وجودية شغلت الإنسان منذ خلقه الأول، ولسنا هنا بصدد ظاهرة الموت كما فهمتها الحضارات القديمة والفلسفات والديانات التي عرفناها من خلال قراءاتنا وإحساساتنا الدينية ومحاكماتنا العقلية.

فنحن هنا أمام نموذجين من نماذج الصراع القائم والمرشح ليكون واحداً من أهم عناصر الصدام بين الغرب والشرق، نحن هنا أمام شخصيتين، ندرس الأبعاد النفسية والفكرية والعقيدية للموت فيهما، وأقول فيهما لأننا معنيون بالدخول عميقاً متجاوزين المظاهر الشكلية وأنماط التعبير، الدخول في المكون الفلسفي للموت وكذلك المكوّن العقيدي، وأخيراً المكوّن السلوكي الذي هو ترجمة حقيقية لتلك الفلسفة أو تلك العقيدة.

إن أمامنا شخصية اليهودي الصهيوني الذي خبرناه عن قرب من خلال صراعنا معه منذ أن احتل أراضينا، وأمامنا شخصية الإنسان العربي وهو لا يكل ولا يمل من التقدم للدفاع عن هويته وأرضه مهما كانت الوسائل ضعيفة.

كلا الشخصيتين تقعان في دائرة السؤال عن فهم كل منهما للموت وأثر هذا الفهم على السلوك الصدامي المستمر منذ أكثر من خمسين عاماً والذي يتجلى عنفه هذه الأيام - من عام 2002 - بما يحدث في فلسطين من اجتياح صهيوني ورد استشهادي عليه. ومن الطبيعي ونحن في هذا الإطار أن نبتعد عن الشعارات والعواطف، ونقترب إلى التحليل حتى نصل إلى فهم حقيقي لبنية هاتين الشخصيتين النفسية والفكرية والعقيدية.

كيف تنظر الشخصية اليهودية الصهيونية للموت؟

من المعروف أن الموت والحياة يصنعان لدى أي إنسان موقفاً، ولكن هذا الموقف يتشكل عبر نماذج من التربية، قد تكون دينية وقد تكون فكرية، وربما تكون مادية ليس لها علاقة بالأبعاد الروحية أو النفسية.

والشخصية اليهودية تلقت تربية عقيدية فكرية نفسية أوصلتها إلى موقف محدد من الموت، هذا الموقف لا يتغير ولا يتبدل لأنه عجن مع الشخصية حتى أصبح أهم سماتها، أما في الجانب العقيدي فقد ركزت التوراة وكذلك التلمود على السمة

الخاصة لليهودي، فهو من شعب الله المختار، بل هو أهم من الملائكة حسب التلمود. وهو يتماهى مع الله حتى يصبح في حل من الخضوع لقوانينيه وناموسه، إذن ما معنى الموت وأي شيء بعد الموت؟

فمن خلال نصوص التوراة نرى أن الإله التوراتي يعد الشعب اليهودي المختار بأرض السمن والعسل والفردوس الأرضي المسمى أرض الميعاد، فإذا ما تحقق وجود اليهودي في هذه الأرض يعني أنه حقق وجوده في فردوسه، ورضي الله عنه، فهو لذلك لن يطمح إلى شيء آخر، حياته الخالدة هنا وليس في مكان آخر، لذلك هو حريص على أن يبقى حياً ولو عمّر ألف سنة.

لقد بث كتبة التوراة في أسفارها الكثير من التعاليم التي تنكر أي حياة أخرى، وقد جاء في سفر أيوب أن الإنسان عندما يموت يذهب إلى قعر الصل (الوحل) ليس أكثر، فليس هناك حياة أخرى أجمل أو أقبح، وعلى الرغم من القناعة الراسخة أن الموت لا بد حاصل إلا أن الشخصية اليهودية تعتبر هذا الموت بمنزلة النهاية النهائية لها، وعلى ذلك فإن الاستفادة من الوجود الدنيوي يجب أن يصل إلى أقصى درجاته، على اليهودي أن يتمتع بالدنيا حلالها وحرامها بكل ما أوتي من قوة، لأنها هي الفردوس وليس سواه، وهنا فإن الموت يعني القضاء على التمتع بالدنيا، القضاء على النعيم الجسدي والنفسي، ولذلك فإن الموت يصبح العدو الأول للشخصية اليهودية، فهو مكروه وهو قبيح بكل ما تعني الكلمة من معنى، ولعلك حين تذكر كلمة الموت أمام تلك الشخصية فإنها إما تتوتر أعصابها حتى تصل حد الجنون، وإما أن تتخاذل فتسقط منهارة أمام أول مواجهة يفترض فيها الموت، وقد عملت التربية الصهيونية كل جهودها كي تتوتر الشخصية اليهودية حين ذكرها للموت لأن هذا التوتر يعني الجنون، وعندما يمتلك المجنون أقوى أنواع الأسلحة فإن ذلك يعني أن القتل والتدمير والتعذيب والتخريب هو حق لهذا المجنون، ولذلك نرى الجنود الصهاينة يقتلون الأطفال والشيوخ والنساء ليعبروا عن توتر عصبي جنوني عالٍ سببه ترقب الموت أو توقع حصوله في كل لحظة.

وتصبح المعادلة لدى هذه الشخصية اقتل قبل أن تموت، اقتل حتى تحافظ على فردوس حياتك. ولعل هذه المعادلة تخيم بظلالها على معظم أفراد التجمع الصهيوني إن لم نقل كلهم.

فالجندي أو المستوطن الذي يقتل يشكل قتله حالة نفسية سوداء لدى الجميع لأنهم يعتبرون الموت نهاية المطاف، وهذه بحد ذاتها تشكل في النفس اليهودية الصهيونية أكبر خسارة في الحياة اليهودية، إن الجميع يبكون والجميع يولولون، ليس حزناً على فراق فحسب، إنما على تلاشي الأمل كلياً واللاعودة نهائياً ولو حتى في مخيلة الغيب.

وما يُرى من انعكاس موت جندي صهيوني أو مستوطن على المؤسسة الحاكمة في الكيان يدلل بشكل ما على مدى فاعلية عقدة الموت في الشخصية اليهودية، إن مقتل أقل من عشرين صهيونياً في مواجهات بضعة أشهر أدت إلى تخبط واضح في التجمع الصهيوني وأحزابه وحركاته ومؤسساته، وبعد أكثر من سنة ونصف على المواجهات مع الكيان الصهيوني ازداد عدد القتلى الصهاينة بشكل أرعب جميع من في الكيان، وهذا أهم سبب دفع شارون للقيام باجتياح جديد للضفة والقطاع، والموت الذي ينال الجيش والمستوطنين قد يدفع إلى تغيير الحكومة لولا أن شارون أدرك أنه لا بد من القيام بعملية عسكرية واسعة النطاق حتى يدرأ سقوطه.

وهذا الوجه من الحالة يدفع السلطة الصهيونية إلى مزيد من القتل والتدمير والإعدامات الجماعية والتصفيات الواسعة، فبحسب استراتيجية الفكرة الصهيونية يجب أن يموت العربي ولا يموت الصهيوني، يجب أن تنهى حياة العربي لأنها رخيصة بينما يجب أن يُحافَظ على حياة اليهودي لأنها مقدسة إلى أعلى درجات التقديس لأنه لا تعويض عنها إذا فُقدت وتلاشت.

أما الوجه الآخر للموت في إطار هذا الصراع، أما متى يكون الموت جميلاً فهذا يقودنا إلى دراسة الشخصية العربية وهي تواجه الطرف الصهيوني.

صحيح أن العربي في فلسطين لا يمتلك ما يمتلكه جيش الاحتلال والمستوطنين ولا يمتلك العتاد الذي يصل إلى السلاح النووي والبندقية المزودة بالليزر والأشعة تحت الحمراء، لكنه يستمر بالاندفاع للمواجهة.

قالوا: إن الأمهات الفلسطينيات يدفعن أبناءهن إلى الموت لأنهن مجنونات.

طبيعي أن نسمع هذه الأحكام الصادرة عن أناس لا يفهمون من الموت سوى التلاشي والنهاية الأبدية، فهم لا يفهمون أن للموت فلسفة وضعية لدى اليهود، وأن للموت عقيدة سماوية لدى العربي، فحتى العربي العلماني الذي لا يؤمن بالغيبيات يرى في موت الإنسان العربي وهو يتصدى للصهاينة شهادة تفوق قيمتها كثيراً من القيم، شهادة لو حللت معناها ترى أنها ترتبط بمفهوم خاص جداً لم يفهمه ولن يفهمه إلا من كان على تماس مباشر بمفردات العقيدة التوحيدية التي تميزت بها المنطقة العربية دون سواها.

وعودة إلى السؤال الذي ينتظر جواباً نقول: إن العربي كأي شخص في الوجود صنعت العقيدة الإسلامية وكذلك التاريخ فيه موقفاً وجودياً من الموت، هذا الموقف يتلخص في أن الموت نقلة إلى حياة أخرى، إلى حياة أجمل يكون سبيلها التضحية والانتقال من العناء إلى الرضا والراحة، انتقال إلى الضمير السعيد الذي يعرف أن ما قدمه من جسد على مذبح الكرامة هو ارتقاء فوق الماديات والمغريات، فوق أقصى درجات النعيم الدنيوي والسعادة الجسدية المؤقتة.

لماذا يندفع الإنسان المسلم يومياً ليواجه الرصاص والقتل؟ هل لأن حياته رخيصة؟ وهل تدفع الأمهات أبناءهن إلى المواجهة والموت بسبب كراهية للأبناء والتخلص منهم؟ أم أن الذي يندفع تربى في منزله على فهم عقيدي خاص لمعنى الشهادة وكذلك في مدرسته ومسجده، ما الذي يعنيه أن تبعث والدة الشهيد محمد فرحات لينفذ عملية استشهادية ضد العدو الصهيوني وتخرج على شاشات التلفاز لتروي قصة الليلة التي قضتها معه وهي توصيه، ثم تروي قصة وداعها له وانتظارها حتى تسمع خبر العملية الناجحة التي نفذها، واستشهد فيها، ثم تتحدث باعتزاز

بشهادة ابنها واحتسابها عند الله سبحانه وتعالى، وقس على ذلك أمهات أخريات من شعب فلسطين!!

ألم يصبح مفهوم الشهادة على مدى أربعة عشر قرناً مقترناً بمعنى الجهاد والمجاهدة، ألم ترتبط هذه التربية العقيدية بشخصية الرسول - صلى الله عليه وسلم - وشخصية المسيح - عليه السلام - والأنبياء الذين جاهدوا ضد الجبروت والطغيان والظلم، إذاً لماذا جاهدوا؟ لماذا أقبلوا على الموت الجميل ورفضوا الموت القبيح؟ أليس ذلك مدعاة للتساؤل ومراجعة الأقوال والأفعال، لقد تعلم العربي والمسلم وهو يواجه المحتل أن من يطلب الموت توهب له الحياة، أليس في ظاهر النص تناقض صارخ؟

نعم إنه تناقض إذا توقفنا عند حدود اللغة دون ظلال ودون عودة كاملة إلى حقيقة هذا الفهم وحقيقة مستنداته العقيدية.

عندما تقف الشخصية اليهودية الصهيونية وكذلك الشخصية العربية الإسلامية أمام الموت فإن الصورة تختلف وتتناقض تناقضاً كلياً، فالصهيوني يرى الموت أسود كالوحش المفترس، يراه أقبح صورة يمكن أن يتخيلها العقل، فلذلك يحاول أن يتحصن وراء سلاحه المتطور ووراء السترة المعدنية الواقية، ووراء دبابته جيدة التسليح والتصفيح، لا يستطيع المواجهة المباشرة لأنه يرى في الحجر صرخة موت، ويدرك أن لحظة الموت لا يجب أن تأتي ولا يجب أن تقع، فلذلك يقدم على القتل للطرف الآخر دون أي اعتبار لشيء إلا ما كان فيه بقاؤه حياً.

أما الشخصية المسلمة المؤمنة المترسخة فيها عقيدة الجهاد ضد الظلم والاستعباد فإنها تقبل على الموت وهي تراه صديقاً حميماً سوف ينقلها إلى الحياة الأفضل، فلذلك يندفع دون دبابة مسلحة ولا يتخفى متمترساً وراء الساتر الإسمنتي المسلح، وليس على صوره سترة معدنية واقية، وبمعنى آخر يرى الموت قادماً في أي لحظة فليكن طالما أن هذا الموت قادم عاجلاً أم آجلاً، وليكن الموت عزيزاً كريماً وليس ذليلاً خجولاً.

ونعتقد أن التاريخ الذي يتمثله المسلم في وجدانه ليس تاريخ جبناء تحصنوا وراء قلاع وانكفؤوا وراء أنفسهم، إنما هو تاريخ مجاهدين، قدموا قوافل الشهداء دون توقف حتى حققوا في زمانهم إنسانية الإنسان وكرامة البشرية، ولم تكن أهدافهم منحصرة في دائرة الدنيا، وإلا لكانوا اكتفوا بما حصّلوه من كنوز الأرض، إلا أنهم اندفعوا ليرسموا معالم القيم والمبادئ السامية انطلاقاً من موقف ثابت يرى في الحياة الدنيا طريقاً إلى الآخرة، ولم يروا الموت نهاية النهايات، وهكذا يمكن لنا أن نرسم معالم الشخصيتين في دائرة الصراع الطويل، ولكننا حتى لا نكون ديماغوجيين نرى الصراع الدموي الحاصل بين العرب أصحاب عقيدة الجهاد وبين اليهود الصهاينة المحتلين الغاصبين لن يكون قصير المدى ولكنه وعلى الرغم مما نشاهده من اجتياحات وقتل وتدمير سيحسم لصالح من يرون الموت جميلاً، ولن يكون لصالح من يرون الموت قبيحاً، وهذه معادلة إن لم نحس بها اليوم بكل معالمها سوف يكون لها وضوح المعالم كلها، ويكفي أن نتذكر المجاهد الصحابي الذي اخترق سهم صدره فصاح بأعلى صوته. فزت ورب الكعبة، فما معنى الفوز وهو يلفظ النفس الأخير، أندري ظلال هذا الفوز أم لسنا معنيين أن نفهم؟

ثانيا: فلسفة الرعب مفهومٌ لتعديل ميزان القوى:

وإذا كان الموت من أهم المفاهيم التي تسيطر على الشخصيات المتصارعة وخاصة الشخصية الصهيونية، والشخصية العربية الفلسطينية في مسار الصراع، فإن مفهوماً آخر لا يقل عنه أهمية يلعب دوراً حساساً وهاماً في هذا الصراع الدائر والمستمر. وهذا المفهوم هو الرعب بكل ما يعنيه من معنى فلسفي نفسي.

ومن المعروف أن شيئاً من الرعب يستطيع أن يشل عدوك ويربكه ويفقده توازنه مهما كان يمتلك من أسلحة تفوق أسلحتك كماً ونوعاً.

من أين يأتي الرعب؟ هل هو دافع حقيقي أم مكتسب؟ ما علاقة هذا الرعب بمصير المخلوقات؟من ينظر إلى واقع الأمور التي تحدث في الصراع العربي الصهيوني لا بد له أن يتوقف طويلاً عند بعض المظاهر النفسية والاجتماعية السلوكية التي برزت في التجمع الصهيوني من جهة، وفي المجتمع العربي الفلسطيني من جهة أخرى.

في إحدى الحالات تصل في يوم واحد ألف مكالمة هاتفية إلى مراكز الشرطة والأمن في نهاريا وحيفا والخضيرة وتل الربيع وغيرها من المدن، جميعها تصرخ بأن (انتحارياً) مر في الشارع يحمل عبوات ناسفة أو قنابل أو حزمة متفجرة يتخنصر بها. ويهرع رجال الأمن هناك وهنا، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن العذاب النفسي مؤلم وشديد.

في جميع الطرقات والشوارع كل الناس يتلفتون يمنة ويسرة وإلى الخلف وإلى فوق وتحت يسيرون كمن يتخبطهم الشيطان.

رجال الأمن يشتبهون برجل يلبس ثياب حاخام ويوسعونه ضربا، وهو يقسم أنه حاخام. يحاولون انتزاع لحيته ظناً منهم أنها مستعارة، فيصرخ لست إرهابياً لست مخرباً، وبلغة عبرية واضحة.

وبعد جهد يتأكدون من هويته فيطلقون سراحه، ويهرعون يفتشون عن غيره لعلهم يجدون ضالتهم المنشودة.

ومعلوم أن العمليات الاستشهادية التي وقعت تباعاً اخترقت كل الحواجز الأمنية الصهيونية. وشعر الصهاينة أنه لا يمكن القضاء على هذه الظاهرة، وبسبب ذلك سيطر الرعب الكامل على التجمع الصهيوني بحيث بات يظن كل فرد أنه سيكون ضحية لعملية استشهادية كالتي حدثت.

في المستوطنات الصغيرة والكبيرة تُغلق الأبواب، ويمنع الأولاد من النزول إلى الطرقات، مشرفو المدارس يوصدون النوافذ والبوابات الكبيرة، والمدرسون لا يعرفون ماذا يقدمون من مواد الدراسة، إضافة إلى هروب المئات من المستوطنين إلى المدن الداخلية. أو خارج الكيان، الجميع يترقب وينصت لعل انفجاراً يقع هنا أو جسماً بشرياً يتشظى هناك.

على بوابات العبور البنادق موجهة باتجاه راكبي الحافلات العرب وغير العرب، جندي واحد فقط يقترب من المواطنين يأخذ التصاريح والبطاقات ويعيدها، وبقية الجنود يصوبون البنادق والرصاص في بيت النار يكاد ينطلق، إشاعات هنا

وهناك فلا نوم ليلاً، أو عمل نهاراً، فإذا وقعت حاوية القمامة مصادفة من خلف عربة راح بعضهم يقفز من الشرفة لأن الصوت كان عالياً كصوت الانفجار.

وبالمقابل يزداد عدد الخيام عند الفلسطينيين الذين تنسف بيوتهم وبساتينهم ساعة وراء ساعة، وتعيد قصة التشريد الأولى عام (48) سيرتها من جديد، لكن الوضع مختلف تماماً فقد تساوى لدى الناس الموت والحياة... فلا فرق.

وباختصار فإن صاحب الوطن لا يرتعب ولا يخاف لأن الوطن موجود بأهله وليس بالغرباء، وهؤلاء الصهاينة الذين يعيشون حالة الرعب ليسوا أصحاب وطن، فهم غرباء مهما كذبوا.

من يتجذر في وطنه لا يرى في الاستشهاد أمراً مرعباً، فالوطن أمام الروح أغلى بكثير. وكذلك فإن أصحاب الحق في الأرض يتسارعون نحو الاستشهاد خوفاً على الوطن من الضياع، أما المرتعبون من الموت فيتسارعون إلى الاختباء في بروج مشيدة، ويلاحقهم الموت حتى لو ارتقوا إلى أبواب السماء بسلم، فلا الوطن المستعار يحميهم، ولا التزييف والتضليل يعيدان لهم الثقة بأنفسهم.

من هنا يمكن أن نعود إلى السؤال الأول هل تعدل فلسفة الرعب ميزان القوى؟ وهل دافع الرعب طبيعي أم مكتسب؟ ما علاقة هذا الرعب بمصير المخلوقات؟

منذ منتصف الخمسينات بدأ الصهاينة بمشروعهم النووي، وجميع الأوساط المختصة وغير المختصة تعرف أن الكيان الصهيوني يمتلك الآن أكثر من مائتي رأس نووي، بينما الفلسطينيون وجميع العرب لا يمتلكون رأساً نووياً واحداً.

إذن لماذا السلاح النووي؟:

وبعيداً عن استيراتيجية ما يسمى بالردع النووي، والقوة المتفوقة نرى أن أهم دافع لدى الصهاينة وراء تكديس السلاح النووي هو الرعب، الرعب الذي يتغلغل في خلايا العقل الصهيوني ودمه وشرايينه، يتغلغل في الشعور واللاشعور اليهودي التحريضي الذي يدرك صاحبه أنه بسبب جرائمه عبر التاريخ جعل جميع البشر يكرهونه ويربطونه بالشر الخالص، فهو من تشير إليه كل الأصابع بأنه قاتل الأنبياء، عدو الشعوب، عدو الخير، وبسبب ظنه أنه خير من المخلوقات جميعها وحتى

الملائكة والجن جعل كل المخلوقات تراه شاذاً في تفكيره وسلوكه، ولهذا قوقع نفسه في الرعب وراح يمتلك أسباب التدمير كلها في مواجهة الإنسانية جميعها.

إن هذا يقودنا إلى مسألة أخرى ترتبط بسابقتها ارتباطاً أساسياً، فلأن هذه الشخصية ترى نفسها فوق الجميع، ويكرهها الجميع، فهي لاشك أسيرة عقدة نفسية تقودها إلى ما يسمى المبالغة في القتل، فهي ليس لديها حرج بسبب قتل طفل أو امرأة أو شيخ، أو رجل دين. فهم والمقاتل سواء، والرعب المركب يدفع هذه الشخصية لقتل أي مخلوق أو إلحاق الضرر بأي عائق يقف في طريقها لتنفيذ جرائمها، ولهذا تقدم على اقتلاع الحجر والشجر، وتسميم المياه ونسف البيوت من جذورها، وما دامت أسيرة هذا الرعب فلا شك أنها تتخبط في كل اتجاه، وبعملية عكسية يستطيع صاحب الأرض تنويع مصادر الرعب، فكما هو موجود في أعماق هذه الشخصية يستطيع المدافع عن أرضه أن يرد برعب من نوع آخر، أو يستفز الرعب الكامن ليحوله خوفاً كبيراً مرتداً على العقل والسلوك والحياة اليومية لهذه الشخصية، وفي هذه الحال فإن تلاحق العمليات الاستشهادية يومياً وإيقاعها إصابات بالغة في صفوف الصهاينة ينقل دافع الرعب من الاندفاع إلى الأمام إلى التراجع والانكفاء إلى الخلف، وهذا ما لمسناه فعلاً على أرض الواقع في المعارك الدائرة في فلسطين.

مقتل الفلسطيني على يد قوات الاحتلال كان يتبعه قتل صهيوني على يد أبناء الانتفاضة. ثم ما لبث إلى تبديل الدور وترسيخه، بمعنى أن على المحتل أن يتوقع قتله في أي لحظة حتى لو لم يبادر هو أولاً بالقتل، وهذا هو الذي جعل عامل الرعب يلعب دوراً بارزاً في الصراع، فما عاد السلاح النووي ينفع في مثل هذه الحالة، ولا الأسلحة الفتاكة عادت تجدي في الرد على من تساوى لديه الموت بالحياة.

وما تبقى أمام الصهاينه هو فقط دفع كافة أفراد الجيش الصهيوني نظاميّيه واحتياطيّيه الذين يبلغون حوالي (300) ألف جندي إلى إعادة احتلال الضفة وغزة، وارتكاب أبشع المجازر الجماعية، وفرض حالة جديدة من الاحتلال المكثف، وعلى الرغم من ذلك فإن عامل الرعب سيبقى مهماً لدى الإنسان الفلسطيني في صراعه

المتجدد وغير المتوقف حتى لو أعاد الاحتلال كل جنوده وأسلحته إلى الضفة والقطاع.

وبمعنى آخر فإن الرعب الذي دفعهم لصنع السلاح النووي ه [illegible] ه وكذلك لامتلاكهم أكبر ترسانة أسلحة في المنطقة أصبح رعباً من نوع آخر [illegible] رعب من المفاجآت المتوقعة في كل لحظة، أو ما يسمونه بلغة علم النفس [illegible] الترقب، المفاجآت التي يظهر فيها استشهادي فجأة ويفجر جسده في عمق [illegible] صهيوني، ويحدث ما يحدث في جنود الاحتلال والمستوطنين، والمنشآت التجارية [illegible] ات، حافلات الركاب. ولقد كنا نسمع تصريحات لزعماء الكيان وهم يبررون عجزهم أمام استشهاديي الانتفاضة، ماذا نفعل إذا كان الذين نحاربهم يندفعون [illegible] الموت بجنون ومحبة ورغبة.

لقد ابتكر الصهاينة ما أوهمهم بأن الذي صنعوه سيجعلهم في [illegible] وإذا بالرعب يصبح أقوى سلاح رادع، فسقطت قيمة السلاح النووي، وباتت القنبلة البشرية أخطر من كل الابتكارات العسكرية في المنطقة.

لقد كان عامل الرعب في الاستيراتيجية العسكرية الصهيونية من أهم العوامل التي أريد لها أن تضمن تدفق المستوطنين الجدد إلى فلسطين، وإذا بعامل الرعب المعاكس يدفع أكثر من مليون صهيوني للخروج من فلسطين والهجرة إلى بلاد أكثر أمناً وخالية من هذا الرعب.

وقد أريد لهذه الاستيراتيجية أن تحبط الإنسان العربي، وتجعله ينظر إلى نفسه نظرة دونية. وقد غفل الصهاينة على الرغم من كل دراساتهم عن الإنسان العربي عن جانب مهم في الشخصية العربية، وهذا الجانب هو المربط بفلسفة الاستشهاد إن صح التعبير. وهذه الفلسفة تلغي لديه فلسفة الرعب الذاتي، فهو في قرارة نفسه يدرك إدراكاً كبيراً راسخاً أن الدفاع عن الأرض والعرض والعقيدة والمبادئ والمقدسات لا يكون بلا ثمن، وأقل هذا الثمن أن يضحي بجسده رخيصاً لانتصار مبدئه وأهدافه.

وإذا وضعنا الشخصية الصهيونية تحت هذا المحك فإننا سنجد العكس تماماً.

ففلسفة الرعب الذاتي موجودة في هذه الشخصية في بعدها التوراتي الأسطوري، وفي بعدها الفلسفي الصهيوني الوضعي، وهذه الفلسفة أي: فلسفة الرعب تلغي لدى الشخصية الصهيونية فلسفة الاستشهاد، بل تكثف فلسفة الموت السوداء، وما بين الموت الأسود والاستشهاد فرق واسع شاسع، الموت نهاية المطاف، والاستشهاد بداية مطاف، ولكنهم لا يفهمون ذلك، ولا يريدون أن يفهموا ذلك، ولاشك أن الرعب الذاتي لا ينفصل عن حدث الموت، بل يمتزج فيه ليشكل حالة هاجس جنوني، وهذا ما يختزن في الشخصية الصهيونية، وهذا ما يطفو على السطح عند حالات المواجهة الحقيقية مع أصحاب الوطن، وهو ما نلمسه عن كثب في هذه الأوقات من صراع مع الصهاينة المحتلين.

ولا شك أيضاً أن الرعب الذاتي يصطدم بفلسفة الاستشهاد، فلا يستطيع الدخول إلى الشخصية لأنها محصنة بفلسفة قدرية لم يصنعها بشر، بل صنعها إيمان عقيدي ورسالة إلهية تجلت بشكل واضح في مفهوم الجهاد، والذي لم تعرفه أية عقيدة أخرى أو فلسفة وضعية مهما بلغت من عمق وانتشار.

الفلسفة الوضعية ترى الاستشهادي مجنوناً يقدم على الانتحار لأنها تتمثل البعد العقيدي ولم تلمسه ولم تحلله لأنها تستصعب تحليله، أما الحكمة الإلهية والقوانين الربانية فقد أوضحت أن نهاية كل مخلوق موت جسده، فإن كان لا بد من موت الجسد فلماذا يموت الإنسان عاجزاً سكونياً غير فاعل لا سيما إذا كان يتعرض يومياً للسلب والتعذيب والطرد والحصار والقصف والتدمير الجسدي والنفسي، ولسنا نرى أجمل وأروع من قوله تعالى وهو يصف حالة الصراع بين أصحاب الحق وأصحاب الباطل.

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء 104].

وعود على بدء فإن رؤيتنا لواقع الصراع مع الاحتلال الصهيوني هو واقع أبعد مما يمتلك كل طرف من أسلحة، إنه واقع صراع الإرادات، صراع النفوس، صراع بين فلسفتين متناقضتين كلياً، وليس مستغرباً أن نطرح منذ البداية سؤالنا عن فلسفة الرعب وتعديلها لميزان القوى، نعم إنها تقول ميزان القوى، قنبلة الرعب ليست بضع شظايا تخترق الأجساد، أو قنبلة نووية تدمر المدن، وتقضي على الحياة المادية، قنبلة الرعب تميت النفوس والأعصاب، وتبقي الأجساد، تشل العقل وتبقي هيكل الدماغ متجسداً، تفقد الأطراف حركتها، وتفتك بأعصابها، وتبقي على دمها وعظمها ولحمها، فأي توازن للرعب يريدون؟ وأمام أي توازن للرعب يصمدون؟

ثالثاً: أزمة التبرير الديني للإجرام المرضي الصهيوني:

الإجرام كمفهوم ظاهرة عرفتها البشرية منذ قتل قابيل هابيل، والطبيعي في الإنسان إذا أقدم على جريمة قتل لا بد أن يندم لأنه أزهق روحاً، وسجن أخرى وعذبها.

والله الذي عرفته أكثر الأديان إله يحب الحياة ويحض على سلامتها، ويرفض منطق القتل والاعتداء والإجرام، ولأنه كذلك فقد كان من الطبيعي في الإنسان أن يلبي نداء الحق المطلق فيبتعد عن القتل ومسببات الإجرام والقتل.

وحين ندرس الشخصية اليهودية الصهيونية ومركباتها العقدية والتاريخية والنفسية نجد نمطاً فريداً من نوعه من الشخصيات نادراً ما نجد ما يشبهه أو يماثله في الكرة الأرضية، فالإجرام اليهودي ليس طبيعياً لأن ما يتبعه من ردة فعل لا ينم عن ندم أو أزمة ضمير بل العكس تماماً.

فما نجده في العقيدة التوراتية وكذلك التلمود والفكر الصهيوني الحديث يفصح عن حالة سعيدة لدى الشخصية اليهودية عندما تقتل أو تنفذ إجراماً دموياً بحق الآخرين.

لماذا تكون ردة الفعل حالة سعيدة؟

هل الخالق الذي تعرف عليه اليهود غير الخالق الذي تعرف عليه أصحاب الديانات الأخرى؟

هل يحض الإله على ارتكاب الجريمة؟

وهل يتلذذ بسفك الدماء؟

وهل في الشخصية اليهودية مخزون قديم لشخصية إله دموي شرير؟

هل خلق الإله التوراتي اليهود أم أن اليهود صنعوا إلههم على قدر مزاجهم وتطرفهم وميلهم الفطري إلى الإجرام؟

وهل جاءت تعاليم التلمود مكملة لتعاليم التوراة الحاضّة على القتل؟

وهل كانت تعاليم زعماء الحركة الصهيونية الحديثة سوى استمرار لمنهج التوراة الدموي ورؤية التلمود العنصرية الإجرامية؟

أسئلة كثيرة تفرضها المعطيات تفرضها الواقعية الشاهدة على الإجرام اليهودي الصهيوني المتميز والفريد من نوعه.

الإجرام اليهودي يصبح حالة مرضية مأزقه التبرير الديني التوراتي التلمودي وكذلك التبرير الفكري الصهيوني منذ هرتزل وحتى وقتنا الحاضر.

وما دام أن الإله التوراتي هو إله أصحاب التوراة، فإن الحالة الإجرامية ليست حالة فردية إنما هي حالة جماعية يهودية شاملة.

والواقع أن الديانة اليهودية تميزت عن غيرها بإيجاد تبرير إلهي للإجرام، فقد أخذ كاتبو التوراة وكذلك أنبياء التوراة (حسب ما صوروهم) على عاتقهم حماية وتبرير الإجرام باعتبارهم يمثلون الإله التوراتي يهوه.

وهذا التبرير ينسجم على أكمل وجه مع المشروع الديني السياسي، إذ ترى التوراة أنه لا يمكن تحقيق الطموح اليهودي إلا من خلال استخدام العنف الإجرامي مع الآخرين.

وحين نسير مع أسفار التوراة العبرانية نرى أن يهوه الإله القبلي اليهودي يحض على القتل والإجرام، ولا يفرق بين قتل الرجل أو الطفل أو البقر والماشية، ونستطيع أن نلحظ أن يهوه الذي صنعه اليهود يتلذذ حين يرى الدماء تجري وتزهق الأرواح (هكذا يقول يهوه رب الجنود) هكذا يقول يهوه: اذهب واضرب عماليق وحرموا كل

ماله ولا تعف عنهم بل اقتل رجلاً وامرأة وطفلاً رضيعاً وبقراً وغنماً جملاً وحماراً) وهذا ما ورد في سفر صموئيل الأول من التوراة العبرانية.

وإذا تفحصنا سفر يشوع وهذا السفر الأول بعد أسفار موسى الخمسة نراه ملحمة إجرامية دموية، على الرغم من أن بعض الدارسين يرفضون ما جاء في هذا السفر ويعدونه متخيلاً، إلا أنه في الأحوال جميعها يفصح عن العقلية اليهودية المنسجمة مع حب القتل والذبح والإبادة، ففي هذا السفر أكثر من ثلاثين مذبحة يُجريها يشوع وجماعته بحق السكان الأصليين في أرض فلسطين. وإن كانت هذه المذابح مجرد تخيّل من كاتب التوراة إلا أنها بلا شك تبين مراراً وتكراراً أن رب الجنود يهوه كان هو الذي يقود هذه الجماعات من الرعاع للذبح والقتل.

فإذا كان هذا الإله المدعو يهوه يشكل في العقلية اليهودية قائداً عسكريا محترفاً يخوض غمار المعارك الإجرامية دون أي إحساس إنساني فما بالنا عندما نرى أتباعه وهم ينفذون أبشع المجازر بحق الإنسانية، وبحق كرامة البشر، وحقهم في الحياة.

ليس من المستغرب أن يكون الإجرام اليهودي المعاصر مبرراً من قبل المؤسسة الدينية اللاهوتية باعتبارها تمثل الإله يهوه الذي عرفنا صفاته من خلال سفر يشوع وصموئيل وغيرها من الأسفار، إن من الطبيعي حتى بالنسبة للإنسان الذي لا يؤمن بإله أن تكون لديه أعراف إنسانية وتقاليد تمنع القتل غير المبرر لكن الشخصية اليهودية التي تؤمن بإله خاص جداً اسمه يهوه تصبح رهينة رهبته وأقواله وتعاليمه الصادرة لأنبيائه الخاصّين الذين يقودون اليهود باتجاه الإجرام والإبادة والفتك بالمخلوقات البشرية وغير البشرية، وحسبنا أن نتفحص العقل اليهودي لنرى صورة يهوه الإله وهو يحمل التوراة بيد والسيف باليد الأخرى ذلك السيف الذي يقطر دماً وتحت حدّه جثث أطفال ونساء وبقر وحمير وجمال.

إن هذا يذكرنا بما قاله فلاديمر جابوتنسكي الأستاذ الروحي لليهود المتطرفين حينما قال: إن التوراة والسيف أنزلا معاً من السماء، ولذلك نرى أمثال بيغن وشامير وشارون يقدسونه ويعدونه نبياً من أنبياء يهوه رب الجنود.

ولا تبتعد شرائع التلمود عن شريعة التوراة العبرانية، فالذين شرحوا التعاليم اليهودية هم كبار حاخامات اليهود الأوائل ويعدون أكثر أهمية من الأنبياء باعتبارهم وضعوا التشريع التفصيلي للعقيدة اليهودية.

يقول الحاخام شار: إن الكاهن يمكنه أن يبارك الشعب بتلك اليد إذا كان المقتول غير يهودي، إن قتل غير اليهودي لا يُعد جريمة بل يُعد فعلاً يرضي الله.

ويقول التلمود: أقتل الصالح من غير اليهود، ومحرم على اليهودي أن ينجي أحداً من بقية الأمم من هلاك أو يخرجه من حفرة يقع فيها لأنه بذلك يكون قد حفظ حياة أحد الوثنيين.

وجاء في التلمود: مباح قتل غير اليهودي، القتل أمر واجب عند التمكن من إجرائه، ومن العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر لأن من يسفك دم الكافر يقرب قرباناً إلى الله.

وجاء في التلمود إن من يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود في الفردوس والجلوس هناك في السماء الرابعة.

ويقرر التلمود استحقاقات الموت على غير اليهود لأسباب يُعيدونها إلى تنزيل قدري من الرب.

إن تعاليم التلمود مقدسة كما هي تعاليم التوراة، وقد عد بعض الأحبار أن ما في التلمود أهم مما جاء في التوراة، وعلى من ينتمي لليهودية أن ينفذ تعاليم طبقة الكهنوت وإلا فإنه يخرج على الدين اليهودي.

فإذا كانت تعاليم التوراة والتلمود تتلبس العقل اليهودي تلبساً كاملاً فكيف يكون حاله مع الجانب الإجرامي الإرهابي؟

إن التعاليم التي تنتشر في هذين الكتابين تركز على عقيدة القتل وتجعلها أساسية في حياة أتباع اليهودية، ولذلك فإن الإجرام المرضي يقع في دائرة التبرير الديني، فإذا كان يهوه وإذا كان أنبياء التوراة وإذا كان التلمود إذا كانت جميعها تنفذ تعاليم القتل باعتبارها تشريعاً، فإن ما يقوم به أي فرد يهودي لا يشكل خطأً أو جريمة إذا كان

المقصود به قتل كل من هو ليس يهودياً، ولا يشكل في هذه الحالة ثقلاً نفسياً أو وجدانياً على مستوى الفرد أو التجمع.

أما إذا نظرنا إلى ما خلفه الزعماء الصهاينة منذ أكثر من قرن من تنظيرات حول الإجرام والقتل فإننا نجده صدى واضحاً لتعاليم التوراة والتلمود، فحتى أكثر الزعماء الصهاينة ادّعاءً للعلمانية والكفر بالدين لا يبتعدون قيد أنملة عما جاء من إشارات وتعاليم إجرامية وتوراتية وتلمودية.

فهرتزل أبو الحركة الصهيونية السياسية يدعو إلى جمع الحيوانات (العرب) وإلقاء القنابل في وسطهم.

وبن غوريون لا يؤمن إلا بعقيدة الحرب.

وجابوتنسكي يدعو إلى قتل كل من يعترض على ملكية اليهود لأرض فلسطين، وقس على ذلك جميع زعماء الحركة الصهيونية علمانيين كانوا أم متدينين.

وبنتيجة واضحة نرى أن ثلاثة مصادر للإجرام هي بمثابة مقدسات لدى الفرد اليهودي، تكوّن في العقلية اليهودية دوافع نحو الإجرام، التوراة، التلمود، الفكر الصهيوني، وماذا يمكن إن تكون الشخصية اليهودية من دون هذه المصادر، الإله يهوه قائد عسكري دموي، وكتبة التلمود صفوة الحاقدين على الجنس البشري، والمفكرون الصهاينة خلاصة الإجرام اليهودي الغربي الحديث والمعاصر، فليس غريباً أن يكون الإجرام بأشكاله كافةً جوهر الشخصية اليهودية المعاصرة.

ومع ذلك كله فإننا لا بد من أن نعود إلى ما يسمى أزمة التبرير الديني للإجرام اليهودي، فهل حقاً يشكل التبرير الديني أزمة للإجرام، وهل فعلاً يشكل أزمة للشخصية اليهودية وهي تنفذ أبشع أنواع الجرائم؟

فإذا كان المقصود تخليص اليهودي من هكذا أزمة فإن الاستحالة تخيم بظلالها على كل من يريد أن يفتش عن حل لهذه الأزمة، إذاً كيف السبيل إلى الحل.

يرى بعض المفكرين ومنهم ماركس أن على اليهودي أن يتخلص من يهوديته، ماركس كان يهودياً ويعرف ما هو التاريخ اليهودي وما هو التوراة، وكذلك التلمود، فالدارس لهذه المصادر اليهودية يستنتج أن من يريد أن يكون إنساناً في دائرة الإنسانية

عليه أن يدفن التوراة والتلمود والفكر الصهيوني في صحراء النفايات، وعلى اليهودي إن أراد أن يكون بلا إجرام ولا عنصرية أن ينجو بنفسه من سيطرة عقلية التوراة والتلمود والفكر الصهيوني الأسود، لأن الوقوع تحت سيطرة هذا الثالوث غير المقدس يوقع الشخصية في أزمة نفسية مستعصية على الحل والشفاء.

قد لا نسمع صهيونياً يعبر عن وجود أزمة، وحتى في بعض الحالات قد يفاجأ بعض اليهود حين يسمعون عن أزمة تبرير ديني لجرائمهم، ولعل ذلك عائد إلى كونهم يعدّون ما يحدث أمراً طبيعياً ما دامت حياتهم عبر مئات السنين يتلبسها طابع إجرامي دائم، ولعل الأمر غير الطبيعي أن يعيشوا بلا إجرام حتى لو كان هذا الإجرام نفسياً وعقلياً ولم يخرج إلى حيز الواقع، وهنا لا بد من الإشارة إلى أن أزمة التبرير الديني للإجرام اليهودي تتفاقم وتزداد ترسخاً ما دام يوجد في التجمعات اليهودية أمثال الحاخام العنصري عوفيديا يوسف، وما دام يوجد بين التجمعات اليهودية من يمثل يهوه الدموي الإجرامي ينفذ تعاليمه وإرشاداته الحربية القاسية.

ويخطئ من يظن أن ما يسمى بالتيار العلماني الصهيوني يرفض يهوه وتعاليمه الإجرامية، وهو لا يرفض تصريحات من يمثله بينهم، فالجميع في الكيان الصهيوني يحترمون عوبيديا يوسف وأمثاله، بل يعدون تصريحاته مقدسة لا تقل قدسية عما جاء في التوراة والتلمود.

إذا فالأزمة مستمرة والإجرام الصهيوني مستمر.

وغبيٌّ من يظن أن اليهودي الصهيوني يمكنه التخلي عن طبيعته وطبعه فهو بُني على الإجرام وتربى تربية دينية عنصرية وسيظل تحت وطأة التبرير الديني حتى يتخلص من يهوديته تماماً وهذا هو المستحيل بعينه.

الإبادة الجماعية

وسرُّ التوافق بين القانون التوراتي والتطبيق النازي

مرة بعد أخرى تُخرج لنا الطبيعة الصهيونية إبداعاً جديداً قديماً في الإرهاب والعنصرية وما أكثر ما كتبنا عن التقاطعات بين هذه الطبيعة وبين النازية والعنصرية حتى بات الكثيرون يقولون: أليس لكم ما تتحدثون عنه سوى هذا الموضوع؟

كلنا أصبح مقتنعاً تمام الاقتناع بعنصرية هذه الصهيونية وممارساتها التي يندى لها الجبين الإنساني.

فماذا بقي لنكتب عنها وهل ما يُضاف على عنصريتها سوى عنصريتها؟

نعم.. فالعنصرية أعلى درجةً في سلم التمييز بين البشر، وأخطر ممارسة في سلم القتل الجماعي، لكنّ تطبيقات هذه العنصرية الدموية التي يطبقها الجيش الصهيوني في فلسطين جمعت وبشكل عجيب بين نص ديني تشريعي توراتي وبين ممارسة نازية حقيقة طبقها جيش هتلر عندما هاجم بولونيا عام (1943) في الحرب العالمية الثانية.

في الطريق إلى مدينة جنين يوم الاثنين والثلاثاء 1 و2 نيسان عام 2002 كان رتل من الدبابات والمصفحات الصهيونية يقف صفاً بانتظار الأوامر الشارونية بالتحرك، ووقف جنود صهاينة إلى جانب هذا الرتل يلبسون على أكتافهم أوشحة تتدلى على الجنبين، حمل كل منهم كتاب التوراة وراح يقرأ فيه ويهزون رؤوسهم المغطاة بالقبعة الصغيرة المعروفة.

لأول مرة نرى مثل هذه الصورة مباشرة على الشاشات الصغيرة ولكن القليل القليل من تنبيه لها ولدلالاتها.

ذكرت وكالات الأنباء أن شارون أعطى تعليماته لوزير حربه ورئيس أركان جيشه بأن يشرحا للجنود الصهاينة ما حدث عام 1943 عندما هاجمت القوات الألمانية بعض الأحياء البولونية، وطلب منهما أن يفهما الجنود بأنه عليهم تطبيق الأسلوب نفسه الذي استعمله النازيون، وكان التطبيق يقضي بقتل جميع من في الأحياء وإبادتهم إبادة كاملة، ويُقال: إن الأحياء البولونية المستهدفة آنذاك كان معظم سكانها من اليهود البولونيين.

بين الصورة الأولى، صورة الجنود الصهاينة الذين وقفوا يقرؤون التوراة بجانب رتل الدبابات وبين التعليمات للجنود الصهاينة بتطبيق خطة نازية قديمة للإبادة أمر مذهل إلى حد كبير.

والتفاتاً إلى الصورة الأولى كان لا بد أن نذكّر كل من ينتمي لهذا العالم العربي الإسلامي أن الكيان الصهيوني يفرض على المنطقة حرباً دينية عنصرية يستند فيها على قوانين توراتية للحرب، ويطبق أبشع أساليب القتل في التاريخ القديم والحديث.

انظروا إلى ما جاء في سفر التثنية وتحديداً في الإصحاح رقم 20 ومن الفقرة 10 إلى الفقرة 17.

(حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها للصلح فإن أجابتك إلى الصلح وفُتحت لك فكل الشعوب فيها يكون للتسخير ويُستعبد لك، وإن لم تسالمك بل عملت معك حرباً فحاصرها وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً التي ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا، وأما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب إلهك نصيباً فلا تستبقِ منها نسمة بل تحرمها تحريماً) (أي: تبيدها إبادة) تثنية 20: 10 ـ 17.

فهذا هو القانون الأساسي الذي وضعته التوراة في التشريعات الحربية لبني صهيون، فحسب هذا القانون هناك نمطان من الشعوب التي يحاربها بنو صهيون، شعوب بعيدة وشعوب قريبة، أما البعيدة فلها قانون يقول: استدعها للصلح فإن أجابتك تسخّرها وتستعبدها، وإن حاربتك عليك بقتل كل رجالها واستبقاء نسائها وأطفالها وبهائمها عبيداً وأرقّاء.

أما الشعوب القريبة فعلى الصهيوني أن لا يُبقي منها أحداً لا من الرجال والنساء ولا من الأطفال البهائم.

هكذا يقرأ جنود الاحتلال هذا القانون، يحفظونه ظهراً عن قلب، وإذا ما نُسيت كلمة منه على الجندي أن يعود إلى التوراة الدموي المقدس ويعيد حفظه وترسيخه في ذهنه، قوات الاحتلال اليوم تدفع بألف دبابة وناقلة جنود إلى مدن الفلسطينيين.

الضرب في كل اتجاه، نساء تقتل في منازلها، شباب يعدمون بالجملة، رجال دين يقتلون، بعضهم كان يقرع جرس كنيسة المهد في بيت لحم، وبعضهم كان يصلي عند مذبح الرب، ومساجد تقصف وتدمر بوّابات الكنائس، يدخلون إلى مباني جامعة النجاح وبير زيت يدمرون ما يدمرون، ويسرقون ما يسرقون، أجهزة الكومبيوتر المتطورة، فهي غنيمة حرب أمرهم الرب أن يغنموها، متاجر للذهب الأجهزة الكهربائية تُنهب في رام الله أغنى مدينة فلسطينية، ثم تقصف بالدبابات وتُدمر جميعها، تُقطع مياه الشرب عن الناس ليموتوا عطشاً، ويمنع التموين الأولي حتى يموت الأطفال جوعاً، تحتجز سيارات الإسعاف تمنع من إنقاذ الجرحى، ونقل جثث الجرحى، ونقل جثث الموتى، وتُدفع بعضها فتنقلب بمن فيها محترقة محطمة، كل هذه الصور يشاهدها العالم على الشاشات الصغيرة والمخفي أعظم، ولكن هذه هي الصور المكشوفة وتلك الصور المخفية ليست سوى تطبيق لذلك القانون التوراتي الذي قرأناه قبل سطور.

أما المفاجأة الأكثر إثارة أن النازية الهتلرية ابتدعت أساليب كثيرة لإبادة بعض الشعوب فالبولونيون من تلك الشعوب التي واجهت حرب إبادة نازية لم يسبق لها مثيل، في بعض الأحياء المكتظة في أطراف وارسوا أُصدرت الأوامر للجيش النازي بإبادة جميع السكان دون التمييز بين امرأة وطفل ورجل مسن وحيوان، أغلقت هذه الأحياء بالدبابات وجنود القوات الألمانية الخاصة، وصبت كل ما لديها من قذائف حتى أن قاذفات اللهب اشتركت في هذه الإبادة.

هذه الطريقة أعجبت كثيراً شارون والقادة العسكريين الصهاينة فبادر شارون إلى إصدار الأوامر ليتعلمها الجنود الذين سيدخلون رام الله وجنين وبيت لحم ونابلس والبيرة وليطبقوها حرفياً كما وردت في مذكرات بعض من عايشوا الحرب العالمية الثانية، وخاصة في بولونيا.

فكم هي المفاجأة كبيرة، قوانين التوراة كانت الدرس الأول للنازية الهتلرية، وتطبيقات النازية كانت درساً عملياً لجنود صهيون، والمصدر واحد والتطبيق واحد

والعنصرية الدموية يتفرد في صنعها النازيون والصهاينة، أليس هذا مدعاة للتأكيد بأن النازية وليدة التوراتية، وأن الصهيونية وليدة النازية.

ولا فصل بين الجد والحفيد فكلها سلسلة وراثية لا تنقطع ولا تنفصم عراها، فهل يعي بنو البشرية هذا الرابط الوراثي الوثيق بين التوراتية والنازية والصهيونية؟

وحتى لا يبقى شاهد على ما اقترفت النازية في أحياء بولونيا فقد اعتقلت جميع الصحفيين والمصوّرين، وقتلت بعضهم ولم يعثر على أي دليل إجرامي يدينهم، وظلت الأحداث أسيرة عقول بعض البولونيين الذين كانوا من البقية الباقية ممن نجوا من حرب الإبادة يروون ما حدث لتتناقله الأجيال.

واليوم تكرر الأساليب النازية في فلسطين، فالصحفيون يمنعون منعاً باتاً من الدخول إلى المدن التي يشن جيش الاحتلال حربه عليها، ومن يغامر منهم يلقى حتفه، ولن ننسى مقتل الصحفي الإيطالي، وجرح صحفيين آخرين، ولن ننسى كيف اعتقلت قوات الاحتلال عشرات الصحفيين والمصورين وأخفتهم في معسكرات لا يعلم مكانها أحد، إنهم يطبقون الدرس النازي فلا يريدون أن تظهر الإدانات، وتُكشف الجرائم، لا يريدون أن يعرف البشر ماذا يحدث في المدن الفلسطينية والمخيمات والقرى.

وحتى يُكتمل الدرس النازي فقد تعلم الصهاينة أن يمنعوا الناس من دفن موتاهم وقتلاهم، فهذا رجل وإلى جانبه امرأته وأمه سقطتا شهيدتين جراء القصف العشوائي لدبابات جيش الاحتلال وبقيتا يومين كاملين في غرفة أمامه وهو يناشد الجميع كي يدفنهما ولا من مجيب، وفي قلب مشفى رام الله لم يعد مكان يتسع لجثث فاضطر الهلال الأحمر وبعض السكان لحفر حفرة في حديقة المشفى وجعلوها قبراً جماعياً يدفن فيه خمسة وعشرون إنساناً، وهناك جثث تتناثر في شوارع خلفية ولا أحد يعلم مكانها، وقد تتفسخ وقد تنتشر الأوبئة لكن جنود الاحتلال قد حضروا أنفسهم لصنع محرقة قد يلقون فيها الشهداء والجرحى والأحياء.

وهذا هو استكمال الدرس النازي الذي درسوه وطبقوه.

لنعد إلى الأعمال النازية التي طبقتها في جميع بلدان أوروبا، التي وقعت تحت نير الاحتلال النازي، فبضع مئات من اليهود قُتلوا في الحرب مثلهم مثل أي مواطن بولوني أو أوكراني أو يوناني، عذب النازيون الجميع دون استثناء وحرقوا جثث الأموات دون تمييز. لكن الصهيونية التي تعودت أن تطبق قانون الكذب والإرهاب والترعيب ادعت أن محرقة نازية صنعها الجيش الألماني خصيصاً لليهود، وادعوا أن ستة ملايين يهودي راحوا ضحية هذه المحرقة، وانطلت الخدعة على شعوب العالم وابتزت دولها بالمال والاقتصاد وغيرهما وما زالت كذلك حتى يومنا هذا.

فإذا كان الصهاينة يشنون أشرس حرب على ماضي النازية بسبب هذه المحرقة الخدعة فكيف يُقدمون على محرقة حقيقية بحق الشعب الفلسطيني؟

كيف ينتقمون من شعب ليس له علاقة لا من قريب أو من بعيد بما حدث لشعوب العالم جراء الحرب النازية في الأربعينات، هل يصدق عقل أن تتمثل الصهيونيةُ النازيةَ فتجعل من الضحية جلاداً ومن شعب آخر ضحية؟

وإذا كان الصهاينة يفترضون أن اليهود كانوا ضحية النازية فهل يعقل أن يعكسوا الدور فيصبحون هم نازيين جدداً، ويصبح الشعب الفلسطيني تلك الشعوب التي اكتوت بالنازية وإرهابها ومجازرها؟

الواقع يقول لنا: إن الصهاينة يعرفون قبل غيرهم أن يهود أوروبا لم يتعرضوا للإبادة ولا إلى ما يسمونه محرقة، لأن المكتوي بنار هذه المحرقة لا يمكن أن يتمثل دور المجرم خاصة إذا كان أثر محرقته ما يزال موجوداً.

إن الحقيقة الفاضحة تقول لنا: إن النازية والصهيونية صنوان، النازية تعلمت الدرس من نصوص التوراة والتلمود، والصهيونية النازية تمثلت بأساليبها الإجرامية، وكلاهما يستلهم التعاليم والدروس من النص الإرهابي الأول وهو التوراة.

من قال إن الصهاينة يكرهون النازية؟ فلو كانوا يكرهونها حقاً لما تمثلوا أساليبها الإجرامية، ولو كانوا يكرهونها لما أمر شارون قادته العسكريين أن يدرسوا الأساليب

النازية التي استُخدمت في الهجوم على الأحياء المدنية في بولونيا وغيرها من البلدان الأوروبية، ثم يطبقونها على الأحياء الفلسطينية الآمنة المسالمة.

إن ما يحدث في فلسطين هو أندر ما يمكن أن يحدث لشعب في الوجود.

لكنّ للأقدار حكمتها، فاختيار الشعب الفلسطيني ليكون في مواجهة أعتى عنصرية في العالم ليس أمراً عادياً وقد يأتي الزمن الذي نفهم فيه هذه المعادلة وإلى حينها قد نشهد المزيد والمزيد من جرائم الصهيونية الرعناء، ولكنّ النازية المعلم الأول للصهاينة اندثرت وأبيدت، وليس مصير الصهيونية سوى نفس المصير الذي لحق بالنازية، فهي وإن طال الوقت إلى اندثار واندحار.

بين مفهوم حق العودة ومفهومُ أرض الميعاد

من المعروف أن مفهوم حق العودة أصبح من المفاهيم المبدئية الراسخة لدى الشعب الفلسطيني، أو لنقل إن هذا المفهوم لا ينفصل عن النسيج العقلي والنفسي والمادي للشخصية الفلسطينية منذ النكبة عام (1948) وحتى يومنا هذا.

ومن المعروف اليوم أن لجاناً كثيرة شُكلت في إطار هذا المفهوم منها ما هو داخل فلسطين، ومنها ما هو في الشتات الفلسطيني، وجميعها تسعى لتجسيد هذا المفهوم استناداً على قرارات الأمم المتحدة أولاً، واستناداً على معطيات الحقوق التاريخية والوطنية والجغرافية للشعب الفلسطيني.

وحتى يكون مفهوم العودة واضحاً في أذهاننا لا بد لنا من التوقف عند المفهوم في أبعاده الوطنية والتاريخية والدينية.

وكذلك لا بد لنا من التوقف طويلاً عند مفهوم أرض الميعاد لدى اليهود باعتباره شعاراً، وباعتباره جوهر وجود التوجه الصهيوني لاحتلال فلسطين وإقامة الكيان الصهيوني على أرضها.

ومنذ البداية نرى أن حق العودة لو أقرته قرارات الأم المتحدة لن يتجسد ولن يتحقق من خلال المجتمع الدولي، ولا من خلال قرارات الأمم المتحدة، جميع الأمم والدول تعرف أن قرارات الأمم المتحدة تنص على حق عودة الفلسطينيين إلى أراضيهم وذلك منذ تأسيس هذه المنظمة في نهاية الأربعينات وحتى الآن، وهذا يعني

أن على الشعب الفلسطيني عدم الاعتماد على نصوص المنظمة الدولية لأن هذه النصوص حبرٌ على ورق طالما أن هيئة الأمم المتحدة ألعوبة بيد الولايات المتحدة الأمريكية والغرب والحركة الصهيونية.

على أية حال وبعيداً عن هذه المسلمات فإننا ومن باب أولى علينا أن نطرح على أنفسنا عدة أسئلة تحتاج إلى أجوبة مقنعة.

هل العودة حق للشعب الفلسطيني؟ وما هي أسس هذا الحق؟

1 ـ **على مستوى البعد التاريخي**: الشعب الفلسطيني موجود فوق أرضه منذ سبعة آلاف عام لم ينقطع عنها ولا في أي فترة من الفترات، وحتى إذا سلمنا أن التوراة العبرانية أحد المصادر التاريخية التي سجلت أحداث المنطقة فإنها تورد أن الغزوة العبرانية لبعض مناطق فلسطين لم تستطع أن ترحّل أبناء الشعب الفلسطيني من أرضهم بل ظلوا فيها على الرغم من تواصل الصراع والتدافع بينهم وبين كل الغزوات الصغيرة والكبيرة التي تعرضت لها أرضهم.

وتقول النصوص التوراتية: إن داود ـ عليه السلام ـ عندما أراد أن يعد مكاناً للعبادة اشترى بيدر أحد اليبوسيين ويدعى أرونة اليبوسي، وهذا يعني أن سكان الأرض الأصليين موجودون فوق أرضهم لم يغادروها حتى في زمن التغلغل العبراني لهذه الأرض، وتورد التوراة في سفر القضاة الإصحاح الأول أن أهل بين شان (أي بيسان) وأهل تعنك وسكان دُور وسكان يبلعام وسكان مجدو لم يتركوا أرضهم ـ وتقول التوراة إن أفراد سبط منّسى سكنوا معهم في الأرض.

وتقول أيضاً أن سكان جازر وقطرون ونهلول وعكو وصيدون وأحلب والزيب وحلبة وأفيق ورحبوب وكذلك بيت شمس وبين عناة ظلوا في أرضهم، وأن أفراد القبائل العبرانية سكنوا معهم، أما باقي مناطق فلسطين فقد ظل سكانها من الفلسطينيين موجودين فيها.

وحين نقرأ التسلسل التاريخي لأحداث فلسطين منذ أكثر من خمسة آلاف عام نرى أن شعب فلسطين وعلى الرغم من كل الغزوات والحروب ظل موجوداً فوق أرضه ولم ينقطع عنها.

ونستنتج من ذلك أن أحد أهم أسس حق العودة التواصل المستمر بين الأرض وسكانها بين فلسطين وأبنائها، وهذا التواصل غير المنقطع هو المستند الأول من مستندات حق العودة، فالغزوة العبرانية إن صحت وقائعها أو لم تصح جاءت إلى أرض معمورة بسكانها، وهؤلاء السكان ظلوا فوق أرضهم على الرغم من الحروب والمذابح والكوارث الطبيعية وغير الطبيعية، وهذا ما لم تستطع التوراة إخفاءه.

ولذلك فإن ادعاء يهود اليوم بأن أرض فلسطين أرض ميعادهم هو ادعاء لا يستند إلى أساس تاريخي، لأن العبرانيين أتوا إلى أرض فيها سكانها بمعنى أنهم جاؤوا غازين محتلين لم يؤسسوا حضارة هذه الأرض بل جاؤوا طارئين عليها، ثم ولأنهم لم يكونوا سكاناً أصليين فيها فقد طردوا منها وظلوا ألفي عام ليس لهم تواجد عليها، وظل أهلها الأصليون موجودين فيها لأنها أرضهم، ومن هذا نرى أن ليس لليهود تواصل مع هذه الأرض.

جاؤوا إليها مستعمرين ثم انقطعوا عنها ألفي عام، فكيف يدعون أن هذه الأرض أرض ميعادهم؟

وهم لم يتواصلوا فوقها منذ غزواتهم الأولى وحتى الآن.

2 - على المستوى الجغرافي الوطني: ففلسطين عبر التاريخ لم تنفصل عن محيطها الجغرافي العربي، ولم تشكل وحدها رقعة جغرافية متميزة ومختلفة عن سوريا والعراق والجزيرة العربية، فهي جزء من نسيج جغرافي عربي واحد، ولو توسعنا أكثر نرى أن فلسطين لا يمكن أن تحيا وتعيش بمعزل عن الجغرافيا العربية المحيطة، والواقع أنها وكما هو معروف جزء من منطقة تُسمى بلاد الشام لها جغرافية واحدة، شواطئ واحدة، سهول واحدة، وجبال واحدة، وهذه هي طبيعة المنطقة كلها جغرافياً، ولننظر إلى ساحل بلاد الشام من حدود تركيا وحتى سيناء لندرك أن جغرافيّة المنطقة هي جغرافية واحدة، من حيث التضاريس والمناخ والسكان.

ومن المسلمات أن شعب هذه المنطقة هو شعب واحد لا يمكن لنا أن نقول: إن شعب فلسطين هو غير الشعب الذي يسكن سوريا الحالية أو لبنان أو الأردن، فقد تشكل هذا الشعب واحداً موحداً عبر آلاف السنين فوق أرض واحدة لا تمايز فيها.

فإذا كان اليهود الصهاينة يعتبرونها أرض ميعادهم فيكف يمكن أن يكون ذلك وهذه الأرض جزء من نسيج جغرافي بشري عربي واحد؟

كيف يمكن أن يصدق العقل أن فلسطين أرض ميعادهم وهم بشرياً مختلفون عن طبيعة هذا النسيج العربي الواحد إن كان ذلك في طبيعة تكوينهم الجسدية، أو لغتهم العبرية المطعمة، أو حتى ارتباطهم بطبيعة الأرض، لنتصور ما يسمى أرض (إسرائيل) فهي تجمع ستاً وثمانين عرقاً وجنساً يتحدثون بلغات شتى يختلفون عن كل المحيط العربي في كل شيء، فكيف ينسجم ذلك مع الواقع الجغرافي الكلي وكذلك البشري السكاني؟ لو كانت فلسطين جزيرة بعيدة في البحر لسلمنا بذلك وقلنا: إن لها ملامحها الخاصة المختلفة عن جغرافيتها العربية، ولكن التناقض يصبح صارخاً، ولا ينسجم مع ما يطرحه اليهود الصهاينة مع الواقع الجغرافي لأرض فلسطين.

3 ـ على المستوى الديني: ففلسطين هي الأرض المباركة قرآنياً، والقرآن يخص أمة الإسلام وبمعنى آخر يخص أصحاب العقيدة التوحيدية المسلمين والنصارى الموحّدين.

ومنذ أكثر من ألفي عام وفلسطين تشهد الإسلام الشمولي التوحيدي، والشعب الفلسطيني حمل عقيدة التوحيد منذ أن بشر بها السيد المسيح وختمها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولعل اختيار المسجد الأقصى مكاناً لإسراء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قبل الله سبحانه وتعالى يمنح أبناء فلسطين اتصالاً ما بين السماء والأرض أي: ما بين التوحيد وبين فلسطين، ويمنحهم بالتالي الحق المتواصل في وجودهم عليها باعتبارها تخصهم عقيدياً.

في هذا السياق قد يدعي اليهود أن لأرض فلسطين صلةً بالتوحيد اليهودي وبأنبياء بني إسرائيل، فمن حقهم أن تكون أرض ميعادهم.

وللرد نقول: إن تواجد شعب فلسطين في أرضه سابق على الرؤية الدينية، بل إن الرؤية القرآنية بعد أن استوضحها المسلمون بعد نزول القرآن الكريم على النبي

محمد ـ ﷺ ـ زادت من عناصر حق الفلسطينيين بأرضهم عنصراً هاماً وهو العنصر القرآني.

بينما اليهود كانت رؤى أنبيائهم لاحقة على تسربهم لفلسطين بحيث دفعتهم نبوءات الأنبياء نحو استعمار فلسطين خاصة إذا عرفنا أن التوراة قد دُونت في عصر السبي البابلي، وجميع الباحثين يؤكدون ذلك، ولا سبب يدعونا لإعادة ما قاله الباحثون حول ذلك.

وعلى هذا فإن حق العودة في المنظور الفلسطيني هو حق طبيعي لا تناقض في أسسه ولا التباس في خصائصه.

ولعل مطالبة الشعب الفلسطيني بعودته إلى أرضه ما تزال تتصاعد وتتواتر لأن فلسطين انتكبت منذ خمسين عاماً فحسب، بمعنى أن آثار النكبة ما تزال حية ماثلة للعيان، فالقرى الفلسطينية في كل أرض فلسطين ما تزال شاهدة بحجارتها وبساتينها وشواطئها على أن لها شعباً طبع سماته وخصائصه عليها، وكذلك فإن أكثر من مليون ونصف فلسطيني ما يزالون على أرضها وإن هجْروا عن بعض القرى وتجمعوا في مناطق أخرى منها، والفلسطينيون داخل فلسطين دليل وشاهد حي على التشرد والتشريد الذي وقع على الشعب الفلسطيني، فجميع من بقي في فلسطين لهم روابط مع الشتات وهذه الروابط لم تتعد الأخوة وأولاد العمومة، فكم من عائلة خرج قسم منها وظل القسم الآخر في الجليل أو الساحل، وهذا أيضاً ما يرسخ مفهوم العودة لدى كل فلسطيني، لأن أهله ما يزالون هناك، وما تزال أرضه بحاجة إليه كي يعيش فوقها يزرعها ويعمرها.

وفي الإطار الآخر يطالعنا مصطلح أرض الميعاد الذي لعبت عليه الصهيونية مثلما لعبت على كثير من المصطلحات، فقد أصبح هذا المفهوم جزءاً مهماً من منظومة الأفكار الاستعمارية الصهيونية التي حقنها في كثير من قطاعات اليهود في العالم.

ولما أصبح هذا المصطلح جوهر التطلع الصهيوني نحو أرض فلسطين ارتبط بالصراع العربي الصهيوني الذي بدأ وما يزال محتدماً، وسيبقى ما بقيت الأطماع الصهيونية في أرض فلسطين العربية والأراضي العربية المجاورة.

من أين جاء المفهوم؟

لا شك أن الحركة الصهيونية التي ركبت ظهر التوراة ظنت أن خداعها الديني سيدوم في عقول اليهود قاطبة، وسيستمر فعالاً في العقل الغربي حتى آخر المدى.

وإذا كانت التوراة هي المستند في التركيز على مصطلح أرض الميعاد فإن هذا المستند ينهار أمام حقائق التاريخ وعلوم الآثار والاجتماع والأجناس، ولن نعيد أو نكرر أقوال الدارسين كلهم لهذه التوراة وآراءهم التي تتفق جميعها على أن هذا الكتاب مؤلف من قبل ثلة من المنبوذين المسبيين، وليس له علاقة بأي حقيقة تاريخية أو دينية، ومع ذلك كله لا بد لنا من العودة إلى جذر المفهوم وأصول منشئه حتى نتعرف أكثر فأكثر على كيفية جعله نقطة البدء في تحريك الحركة الصهيونية الاستعمارية.

فبالنسبة للمفهوم التوراتي فإن ما يسمى أرض الميعاد تعرض لتفسيرين دينيين، التفسير الأول يرى أن عودة ما يسمى بني إسرائيل ستتم بعد ظهور المسيح اليهودي، وترى بعض الفئات اليهودية اليوم أن قيام الكيان الصهيوني الحالي هو مخالف لتعاليم الرب ولتفاسير التوراة، وهو منذر بالغضب الإلهي على اليهود، وعندما قام العدوان الصهيوني عام (1967) واحتُلت القدس أقامت بعض الفئات اليهودية مآتم وأحزاناً لأنها اعتبرت احتلال القدس قبل مجيء المسيح المخلص إنذاراً من الله لليهود بأن نهايتهم قد اقتربت.

أما التفسير الثاني فيرى أن ما ورد في التوراة من رموز وإشارات عن عودة بني إسرائيل إلى أرض الميعاد ليست سوى حقيقة واقعة يجب أن تُنفذ إن وُجد المسيح المخلص أولم يوجد، وفي كلتا الحالتين نرى أن المستند مستند توراتي أسطوري، وقد تبنى الاتجاه الثاني أغلبية زعماء الفكرة الصهيونية قبل أن تُشكل الحركة الصهيونية السياسية على يد هرتزل.

فنرى الحاخام اليهودي يهودا القالي (1758 ـ 1878) من أوائل من أخضعوا النص التوراتي الأسطوري للتوجه السياسي الاستعماري ففيما كتبه عام (1862) تحت عنوان الخلاص الثالث يقول: تقول التوراة ارجع يا رب إلى ربوات ألوف

إسرائيل) فتفسيره حول ذلك يستند إلى قوله: إن التلمود يرى أن الشعور بالحضور الديني الإلهي يتم إذا تم وجود اثنين وعشرين ألفاً من اليهود معاً، وكخطوة أولى لخلاص نفوسنا يجب أن نعمل على إعادة اثنين وعشرين ألفاً إلى الأرض المقدسة (أرض الميعاد) وعلى الرغم من أسلوبه المسرحي الخبيث إلا أنه يحاول أن يصنع من الأسطورة عالماً من الواقع فيقول: واحسرتاه هذا الخلاص سيكون مختلفاً بسبب خطايانا، أرضنا خربة ومقفرة ويجب علينا بناء البيوت وحفر الآبار.

ومع ذلك كله فإن الحس الاستعماري لدى هذا الحاخام يطغى على الحس الديني، بل إنه يرى أن الدين اليهودي عاجز عن تخليص اليهود، فيقول: لا تدع أحداً يحل هذه المشكلة، إن الله سيبعث الملاك وقت الخلاص، ويفسر ذلك حسب رأيه بأن الله سيتدخل حينما يتحرك اليهود أولاً، ولن يعيدهم إلههم قبل أن يتحركوا.

ويندرج الحاخام زفي هيرش كاليشر بعد الحاخام القالي في تنظيرات الفكرة الصهيونية تجاه ما يسمى أرض الميعاد، فقد أصدر هذا الحاخام كتاباً تحت عنوان السعي لصهيون عام (1862) استبعد فيه التدخل الإلهي لقيام كيان يجمع اليهود فيقول: إن الرب لن يهبط من السماء متجسداً لكي يحقق حلم الشعب اليهودي، ويتخذ الأسطورة نفسها التي طرحها القالي بأن أرض فلسطين أرض قاحلة وبلا شعب، لكنه في مجال آخر يقترح شراء الكروم والمزارع في أرض فلسطين، وما دامت أرض فلسطين قفراً وقاحلة فكيف يشتري الكروم والمزارع؟ أيشتريها من بشر يقطنونها أم يشتريها من ملائكة الرب الموكلين عليها؟

وعلى الرغم من تسخير نصوص التوراة في هذا الاتجاه الاستعماري إلا أن بعض اليهود اعتبروا قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين لعنة إلهية، وبعض هؤلاء اعتبروا الحركة الصهيونية ملحدة ومهرطقة، لأنها انتهكت ما يسمى بالعهود الثلاثة التي قطعها اليهود للرب قبل خروجهم إلى المنفى، وهي ألا يسببوا الألم للأغيار الذين يقومون بينهم، وألا يحاولوا احتلال الأرض بالقوة، وألا يستعجلوا الأمور.

وقد رأت حركة حراس المدينة (ناطوري كارتا) اليهودية على سبيل المثال أن إعلان ما يسمى استقلال (إسرائيل) نقض أسس قوانين الشريعة لذا رفضت الاعتراف بالدولة وقوانينها، وأعلنت أن أعضاءها لن يهبوا للدفاع عن هذه الدولة لو تعرضت للاعتداء.

ويرى الحاخام عميرام بلوي أن العناية الإلهية أرادت لليهود أن يكونوا في الشتات، ويرى عميرام: أن اليهودية ليست جواز سفر، وأن العالم ليس جغرافيا، وفي الإطار ذاته يرى أحد حاخامات حراس المدنية وهو الحاخام دومب أن الكيان الصهيوني يصيب اليهودية بالأذى، لأن الصهيونية تقول: إن اليهود شعب كالفرنسيين والرومان، إن الصهيونية لا تريد الحفاظ على شيء، فإذا كنا شعباً نمتلك القدرة الإلهية فنحن سنتحرر بطريقة إلهية، وما نحتاج إليه لتحقيقه هو إنقاذ من الله وليس إقامة دولة، على الشعب اليهودي أن يحارب الصهيونية وألا يحاول صبغ الدولة بصبغة يهودية، ويقول: إن هذا المكان (إسرائيل) هو مكان خطر على اليهود.

وكذا يرى الحاخام موشي هيرش أن الصهيونية تتعارض كلياً مع اليهودية، فالصهيونية تريد أن تعرف الشعب اليهودي باعتباره وحدة قومية وهذه هرطقة، فقد تلقى اليهود الرسالة من الرب لا لكي يفرضوا عودتهم إلى الأرض المقدسة ضد إرادة سكانها.

والتلمود يقول: إن هذا الانتهاك سوف يجعل من لحمهم فريسة للسباع في الغابة) وأن المذبحة الكبرى ستكون نتيجة من نتائج الصهيونية، ويقول هيرش: نحن الحريديم نعرّف أنفسنا كيهود فلسطينيين، فالقسم المقدس يخبر الشعب اليهودي على عدم السيطرة على البلاد المقدسة أو أي بلاد أخرى دون رغبة المواطنين الحقيقيين فيها، وأن الصهيونية تدنس المقدسات ومناقضة للديانة اليهودية.

من هنا يمكن للمرء أن يكشف العلاقة بين مفهوم أرض الميعاد وبين البناء الأسطوري الذي دفع باتجاه احتلال فلسطين، وكذلك بين الشعور الداخلي اليهودي بالحزن وبين الحقائق الموجودة على الأرض، فعندما يرى الحاخام دومب أن المذبحة الكبرى ستكون نتيجة من نتائج الصهيونية فهو يرجع إلى بعض التفسيرات التوراتية

التي تقول: إن قيام دولة لليهود على أرض فلسطين إنذارٌ بأن اليهود مقبلون على مذبحة كبرى، فلذلك يرى الكثيرون من اليهود الدينيين أن ما يجري على الأرض من صراع دموي بين قوات الاحتلال وبين الشعب الفلسطيني ليس إلا مقدمات وتمهيد لحرب كبرى تحل فيها لعنة الرب على اليهود.

إن ما يحاول أن يخفيه معظم اليهود هو أن هذه الأرض الفلسطينية التي احتلوها وأقاموا عليها كياناً صهيونياً ليست إلا أرض انتقام من اليهود أنفسهم، فهي أرض دفعتها الأساطير اليهودية التوراتية لتكون بالنسبة لليهود أرض لعنة، وليست أرض نعيم كما صورها زعماء الحركة الصهيونية.

لقد ترددت هذه المقولة كثيراً عندما كان يشتد الرد الفلسطيني على العدوان الصهيوني لا سيما إذا ترافق بإحدى الكوارث التي تحصل بشكل طبيعي من دون تدخل بشري، وكمثال على ذلك حصول انهيار صالة أفراح في غربي القدس سقط فيها ما يزيد على مائة قتيل، وأخفت سلطات الاحتلال ما جرى تفصيلاً فيها، وكرد فعل طبيعي على ذلك فقد كان اليهود يرجعون ما حدث إلى لعنة إلهية حلت بهم، حتى إن بعض حاخاماتهم من الحريديم رأى أن جند الرب ينتقمون من هؤلاء الذين دنسوا حرماته، وانتهكوا مقدساته وقوانينه، ومما يثير القلق لدى الصهاينة عودة بعض اليهود إلى نصوص توراتهم ليعيدوا النظر في قراءتها وتفسيراتها لا سيما قراءة تلك النصوص التي وردت على ألسنة إرميا وحزقيال ودانيال، وفي مجملها لعنات على اليهود وأدعية للانتقام الإلهي منهم، وعودة اليهود إلى مثل هذه النصوص قد تصبح حالة جماعية، وهذا يعني أن اليهود بدؤوا تصوراتهم في المقولات كلها التي تربوا عليها، والتي هي مقولات صهيونية منتقاة لتكون حقنا في الشخصية اليهودية حتى تنفذ رغبات الزعماء السياسيين في استيطان فلسطين واستعمارها إلى الأبد.

لقد بدأ الشك يساور كثيراً من قطاعات التجمع الصهيوني فيما نظرته الصهيونية حول ما يسمى أرض الميعاد، فهذه الأرض اليوم أصبحت مأوى للقتلى، ولم تعد جنة السمن والعسل، وهذه الأرض لها شعبها وليست أرضاً بلا شعب لشعب بلا أرض، إذاً ففي المنظور الصهيوني خطأ كبير وخدعة كبرى لأن هذه

الأرض ليست الأرض التي وعدت بها، وهي ليست سوى لعنة أنبياء التوراة التي تغافل عنها اليهود وتناسوها، وقد تمنى بعضهم لو أنها غير مدونة فيما يسمى الكتاب المقدس (التوراة) ولكنها دُونت وقضى رب اليهود أن يذوقوا نتائج اللعنات التي صبها الأنبياء عليهم.

جاء في سفر إرميا: (سلّمْ بنيهم للجوع وادفعهم ليد السيف فتصير نساؤهم ثكالى وأرامل ويصير رجالهم قتلى الموت وشبانهم مضروبي السيف في الحرب) إرميا 18 : 19 ـ 23.

وجاء أيضاً في سفر إرميا: (هاأنذا أجلب عليكم أمة من بعدُ يا بيت إسرائيل يقول يهوه: أمة قوية أمة منذ القديم أمة لا تعرف لسانها ولا تفهم ما تتكلم به، جعبتهم كقبر مفتوح، كلهم جبابرة فيأكلون حصادك وخبزك الذي يأكله بنوك وبناتك يهلكون بالسيف مدنك الحصينة التي أنت متكل عليها) إرميا: 5: 15 ـ 17.

وهناك نبوءات كثيرة تشير إلى أن أرض فلسطين ستكون وبالاً على هؤلاء اليهود الذين انتهكوا حرمات الرب وقوانين التوراة، هي في كل لحظة تدفع اليهود لمراجعتها للتأكد من أنها لعنات تنصبُّ على وجودهم في أرض ليست لهم، ولعل النص التالي من أكثر النصوص التي تهز داخل اليهود وتدفعهم للتفكير ألف مرة ومرة بمصيرهم ومصير احتلالهم لهذه الأرض.

يقول إرميا: (خراباً تكون كل الأرض، ولكنني لا أفنيها من أجل ذلك تنوح الأرض وتظلم السموات من فوق طوفوا في شوارع أورشليم وانظروا واعرفوا وفتشوا في ساحاتها هل تجدون إنساناً أو يوجد عامل بالعدل طالب الحق فأصفح عنها).

ويقول: (هاأنذا جالب عليهم شراً لا يستطيعون أن يخرجوا منه ويصرخون إلي فلا أسمع لهم).

إذن وعلى الرغم من أن دارسي التوراة يرون في هذه النصوص نبوءات لأحداث جرت إلا أن بعض المفسرين يرون أن هذه النبوءات مفتوحة على الزمن لأنها حسب رؤيتهم ترتبط بسلوك اليهود وخرافاتهم.

هي أرض الميعاد فليظنوا ذلك ولكنها ستبقى أرض اللعنة الأسطورية على أتباعهم، وأرض اللعنة النبوية على وجودهم.

بعد استعراض مفهوم العودة لدى أبناء فلسطين واستعراض مفهوم أرض الميعاد لدى الطرف الصهيوني لا بد لنا أن نتوقف عند بعض الأمور الهامة:

1 ـ إن مفهوم حق العودة أو مفهوم العودة حق يبقى في إطار المسألة النظرية. وعلينا أن نحذر من إبقاء هذا المفهوم في إطار التنظير، وأعتقد أن هذا المفهوم إذا أردناه أن ينتقل من التنظير إلى التطبيق فإنني أرى أن نقول: واجب العودة وفرض العودة، فالواجب يستدعي عملياً التحرك السريع لتحقيق العودة، فالعدو الصهيوني لا يهمه كثيراً أن نكرر كل يوم ألف مرة مفهوم حق العودة لأنه يبقى في الإطار النظري، لكنه يهتز ويستنفر عندما نقول: واجب العودة لكل فلسطيني، بل إن فرض العودة يقع على كل من ينتمي لفلسطين، هذا يتطلب العمل المسلح والتربوي والفكري والنفسي حتى يتوازى المفهوم مع مستلزمات تطبيقه.

2 ـ إن حق العودة عندما نفهمه بمعنى الواجب أو الفرض فلا بد من توضيح قيم العودة وأسسها وخصائصها، فالعودة تعني عودة كل فلسطيني إلى قريته تحديداً حتى وإن هدِّمت وهدمت منازلها، فإن الجغرافيا من سهل وجبل وساحل لن تتغير. وهذه العودة تشمل فلسطينيي الشتات برمتهم، وكذلك الفلسطينيين الذين داخل فلسطين وهُجروا قسراً من قراهم إلى مناطق سكنية أخرى.

3 ـ بعد أن عرفنا كل هذه الأسس نعود إلى بعض الأسئلة المشروعة حول قيم العودة فهل حققنا أو هل نسعى لتحقيق ارتباطنا وارتباط أطفالنا بفلسطين أولاً، وبالقرية ثانياً، وبالمنزل المهدم ثالثاً.

هل حققنا ارتباطنا بتاريخ فلسطين وبشكل تفصيلي ماذا علمنا الأجيال عن تاريخ فلسطين منذ سبعة آلاف عام وحتى الآن؟

هل حققنا ارتباطنا بالعودة كونها ترتبط ببعدها الديني العقيدي ببعدها القرآني العربي الإسلامي التوحيدي؟

إذن فالعودة واجب، وحق العودة هو واجب العودة، بل فرض العودة كفرض الصلاة والصوم والحج والزكاة لأن سورة الإسراء تريد منا نحن شعب فلسطين الموحد أن نفهم معنى الأرض المباركة والدفاع عنها واستخلاصها من بين براثن العدو اليهودي الصهيوني الغاصب.

الفصل السادس
الإعلام
وصدام الحضارات

1 ـ استراتيجية الإعلام الصهيوني .
2 ـ الإعلام الصهيوني والدور الإرهابي في أمريكا والغرب .
3 ـ الإعلام وإشكالية المصطلح في صدام الحضارات .
(الصراع العربي الصهيوني نموذجاً) .
4 ـ الإعلام العربي والقضية الفلسطينية .
5 ـ كيف يفهم الإعلام الغربي العلاقة بين العرب والمسلمين وفلسطين؟

أولاً: استراتيجية الإعلام الصهيوني:

يلعب الإعلام اليوم دوراً بارزاً في حياة الشعوب وعلاقاتها ببعضها، فإما أن يكون مؤججاً لصدام حقيقي بينها، أو أنه يلعب دوره في الحوار وتقريب البشر من بعضهم.

ولما كانت العقلية الصهيونية اليهودية عقلية عنصرية تكره الآخرين فقد كان إعلامها وما زال محرضاً على الكره بين الشعوب، بل وتأجيج العداء وخلق حالات من التوتر الذي قد يؤدي إلى الصدام المسلح.

ولما كان الصهاينة أيضاً ضد أي حوار مع الشعوب أو بينها فقد كرس منظرو الصهيونية الإعلام في خدمة الحرب والدمار، وصدام الحضارات، والصراع بين الشعوب.

فالإعلام يشكل في العقلية اليهودية أحد أهم الوسائل في تحقيق الأهداف التوسعية والتحكم بمقدرات الشعوب والكيانات العالمية، والسيطرة على الاتجاهات الفكرية والنفيسة لكثيرين من قادة الفكر في العالم ولا سيما العالم الغربي منه.

وليس التفكير بوسيلة الإعلام وليد العصر الحديث، إنما هو يمتزج بالنسيج النفسي والعقلي للشخصية اليهودية عبر التاريخ.

فعبر دراسة هذه الشخصية اليهودية في التوراة المحرفة من جهة، وفي القرآن الكريم والتاريخ من جهة أخرى نكتشف أن عوامل عدة صنعت في الشخصية اليهودية عقدة متأزمة ظلت تسري في العقل الباطني اليهودي منذ آلاف السنين وحتى وقتنا الحاضر، هذه العقدة هي تحريف الحقيقة وتبني الكذب كجزء هام جداً من أساليب التعامل مع الوجود البشري والوجود الكوني بشكل عام.

وقد لعب حاخامات اليهود ومفكروهم الدور الأبرز في حقن الشخصية اليهودية بمقولة خطرة هي لا حقيقة في الوجود إلا حقيقة اليهود وهذه المقولة رددها جابوتنسكي الزعيم اليهودي العنصري المعروف منذ مائة عام.

وإذا كان مفهوم الإعلام قد تطور نظرياً وعملياً فإن مضمونه لا يبتعد كثيراً عما كان عليه اليهود في الماضي الغابر فهو نسق فكري ونفسي تلبس الشخصية الصهيونية

وتلبسته حتى بات من الواضح أن هذا النسق إذا حاولنا تخليصه من بنية الشخصية اليهودية فإننا نقضي عليها، فمن الصعب فصل الشخصية اليهودية عن مكوناتها وخاصة المكونات الفكرية والنفسية.

لقد قدم الكثيرون تعاريف عدة للإعلام، وإذا حاولنا تعريفه في السياق اليهودي وجدنا أنه وسيلة نقل المعلومة كاذبةً وجعل الحق باطلاً، والباطل حقيقة، ووسيلته الخداع، وحسب المصلحة اليهودية فالكبير يصبح صغيراً والصغير يجري تكبيره حتى يصبح هالة وهمية مخيفة، ونستطيع أن نقول: إذا أراد أي مخلوق أن يتعلم فن الخداع والكذب فما عليه إلا أن يتبنى أساليب الإعلام اليهودي قديمها وحديثها، ويبدو أن كل أساليب التعامل التخاطبي التي اكتسبها اليهود عبر التاريخ أصبحت جزءاً من حياتهم يصعب التخلص منها.

تحريف القول وتغليف الحقيقة بالباطل

وأول ما يبرز لنا في الشخصية اليهودية هو تحريف القول الذي خاطبهم به أنبياؤهم، وتبدأ سلسلة التحريفات من تحريف التوراة، وطمس حقائقها التي نزلت على النبي موسى ـ عليه السلام ـ إلى تبديل الأقوال ومدلولاتها، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه التحريفات في أكثر من موضع يقول تعالى: ﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُواْ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة 75].

فتحريف كلام الله لم يجرِ من قبلهم عن غباء أو سذاجة، فعلماء اليهود يعرفونه حق المعرفة ويعلمون أنه الحق، لكن طبيعتهم التحريفية تأبى الانصياع للحق وتأبى الحقيقة، فزيفوا الواقع من خلال تزييفهم لكلام الحق وتحريفهم لكلام الله.

وجاءت آيات القرآن الكريم دقيقة في وصفها لنفسيتهم وطبيعة عقولهم فهم يحرفون كلام الله ويحاولون خداع الأنبياء من خلال اعوجاج مقصود بكلامهم وألسنتهم، ولعل ذلك من أبشع أنواع الخداع حيث يلوون بلغتهم وحروف كلامهم ظناً منهم أنهم يخدعون من يسمع لهم، يقول الله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ

ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ﴾ [النساء: 46].

وطبيعة هذا التحريف ليست طبيعة آنية وليست أحادية الجانب فهي جزء من منهج متكامل من الاعوجاج ونسف الحقائق.

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوٓا۟ أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [البقرة: 76 ـ 77].

فإذا كان منهجهم العقيدي يقوم أساساً على التزوير والخداع والتحريف ونحن نرى مناهجهم السياسية والتربوية تصنع تركيبة عقلية متكاملة تقوم على التزوير والتحريف والخداع، فأسس التزوير تقوم على مستند واحد من المصلحة الخاصة، فالنفسية التي جبلت على قلب كافة القيم والمثل لا بد أنها نفسية تجعل محور تعلقها الأنا السلبية فهي نرجسية إلى حد المرض، وهي ذاتية إلى حد الجنون.

وقد خبرهم السيد المسيح ـ عليه السلام ـ فوبخهم وقرعهم بسبب تلفيقهم وخداعهم وقلب الحق إلى باطل.

يقول المسيح ـ عليه السلام ـ: أيها الجيل غير المؤمن والأعوج إلى متى أبقى معكم وإلى متى أحتملكم جيل شرير خائن) متى 17: 19.

ويقول: (يا أولاد الأفاعي كيف تقدرون وأنتم أشرار أن تتكلموا كلاماً صالحاً) متى 2: 34.

ويقول: فهم ينظرون دون أن يبصروا، ويسمعون له دون أنْ يسمعوا أو يفهموا) متى 13: 13 ـ 15.

من هنا بدأ اليهود ولم ينتهوا وعبر مسيرتهم في الزمان استطاعوا أن يعمروا هيكلاً عظيماً من الكذب وصرحاً لا يطال من التلفيق والباطل.

وإذا عدنا إلى تلمودهم وهو الكتاب الأهم لديهم من التوراة، نجد أن ذلك المنهج الخبيث الذي بثه حاخاماتهم هو التلقين المستمر لأتباعهم، والذي يقدم لهم شرحاً مفصلاً لأساليب الكذب والخداع في القول والسلوك.

جاء في التلمود: (يجب على اليهودي ألاّ يجاهر بقصده الحقيقي حتى لا يضيع اعتبار الدين أمام أعين باقي الأمم).

وقد أولى اليهود كل الاهتمام لأساليب الإعلام ووسائله بل وضعوه ضمن استراتيجيتهم الأولى إلى جانب قوة المال.

وقد كرس اليهود في بروتوكولات دهاة صهيون الاهتمام البالغ بالصحافة باعتبارها الوسائل الأهم من حيث الانتشار وإيصال المعلومة للجميع.

جاء في البروتوكول الثاني عشر: ما الدور الذي تلعبه الصحافة في الوقت الحاضر؟

إنها تقوم بتهييج العواطف الجياشة في الناس، وأحياناً بإثارة المجالات الحزبية الأنانية التي ربما تكون ضرورية لمقصدنا، وسيكون علينا أن نظفر بإدارة شركات النشر، فلن ينفعنا أن نهيمن على الصحافة الدورية بينما لا نزال عرضة لهجمات النشرات والكتب.

ويقول: الأدب والصحافة هما أعظم قوتين تعليميتين خطرتين، ولهذا السبب ستشتري حكومتنا العدد الأكبر من الدوريات.

يوضح هذا البروتوكول أساليب العمل الإعلامية المستندة على الخداع والتزييف، يقول: وباسم الهيئة المركزية للصحافة سننظم اجتماعات أدبية سيعطي فيها وكلاؤنا ـ دون أن يُفطن إليهم ـ شارة للضمان وكلمات السر، وبمناقشة سياستنا ومناقضتها. ومن ناحية سطحية دائماً بالضرورة، ودون مساس في الواقع بأجزائها المهمة سيستمر أعضاؤنا في مجالات زائفة شكلية مع الجرائد الرسمية كي تعطينا حجة لتحديد خططنا بدقة أكثر.

وهذه الإجراءات التي ستختفي ملاحظتها على انتباه الجمهور ستكون أنجح الوسائل في قيادة عقل الجمهور، في الإيحاء إليه بالثقة والاطمئنان إلى جانب حكومتنا، وبفضل هذه الإجراءات سنكون قادرين على إثارة عقل الشعب وتهدئته في المسائل السياسية حينما يكون ضرورياً لنا أن نفعل ذلك، وسنكون قادرين على إقناعهم أو بلبلتهم بطبع أخبار صحيحة أو زائفة، حقائق أو ما يناقضها حسبما يوافق غرضنا.

وبهذه الوسائل والأسباب يقوم كبار حاخامات اليهود بوضع فلسفة عنصرية تجاه غير اليهود، وكل ذلك لغاية واحدة صرحوا هم أنفسهم بها في البروتوكول الثالث عشر حيث يقول: ولهذا السبب يجب علينا أن نحطم كل عقائد الإيمان وإذ تكون النتيجة المؤقتة لهذا هي إثمار ملحدين فلن يدخل في موضوعنا، ولكن سيضرب مثلاً للأجيال القادمة التي ستصغي إلى تعاليمنا القائلة بواجب إخضاع كل الأمم تحت أقدامنا.

وبالفعل استطاع اليهود في العالم الغربي السيطرة على وسائل الإعلام بشكل كبير، فالصحافة البريطانية والفرنسية والأمريكية - وهي الأكثر شهرة في العالم - تقع جميعها تحت النفوذ الإعلامي اليهودي، وكذلك المحطات الإذاعية والتلفزيونية باتت رهينة السيطرة اليهودية، وهذا ما حقق لليهود وسائل تنفيذ خطط إعلامية ضخمة، من خلالها يبث الدعاية بشتى أصنافها وبكل اتجاهاتها إن كانت دعاية للمشروع الصهيوني، أو كانت دعاية مضادة ومعادية لكافة الحركات المعادية للكيان الصهيوني والنفوذ اليهودي في العالم.

ويبدو أن التطور الهائل في التقنية الإعلامية وُظف بشكل دقيق لقلب الحقائق وترسيخ المقولات التي لا تُعد ولا تحصى، والتي تهدف جميعها إلى تشويه كل الحقائق بدءاً بالقضايا الفكرية العقيدية وانتهاء بترسيخ كافة الجوانب النفسية والأخلاقية السلبية لدى شعوب العالم وخاصة في المنطقة العربية كونها هي المعنية أولاً وأخيراً بالصراع مع اليهود، والقوى المعادية للإسلام، والطموحات الإسلامية الكبيرة.

وإذا حاولنا دراسة الإعلام الصهيوني من حيث أساليبه ووسائله نجد أنه يشكل نموذجاً فريداً من نوعه في العالم وذلك بسبب استخدامه لكل الوسائل غير المشروعة وغير الأخلاقية في توجهه نحو العالم وخاصة العالم العربي الإسلامي منه.

فهو وإن لم يخرج عن طبيعة الإعلام الأمريكي والغربي بشكل عام إلا أن له جذوراً تمتد حتى الأعماق التوراتية والتلمودية، تلك الجذور التي تقوم أساساً على قانون الغاية تبرر الواسطة - ومنذ أن ظهر المشروع الصهيوني أولى الزعماء الصهاينة الإعلام عناية فائقة تساوي العناية التي أولاها للجيش والأسلحة الفتاكة - .

جاءت السيطرة على المال كعصب للمشروع، لكن قوة السيطرة المالية وظفت للاستفادة من كافة التوجهات الغربية على المستوى الإعلامي والاقتصادي والسياسي والثقافي.

واستغلال التوجه الإعلامي كان وما يزال يعني السيطرة على وسائل الإعلام الغربية سيطرة تامة، والمتفحص في خلفية الصحافة الغربية الكبرى يجد أن المال اليهودي يسيرها حسب مشيئته وتوجهه العالمي، وظهر أن أغنى رجال المال اليهودي يمتلكون امتيازات أكبر الصحف الأمريكية والبريطانية والفرنسية، ولشدة نفوذ اليهود في هذه الصحافة تمنع كثيرٌ من الدراسات الهامة من النشر، مع العلم أنها لكبار المفكرين الفلاسفة الغربيين، خاصة الدراسات التي تتناول الصهيونية وجرائمها عبر التاريخ، فالحديث بالسلب عن الشخصية اليهودية وتاريخها هو من المحرمات في وسائل الإعلام الغربية.

وعلى سبيلُ المثال لا الحصر، لم يسمح للمفكر الفرنسي المسلم روجيه غارودي أن ينشر مقالة في صحيفة ليموند يتناول فيها خدعة المحرقة اليهودية وفضيحتها (الهولوكست) ولم تجرؤ أي صحيفة فرنسية على نشر المقالة، فاضطر أن ينشرها في باب الإعلانات، وكلفه ذلك سبعين ألف فرنك فرنسي، وعلى الرغم من ذلك قامت قيامة اللوبي اليهودي في فرنسا مما أدى بالتالي إلى شن حملة يهودية عالمية على غارودي تحت ذريعة اللاسامية.

ويعرف المتخصصون في مجال الإعلام أن كبريات الصحف الأمريكية يمتلكها رجال مال يهود، وكذلك الصحف البريطانية، ومنها صحيفة الغارديان والفاينانشال تايمز ونيوزويك ونيويورك تايمز وغيرها، وفي العالم الغربي يمتلك اليهود أقوى المحطات الفضائية والأرضية المحلية، ويوجهونها توجيهاً صهيونياً صرفاً، ففي الولايات المتحدة وحدها يوجه اليهود أكثرية المحطات التلفزيونية وحسب بعض المصادر فإنهم يسيطرون على أربعين محطة تلفزيونية محلية، وفي كل حي يهودي من أحياء البلدان الغربية يفسح المجال بشكل واسع جداً لإقامة محطات إذاعية وتلفزيونية موجهة خاصة لليهود.

وأخيراً سيطر رجال الأعمال والمال اليهود على شبكات الإنترنت التي تكرس معظمها لأغراض مشبوهة وغير أخلاقية.

وإذا كانت هذه الوسائل الإعلامية معروفة لدى معظم الناس فإن الأساليب المتبعة لنشر المعلومة والخبر تحتاج لوقفة تقييمية معمّقة.

1 ـ قبل بداية قيام الكيان الصهيوني على أرض فلسطين ركز الإعلام الصهيوني على مقولات كثيرة كان أهمها أن فلسطين أرض بلا شعب، واليهود شعب بلا أرض حتى أن غولدا مائير رئيسة وزراء العدو الصهيوني السابقة كانت تردد دوماً: أين الشعب الفلسطيني، إنه لا وجود لشعب فلسطين على الإطلاق.

واستطاع الإعلام الذي تبنته المنظمة الصهيونية منذ مؤتمر بال (1887) في سويسرا وحتى الآن أن يصوّر المسلمين والشعب العربي أقواماً من البرابرة يجب إلقاء القنابل بينهم لإبادتهم، وقد لفق الإعلام الصهيوني آلاف المقولات عن الشخصية العربية، وجميع هذه المقولات تصف الشخصية العربية بسوء الأخلاق والتخلف والقذارة وانحطاط القيم والمثل.

2 ـ وما إن حل الصهاينة واحتلوا فلسطين وأقاموا كيانهم حتى تطور الإعلام الصهيوني بوسائله وأساليبه.

ففي الصحف الخاصة بالأطفال وكذلك القصص والكتب الموجهة للأجيال الناشئة ركز الكتاب الصهاينة ومن خلال حس عنصري على زرع الحقد على العرب

وتصوير الفلسطينيين بأبشع الصور، ففي مخيلة الطفل تتكون تلك الصور المشوهة، ومن ثم يصبح لديه حافز لمعرفة الرد الأقوى والتعامل مع تلك الشخصية ويرى الدكتور أديركوهين المشرف على مركز أدب الأطفال في حيفا أن قصص الأطفال تحوي توجيهاً إعلامياً عنصرياً ضد العرب، أما الأساليب والوسائل المستخدمة في وسائل الإعلام كالإذاعة والشاشة الصغيرة فهي لا تُعد ولا تحصى وتستخدم أوسع الوسائل أو أكثرها تأثيراً.

ومن خلال التجربة الإعلامية الصهيونية تبين أن الكيان الصهيوني يستخدم علماء في علم النفس ومتخصصين بالإشاعة المضادة وبث الأخبار ذات التأثير النفسي السلبي.

ويظهر ذلك جلياً أثناء الحروب والهزات الكبيرة التي انتابت التجمع الصهيوني حيث يستنفر الكيان الصهيوني كافة الرجال الاختصاصيين بالإعلام لمعالجة الوضع الطارئ، ومن الطبيعي أن جهاز الإعلام الصهيوني كونه جهازاً خطيراً وحساساً فلا شك أن أجهزة المخابرات الخارجية (الموساد) والشين بيت وبعض الأجهزة الأخرى تعمل بكل قواها في خدمة الإعلام الصهيوني، ويتضح أيضاً أن الإعلام الصهيوني يتجه اتجاهين، اتجاهاً نحو الخارج أي اتجاه العرب واتجاهاً داخلياً نحو التجمع الصهيوني، فلكل اتجاه خطابُه المختلف وأدواته المختلفة، فالإشاعة المغرضة الموجهة للعرب لا تستخدم إلا للعرب، بينما الخطاب الموجه لليهود يختلف من حيث الغاية واللغة وأسلوب التوجه الإعلامي.

ويمكن لنا أن نشير هنا إلى الأساليب الإعلامية الصهيونية الموجهة للعرب على الرغم من كثرتها:

1 ـ استخدام أسلوب تزييف الحقائق وهو أسلوب واسع الاتجاه، إن كان ذلك في أيام السلم أو كان في أيام الحرب، وعليه فإن الإعلام الصهيوني يكبر الحادثة الصغيرة حتى يجعلها أكبر قضية في وقتها، فعلى سبيل المثال لا الحصر قضية إلقاء القبض على جاسوس يهودي في إحدى الدول، فهذه القضية تحولت في الإعلام الصهيوني إلى قضية ترتبط بمعاداة اليهود واللاسامية والعنصرية، ويستنفر الإعلام

الصهيوني كافة إمكاناته ووسائله للحديث عن هذه القضية، حتى أنه يضغط على وسائل الإعلام الغربية لتجعل من المسألة مشكلة كبرى تمس الأمن العالمي لأنها تتعلق باضطهاد اليهود حسبما يروّجه الإعلام.

بينما لو أخذنا نموذجاً آخر وليكن مثلاً مجزرة قانا أو مجزرة جنين باعتبارها قريبة الحدث فإن الإعلام الصهيوني يصورها دفاعاً عن النفس أو اضطراراً فرضته الظروف، أو أن سبب مجزرة قانا مثلاً وجود بعض أفراد المقاومة بين الناس، وتبدي الأوساط الغربية مجرد أسفها لما حدث، وبقليل من المعونات والتعويضات يُسكتون الأصوات ويستطيعون إخضاع الأمم المتحدة والمنظمات الدولية لابتزازها ومن ثم إجبارها على تناسي المجزرة التي راح ضحيتها أكثر من مائة شخص بينهم أطفال ونساء وشيوخ وعجائز، وقس على ذلك كافة الأمور التي تُحوِّل فيها الحقيقة باطلاً والباطل حقيقة.

2 ـ الإشاعة والإشاعة المضادة: ففي الإعلام الصهيوني شعبة خاصة لتوجيه الإشاعات بحيث تثير لدى العرب البلبلة والتخبط واليأس والقنوط ويتم تسريب الإشاعة أحياناً في نشرة إخبارية واحدة لا تتكرر بحيث يصبح للسامع فضول في معرفة صحتها والبحث عنها وذلك ما يشغله عن القضايا الأساسية في الصراع، وكمثال على ذلك ما تذيعه الإذاعة الصهيونية عن أن قوات الاحتلال (الأمن) توصلت إلى القبض على خلية عسكرية تابعة لحركة جهادية ما واعتراف أعضائها بالتنظيم والعمل إلى آخر ما هنالك، بينما تكون الإشاعة مجرد خبر يُراد من ورائه التخبط في الجانب الأخر والحيرة والإحجام والشك والخوف والشلل.

3 ـ إظهار الحياد في طريقة بث الخبر، وهذا من أخطر ما يستخدمه الإعلام الصهيوني بحيث يظن السامع أن الخبر موضوعي ليس فيه من الزيف والتحيز شيء، مثال على ذلك ما تبثه الأخبار عن قيام قوات الأمن الصهيوني باعتقال عدد من المستوطنين الذين يريدون الاستيلاء على أرض عربية، وفي الواقع تكون قوات الأمن نفسها تحمي مجموعة من المستوطنين الذين يضعون البيوت المسبقة الصنع في أراض عربية ويدعون أن هذه الأرض استولت عليها الدولة لأغراض أمنية.

4 ـ نقل الخبر السريع قبل أن تبثه وكالات الأنباء وذلك لإظهار الإعلام الصهيوني على أنه السبّاق في نشر الأخبار الهامة، والواقع أن الإعلام الصهيوني يلجأ لبث مثل هذه الأخبار استناداً على تقارير تقدم من أجهزة الأمن والمخابرات، ويقصد من ورائها التضليل أو الإحباط أو التشويش.

5 ـ استخدام منوعات غنائية تحمل من المعاني ما يسيء إلى الشخصية العربية أو يجعلها محط الشك والاستهتار، والواقع أن للكيان الصهيوني أسلوباً إعلامياً معروفاً في انتقاء الأغنية الموجهة نفسياً وفكرياً بحيث تثير لدى السامع ربطاً بين الأخبار التي سمعها وبين الأغنية، ويعتمد هذا الأسلوب على تضخيم الوهم لدى السامع العربي بحيث يصبح رهينة ورهين الخوف فيُشل عن التفكير والحركة أو يشكك بذاته وشخصيته ودينه وقومه وأخلاقه.

ولعل طبيعة الشخصية اليهودية المبنية على الخداع والكذب لا تستطيع أن تحيا بمعزل عن كره الآخرين وهذا الكره يولد نزعة تستند على مبادئ لا أخلاقية أهمها التركيز على زرع بذور التفرقة بين العرب والمسلمين عن طريق الوسائل الإعلامية المختلفة، وهذا ما لمسناه عن كثب من خلال مسيرة الخمسين عاماً التي مضت على احتلال اليهود لأرض فلسطين.

وعودة على بدء فإننا لا يمكن أن نفصل دراسة هذه الشخصية عن ماضيها، ولا يمكن أن نغفل أو نتغافل عن القرآن الكريم الذي فضح هذه الشخصية وأساليبها في الكذب والتلفيق والخداع وتحريف القول بل الحقائق وحرفها عن مسارها الصحيح.

ثانياً: الإعلام الصهيوني والدور الإرهابي في أمريكا:

عندما وقع ما وقع في الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر في نيويورك وواشنطن كان الإعلام الصهيوني على موعد مع ضالته المنشودة كي ينفث كل سموم حقده على العرب والمسلمين.

فبدءاً من شارون وانتهاء بكافة وسائل الإعلام الأمريكية المسيطرة عليها من قبل الدوائر الصهيونية راحت أبواق العداء ضد العرب والمسلمين تشن أكبر حملة

إعلامية باتجاه ترجمة ردة الفعل الأمريكية حرباً مدمرة على الشعوب العربية والإسلامية.

والمراقب للأحداث على مدى شهر من الزمان بعد الذي حدث في أمريكا يرى أن الإعلام الصهيوني كان يتوجه عدة اتجاهات، ويعمل على عدة جبهات مما يشير إلى طبيعة التوجه التدميرية للتحرك الصهيوني إن كان داخل فلسطين المحتلة أو في أمريكا أو في كافة أرجاء المعمورة.

وفي الاتجاه الأول صب الإعلام الصهيوني كل حقده على العرب والمسلمين وصورهم بشكل كلي إرهابيين قتلة، وأن ما حدث في أمريكا ليس إلا من فعل العرب والمسلمين الحاقدين على الحرية والديمقراطية وقيم العالم الحر.

وفي الاتجاه الثاني كرس الإعلام الصهيوني نفسه لدفع الأمريكان شعباً وحكومة باتجاه شن الحرب المدمرة على كافة الدول التي حسب زعمه تؤوي الإرهابيين ولاشك أن الوضع النفسي الأميركي كان لا يحتاج في هذا الظرف إلا لعود ثقاب ليشعل الحرب باتجاه أفغانستان، وبعض الدول العربية والإسلامية، وكان الإعلام الصهيوني عود الثقاب الذي أسرع بإشعال الحرب.

وفي الاتجاه الثالث: ربط الإعلام الصهيوني بين ما جرى في أمريكا وبين ما يجري في فلسطين، وحاول بشتى الوسائل دمج الصورتين ليجعل من العرب الفلسطينيين إرهابيين قتلة، ويجعل من العدوان الصهيوني الدموي ضحية لهذا الإرهاب.

وفي الاتجاه الرابع: صور الإعلام الصهيوني المحتلين الصهاينة وكأنهم الأكثر حرصاً على مشاركة أمريكا عسكرياً في الحملة العسكرية التي تشنها أمريكا على أفغانستان والتي تنوي أن توسع نطاقها لتشمل مناطق عربية وإسلامية أخرى، ويظهر دوماً أن هذا التوجه الصهيوني كان يُقصد من ورائه إطلاق الحرية الكاملة للكيان الصهيوني كي ينفذ أكبر عملية تصفية للفلسطينيين، وكذلك كي ينفذ بعض الضربات القاسية على لبنان وبعض الدول العربية الأخرى، وطالما أن العالم منشغل بتداعيات ما حدث في أمريكا فإن حرية التحرك العسكري الصهيوني لن تراقب وستمر دون

حساب لأنها تأتي حسب التصور الصهيوني - في سياق ما يسمى الحرب على الإرهاب - .

منذ اليوم الأول لما حدث في أمريكا انطلقت الصيحات الصهيونية من شارون وغيره من الزعماء الصهاينة تتهم العرب والمسلمين بما جرى، كانت أمريكا تعيش حالة من الذهول الشديد لكبر الفاجعة ولم يكن أحد في أمريكا مستعداً لسماع أي شيء سوى الانتقام حتى لو من المجهول، لم يكن أحد يعرف من وراء هذا الحدث الكبير وليس هناك أي إشارة قضائية أو استخباراتية للجناة، لكن شارون الذي يعيش مع حكومته في مأزق الانتفاضة لم يجد باباً أفضل من هذا الباب ليدخل فيه على أوسع نطاق، فمنذ اللحظة التي وقعت فيها الفاجعة الأمريكية راح يصب اتهاماته على العرب والمسلمين، ولا شك أن الحالة الانفعالية الأمريكية كان لا ينقصها إلا مثل هذا الترويج الإعلامي حتى تبدأ البحث عن الجناة الذين هم حسب ما روّج الإعلامُ عربٌ ومسلمون.

فكانت تصريحات شارون البداية ونقطة الانطلاق الإعلامي في الصحافة الصهيونية ووسائل الإعلام الأمريكية والغربية.

ومن المعروف أن القوى الصهيونية الإعلامية والمالية تسيطر بشكل كامل على وسائل الإعلام الأمريكية المقروءة والمسموعة والمرئية، وقد بدأت هذه الوسائل بما لها من إمكانيات بحملة تحريض واسعة على العرب والمسلمين، وكان الصحفي والكاتب المشهور توماس فريدمان على رأس الحملة الإعلامية الموجهة، وقد نشر فريدمان عدداً كبيراً من المقالات في واشنطن بوسط والنيويورك تايمز يحرض فيها الإدارة الأمريكية على شن أكبر حرب على العرب والمسلمين، ولم تكتف بنشر المقالات التحريضية بل راحت محطات التلفزة تجري معه مقابلات متعددة تؤكد من خلالها حسب زعمها إرهابية العرب والمسلمين، وتنزه الكيان الصهيوني وتصوره كأنه الضحية الأكبر لهذا الإرهاب العربي الإسلامي.

ولعل من أبشع صور التحريض تلك التي حرضت الأمريكان ضد العرب والمسلمين الذين يعيشون في الولايات المتحدة الأمريكية، فقد لجأت وسائل الإعلام

الصهيونية والأمريكية ذات التوجه الصهيوني إلى التحريض النفسي ضد هؤلاء العرب وطالبت بطردهم أو قتل بعض الأفراد منهم، والتضييق عليهم باعتبارهم ـ حسب الزعم الصهيوني ـ قنبلة موقوته داخل البيت الأمريكي، وكان من جراء هذا التحريض أن قام بعض الإرهابيين بالاعتداء على مواطنين عرب ومسلمين وقتل بعضهم أو حرق متاجر بعضهم الآخر.

وقد لعبت المحطات الفضائية وكذلك المحطات المحلية التي يسيطر عليها الأصوليون الأمريكيون دوراً خطراً في ذلك التحريض حيث ركزت إحدى المحطات التي يشرف عليها الأصولي المتطرف جيري فولويل على المقارنة بين صور الضحايا الأمريكيين والضحايا الصهاينة جراء العمليات الاستشهادية في فلسطين وغيّبت كل ما من شأنه الإشارة للقمع الصهيوني وإرهابه الدموي ضد الشعب الفلسطيني.

والأخطر من ذلك كله أن بعض هذه المحطات صورت ما حدث على أنه حرب يأجوج ومأجوج وحرب الكفار على الحرية والديمقراطية والقيم الأمريكية العظيمة، ولا يخلو ذلك من حس خرافي أسطوري يستند على مقولات توراتية وتفسيراتها الخاصة بالأصوليين الأمريكيين.

وقد استغلت بعض هذه المحطات ما حدث في أمريكا لتنشر أفلاماً ودعايات تصور العرب والمسلمين قتلة يتلذذون بسفك الدماء ويفرحون فرحاً هستيرياً وهم يشاهدون أكبر ناطحات السحاب في نيويورك وهي تنهار وتصبح ركاماً بعد أن كانت رمز العظمة الأمريكية التجارية، بل رمز الإنسانية الحضارية، متناسين تماماً أن عدد الضحايا في الحادث من العرب والمسلمين وصل أكثر من ألف ضحية بينما لا يوجد من الصهاينة ضحية واحدة.

وقد روجت وسائل الإعلام الصهيوني في أمريكا استطلاعات للرأي بين قطاعات كثيرة من الشعب الأمريكي، كانت معظم الأسئلة الموجهة فيها مركزة على اتهامات للعرب والمسلمين بأنهم إرهابيون، وأنهم وراء ما حدث في نيويورك وواشنطن، وكل ذلك ليؤكدوا ويرسخوا في الأذهان والنفوس الحقد ضد العرب

والمسلمين والبحث عن وسائل لتدمير بلدانهم أو لطرد من يسكن منهم في الولايات المتحدة وأوربا.

والواقع أن الإعلام الصهيوني كان الأسرع في استغلال ما حدث خاصة أن الوضع النفسي المتوتر الذي يعيشه المواطن الأمريكي لم يكن آنذاك مستعداً ليحلل الأسباب ويدرس واقع السياسة الأمريكية وماضيها وتعاملها مع القضايا الساخنة في المنطقة العربية.

وقد نشرت بعض الصحف في الولايات المتحدة صوراً شتى على الصفحات الأولى استخدمت في تشكيلاتها أسوأ التصوير للشخصية العربية والإسلامية، وفي إحداها صُورت مساجدها وهي تدفع من قلبها بعشرات من العرب وهم يهددون بالقتل ويحملون بأيديهم أسلحة بيضاء كالسيوف والسكاكين، ويأتي كل ذلك بدفع من التوجيه الصهيوني المسيطر على قطاعات واسعة من الإعلام الأمريكي.

ومع تداعيات الحدث في الأيام اللاحقة وحتى هذه اللحظة يتعامل الإعلام الصهيوني مع مسألة الإرهاب من وجهة نظره القائلة بأن الفلسطينيين والعرب إرهابيون وعلى الإدارة الأمريكية أن تضع في ميزانها ما حل في نيويورك وواشنطن وما يجري من صراع بين الفلسطينيين وقوات الاحتلال الصهيوني في كفة واحدة.

لقد جاء ما حدث في الحادي عشر من الشهر التاسع بدفع إعلامي صهيوني لم يسبق له مثيل حتى في أحداث أكثر حساسية وأكبر خطراً على منطقة الشرق الأوسط، وبات من الواضح أن الإدارة الأمريكية التي لم تول الصراع العربي الصهيوني حقه بدأ من تسلّم بوش السلطة وحتى ما قبل الحادثة في أمريكا أصبح عليها حسب نظرة شارون والكيان الصهيوني، أن تحسم أمرها تجاه الفلسطينيين لصالح السلطة الصهيونية، وكانت هذه السلطة تهدف من وراء الحقن العنصري ضد العرب إعطاء مزيد من الحرية لقوات الاحتلال كي تنفذ أكبر عملية تصفية لكوادر الشعب الفلسطيني وهدم أكبر عدد من المنازل الفلسطينية وتصعيد الحصار والتجويع والإجراءات القمعية الأخرى.

وعندما نعود بالذاكرة إلى الأيام الأولى التي تلت 11 أيلول/ سبتمبر تقف أمامنا صورة الاستغلال الصهيوني الكبير للمشاعر الأمريكية، وقد ركز الإعلام الصهيوني مقالاته وصوره التلفزيونية على حملة التبرع بالدم التي قام بها شارون وبعض زبانيته لتظهر التعاطف الصهيوني مع الشعب الأمريكي على مداه، على الرغم من أن أوساطاً صهيونية دينية استنكرت ذلك لأنه لا يجوز حسب الشرائع التلمودية الحاخامية منح دم يهودي لغيره من أبناء الديانات الأخرى، لكن الإدارة الصهيونية وعلى رأسها شارون رأت الفرصة مناسبة جداً لإظهار أقصى حالات التعاطف مع الشعب الأمريكي المنكوب، وقد طبل الإعلام الصهيوني لهذا التعاطف لكنه لم يتوقف عند حده إنما وفي كل مقالة ومع كل صورة كان الإعلاميون الصهاينة يُبرزون العرب والفلسطينيين قتلة مصاصي دماء، فهذا الدم الذي يتبرع به الصهاينة هو نفسه دم المستوطنين والجنود الصهاينة الذين يدافعون عن الحرية والديمقراطية في مواجهة الوحشية العربية على حد زعمهم.

إن الطرق الإعلامية الملتوية والخبيثة ليست جديدة على الشخصية الصهيونية، فهي ترافق طبيعتها بل هي جزء من تركيبها النفسي والعقلي.

وليس ما حدث في أوكلاهوما قبل سنوات ببعيد عن أذهاننا، ففي تلك الحادثة حاول الإعلام الصهيوني بقضه وقضيضه أن يلصق التهمة الإجرامية بالعرب والمسلمين وكادت تنطلي تلفيقاته على الأمريكان، لكن اكتشاف الجاني الحقيقي - وهو أمريكي من جماعة الطائفة الداوودية - جعل الصهاينة يركدون خائبين، ولا ندري هل تكشف الأيام عن حقائق تدحض الافتراءات الصهيونية الإعلامية وتردها خائبة كما حدث في أوكلاهوما سابقاً؟!

الإعلام وإشكالية المصطلح في صدام الحضارات

(الصدام العربي الصهيوني نموذجاً)

أصبح مصطلح الإعلام من أكثر المصطلحات استخداماً في العقود الأخيرة من القرن العشرين وما بعده، حتى أصبح من أكثر الكلمات استخداماً على ألسنة الجماهير كافة، من مثقفين وغير مثقفين، وتولي كافة دول العالم اهتماماً واسعاً به

كونه أصبح علماً كبقية العلوم، ولما يتمتع به من تأثيرات على الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ولما له من تأثيرات على العلاقات الدولية السلبية منها والإيجابية.

ولعلنا ونحن نخوض الصراع المرير كأمة عربية وإسلامية مع أعداء الأمة من صهاينة وحاقدين على عقيدتنا وقعنا في إشكالية استخدام المصطلح السياسي في وسائلنا الإعلامية، وأصبحنا نبسط الأسباب والتبريرات أمام جماهير أمتنا العريضة لنمرر المصطلح السياسي الخاص بالصراع مع العدو الصهيوني وما آل إليه في العقود الأخيرة من القرن العشرين وبداية القرن الحالي، ذلك المصطلح الذي لم يكن مقبولاً حتى في أسوأ حالات انهزامنا، وقد بتنا نقلب كثيراً من المفاهيم المرتبطة بالصراع والتي أسسنا عليها بناءنا الفكري والنفسي والأيديولوجي.

وحتى لا يفوتنا تعريف الإعلام في هذا الإطار، فإننا نفهم أنه كل اتصال جماهيري هدفه نقل الأخبار والمعلومات عن القضايا والموضوعات المختلفة بموضوعية تامة، وبغير تعليق أو رأي شخصي، ودون تحريف أو تشويه بقصد إطلاع الجماهير على المعلومات الموضوعية، وحتى لا يكون التعريف ضيقاً أو محصوراً فإننا يمكن أن نضيف إليه أن الإعلام يُعنى بتقديم الكثير من المواد الثقافية والدعوية التي من شأنها تحقيق حياة أفضل للإنسان والمجتمع، وطالما نحن في حالة صراع يومي مع الاحتلال الصهيوني فإن الإعلام يصبح السلاح الموازي للسلاح العسكري مهما كان حجمه وتأثيره في مسار الصراع، ومعروف لدينا أن وسائل الإعلام أصبحت كثيرة وخطيرة ومتنوعة، وتتمثل بالصحافة المكتوبة والناطقة والمرئية، ووكالات الأنباء ودور السينما وقاعات المحاضرات، ولاشك أن الشاشة الصغيرة وملحقاتها أصبحت من أخطر الوسائل في نقل المعلومة الخبرية والثقافية.

ولاشك أن استخدام المصطلح السياسي في وسائل الإعلام يعتبر من أدق الأدوات وأخطرها في الإعلام، لما له من تأثيرات على البنى العقلية والنفسية والاجتماعية.

وقبل أن ندرك جوانب تلك التأثيرات لا بد لنا أن نتوقف عند المصطلح نفسه في الإطار العام لصدام الحضارات، وفي الإطار الخاص للصراع العربي الصهيوني، يبرز لنا مصطلح (إسرائيل) كأساس بنيت عليه كافة المصطلحات، فأصبحنا نكرر هذا المصطلح في كافة وسائلنا الإعلامية كأمر مسلم به، ومن ذلك استخدامنا لمصطلحات النسبة جميعها كرئيس وزراء (إسرائيل) أو وزير خارجية (إسرائيل) وقس على ذلك مئات التسميات، فهذا المصطلح في المنظور القانوني يأخذ شرعية وجوده كاسم على مسمى، ويعني بالتالي أنه يلغي سبب الصراع إذ يمكن القول طالما أن (إسرائيل) دولة بالمعنى القانوني فلا يحق لطرف أياً كان أن ينازعها سيادتها على أرضها، ولا يحق لطرف أن يكون معادياً لها، إذ لا مصلحة له في عدائها سوى الاعتداء عليها.

واستخدام هذا المصطلح يعني الإقرار بوجود علاقة جذرية بين أرض فلسطين والمتهودين القادمين من شتى أصقاع الدنيا، وليس العرب الفلسطينيون سوى أناس طارئين على هذه الأرض، ويجب إخراجهم منها إذ لا يمكن أن يفهم العالم وجود دولة اسمها (إسرائيل) ووجود شعب يطالب بدولة اسمها فلسطين على نفس التراب والأرض ونفس الجغرافيا.

ولا يحق في هذه الحال لأي فلسطيني مشرد أن يطالب بأرضه والعودة إليها إذ أنه بنظر العالم يريد اختراق القانون، واختراق سيادة الدولة (الإسرائيلية) وهذا يعني بالضبط إلغاء أكثر من خمسة ملايين عربي فلسطيني مشرد، وإلغاء هوية، وإلغاء انتماء وارتباط بفلسطين.

إن غالبية أبناء الأمة العربية وقبل توقيع اتفاقات كامب ديفيد بين مصر والعدو الصهيوني لم يقبلوا تكريس مصطلح (إسرائيل) لا في وسائل الإعلام، ولا على المستوى الجماهيري على الرغم من أن الإعلام العربي بمجمله كان انفعالياً عاطفياً غير علمي في كثير من شعاراته وأساليب نقل أخباره، غير أن الابتعاد عن مصطلح الاعتراف كان من شأنه أن يسير في الاتجاه الصحيح، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار التطور التقني للإعلام وتهيئة الأساليب العلمية الصحيحة وخلق الكادر الإعلامي الذي يتمتع بشمولية علمية سياسية ونفسية وفكرية، ومع توقيع أول اتفاقية ذل في

كامب ديفيد راح هذا المصطلح يندس في إعلامنا وأجوائنا الشعبية والرسمية، وتدريجياً صار المواطن يلهج بمصطلح (إسرائيل) أكثر ممّا يلهج بمصطلح فلسطين، وحتى عندما وُقع اتفاق أوسلو أصبح المواطن يلهج بكلمة الضفة وغزة بشكلٍ ينم عن نسيان أو تناسٍ لمصطلح فلسطين، وكل هذا كرّس الاعتراف بأمر واقع مفروضٍ اسمه (إسرائيل) دونً أي لبس أو مواربة، لقد قدمت مبررات وفرضيات بشكل ضمني لاستخدام هذا المصطلح، ومن الافتراضات ما هو صادر عن بعض التفسيرات الدينية حيث ترى أن استخدام مصطلح إسرائيل يتوافق مع مقولة في القرآن الكريم تشير إلى حتمية الصراع بين عباد الله وبني إسرائيل، ولا يكتمل هذا الصراع ولا يصل ذروته ما لم يصل بنو إسرائيل إلى قمة إفسادهم وعلوهم، وهذا ما نصت عليه الآيات السبع الأولى من سورة الإسراء، ويرى هذا الاتجاه أن استخدام مصطلح (إسرائيل) يؤكد حتمية الصراع بين العرب والمسلمين وبين بني إسرائيل فلذلك يجب تكريسه في العقول والنفوس مع مراعاة العداء له حتى يصل الصراع إلى منتهاه.

وبعض الأطراف العربية تبرر استخدام المصطلح لأن السياسة الدولية وخاصة الأوروبية والأمريكية ترفض مصطلحات العداء للكيان الصهيوني وخاصة بعد مؤتمر مدريد، فيجب الاعتراف (بإسرائيل) كأمر واقع كما اعترف بها العالم، وإلا سنفسح المجال للعالم الغربي بوصمنا بالإرهاب والعنصرية واللاسامية ورفض السلام...

وسيُلفّق علينا كثير من الأقاويل ومنها أننا نريد إبادة اليهود وإفناء (إسرائيل) وهذا لم يعد مقبولاً لدى أحد من العالم الغربي وغيره، ويرى هذا الاتجاه أنه لا جدوى من المكابرة (فإسرائيل) موجودة كأرض وشعب وسيادة شئناً أم أبينا.

أما الطرف الثالث فيبرر استخدام مصطلح (إسرائيل) وملحقاته بأن ذلك أقرب إلى الموضوعية العلمية وأبعد عن العواطف والشعارات والانفعالات الخادعة، ولا حاجة لنا باستخدام تلك المصطلحات العاطفية كمصطلح العدو الصهيوني مثلاً، أو قطعان المستوطنين والدخلاء وما شابه ذلك.

فالكتابة الموضوعية بمنهجها الأكاديمي لا تستخدم إلا ما هو واقعي، ولا مكان للمصطلح العاطفي الانفعالي في هذا المنهج، وهذا الطرف يمثله كبار الباحثين

والكتاب الداعين إلى التطبيع مع العدو الصهيوني، والمتأثرين بالمناهج الإعلامية الغربية.

وإذا دققنا بالمبررات ذات الاتجاهات الثلاثة، وجدنا أن كلاً منها قد وقع في مطب خطير كان له وما يزال أفدح الخطر في نفوس أبناء أمتنا وعقولهم.

فالطرف الأول ذو الوجهة الدينية يفتقد علمياً لأي مبرر أو مستند، صحيح أن القرآن الكريم تحدث عن صراع مستمر بين المسلمين وبني إسرائيل والمتهودين، وصحيح أن هذا التفسير لآيات سورة الإسراء قد يكون صحيحاً ولكن استخدام مصطلح (إسرائيل) ليس استخداماً مفروضاً أو جبرياً، والنص القرآني لا يحكم بتفسيراتنا البشرية ونحن لا نقوم بشيء سوى الاجتهاد الذي قد يخطئ صاحبه أو يصيب، وليس لاستخدام المصطلح (إسرائيل) شأن في تكريس إدامة الصراع الحالي والمستمر.

والواقع المنظور يقول لنا: إننا نجتهد كما يجتهد غيرنا، ولكن اجتهادنا في تفسير آيات القرآن الكريم لا تحكمه المواقف الأيديولوجية المسبقة والتي نصنعها نحن بأنفسنا، فكما نرى اليوم في فلسطين المحتلة أعراقاً وأجناساً من المتهودين يبلغ تعدادها الثمانين عرقاً وجنساً فأين هم بنو إسرائيل من هذه الأعراق والأجناس، وكيف نسلّم أن كل متهود يطلق عليه وعلى أمثاله بني إسرائيل؟

فنحن نعتقد أن النص القرآني يفرض علينا التمعن والفهم الحقيقي لمقاصده ولا يحتاج لأيديولوجيا انفعالية تفرضها فحسب.

ثم إن المصطلح الذي يكرس العداء بين الظالم والمظلوم، بين المغتصب والمغتصبة أرضه ليس بالضرورة أن يكون واحداً على مر العصور، وتقصد به الصراع بين بني إسرائيل والمسلمين فالرسول عليه الصلاة والسلام وحسب ما أورده القرآن الكريم وحسب ما أوردته السنة الشريفة لم يستخدم مصطلح بني إسرائيل وحده أثناء الصراع مع اليهود في المدينة (يثرب) وما حولها، فقد استخدم مصطلح أهل الكتاب أكثر من سبعين مرة، واستخدم كلمة يهود تسع مرات منكرة ومعرفة، والواقع أن معظم الآيات التي استخدمت مصطلح بني إسرائيل كانت في أغلبها تتحدث عن

الماضي، أي: أنها تخبر الرسول - عليه الصلاة والسلام - عن تاريخ بني إسرائيل وماضيهم ومآسي الأنبياء معهم منذ موسى - عليه السلام - وحتى عيسى - عليه السلام - أما مصطلح أهل الكتاب فقد استُخدم في الحجاج الحاضر أي: في الحوار بين النبي الكريم وبين يهود المدينة وما حولها.

أما كلمة يهود فقد جاءت في معظم الحالات في صيغة الذم والفضح، وهذا يعني أن مصطلح يهود هو المصطلح الأوفر حظاً في ذم اليهود، وهو المصطلح الأكثر التصاقاً بواقع الصراع إن كان صراعاً دينياً أو عقدياً أو كان صراعاً مسلّحاً أو عنيفاً.

إن استخدام مصطلح (إسرائيل) يعني استخدام مصطلح الثبات في المكان وهذا يعني أن المتهودين قد ثبتوا في المكان أي: في فلسطين، والثبات يعني الديمومة والبقاء والاستمرار، وهذا ما ينافي ما جاء في القرآن الكريم أولاً، وما جاءت به وقائع التاريخ عبر أكثر من ثلاثة آلاف عام.

والصراع ليس مع بني إسرائيل بهذا المفهوم الضيق، والقرآن الكريم يشير لنا بوضوح أن الصراع لا يرتبط بمكان صغير فحسب إنما يشير إلى صراع كوني بين القوة الخيرة والقوة الشريرة والمنحرفة سلوكياً وعقيدياً.

فاليهود الذين يعادون يهوداً آخرين مخلصين ليهوديتهم وتوحيدهم كالقرائين مثلاً هم منحرفون ظالمون أشرار فاسدون إن كانوا في مكان واحد أو عدة أمكنة من العالم إن كانوا في فلسطين المحتلة أو في أمريكا وروسيا والهند أو غيرها، الصراع مع الظالمين واجب ديني فرضته قوانين الإنسانية جمعاء.

واليهود الذين عادوا السيد المسيح - عليه السلام - ويعادون النصرانية ويكيدون لها هم أيضاً أشرار فاسدون وقتلة وظالمون وتجب محاربتهم أينما كانوا في فلسطين أو غيرها.

وكذلك اليهود الذين عادوا النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - ويعادون العرب والمسلمين ويظلمونهم ويغتصبون أراضيهم هم أيضاً أشرار فاسدون تجب محاربتهم أينما كانوا وأينما وُجدوا، وهذه هي رسالة إقامة العدل والتوحيد والمساواة والحقوق الإنسانية في كافة أرجاء المعمورة.

أما الطرف الثاني الذي يبرز استخدام مصطلح (إسرائيل) بسبب المتغيرات السياسية والظروف الدولية فإنه يبدو منطلقاً من عجز واضح عن مقاومة الغزو الفكري الغربي والعالمي.

والواقع أننا كعرب تقبلنا كثيراً من التعاليم والمصطلحات الغربية بدءاً من العشرينات من القرن السابق أي: بدخول الاستعمار الحديث العسكري إلى بلادنا بعد الحرب العالمية الأولى واتفاقية سايكس بيكو، حتى أصبح معمماً فرض علينا ثقافة غربية نسفت كثيراً من مفاهيمنا وثقافتنا، وهو مستمر بسياسة الغزو الثقافي من خلال فرض مصطلحاته علينا وعندما نادي بمحاربة ما يسمى الغزو الثقافي والتطبيع فإننا ملزمون أن نستخدم المصطلحات السياسية النابعة من قناعتنا وليس من قناعات الغرب، فالغرب لا يطلب منا مباشرة استخدام مصطلحاته إنما هو بإعلامه وثقافته يغزونا، بأساليب إعلامية كثيرة ويكرس مفاهيمه في عقولنا وأدبياتنا وثقافتنا.

والمتغيرات الدولية مصطلح مبهم وخطير في نفس الوقت فما الذي تغير بالنسبة لنا نحن العرب، المتغيرات الدولية فرضت قوة الكيان الصهيوني وتوسعه على حساب أرضنا وشعبنا العربي وفرضت ضعفنا وتقييدنا أمامه.

والذي تغير هو مزيد من الضعف والعجز والانهيار، ومزيد من الحصار وسياسات التجويع والانحدار المسلكي والأخلاقي، وفقدان الشخصية المتوازنة، والغرب يريد منا أن نكون حسب فهمه واقعيين أي: نقبل بالواقع المفروض علينا، فهذه حدودنا وهذا هو سقفنا الحضاري والوجودي في هذا الكون المتطور والمتقدم، نعتقد أن استخدام أي مصطلح مرهون بما أفرزه، وإذا كان الضعف والانهيار هو ما أفرزه قبولنا بمصطلح (إسرائيل) فمن المفترض أن نرفض ضعفنا ونكون أكثر تحفزاً وأكثر تصدياً لهذا الضعف والانهيار وإلا إذا تم العكس فلا داعي للادعاء بأننا أمة لها شخصيتها وتاريخها وحضارتها، ولها أيضاً مقومات وجودها واستمرار بقائها.

ولعل هذا الطرف عرف خطأه القاتل حين رأى ما حدث من متغيرات بعد الحادي عشر من أيلول سبتمبر، وبعد الاجتياح الصهيوني للضفة الفلسطينية وحرب الإبادة التي شنتها قوات الاحتلال الصهيونية على الشعب الفلسطيني، فأمريكا

كشرت عن أنيابها المتوحشة وأعلنت على الملأ عداءها للإسلام والمسلمين يساندها البريطانيون وبعض دول الغرب والكيان الصهيوني في اجتياح الضفة الفلسطينية وأجرى المذابح المروعة وحرب الإبادة بحق الفلسطينيين، فماذا تغيّر وما المتغيرات الدولية التي حدثت؟

هل حدث إلا مزيد من إبادتنا في أفغانستان وفلسطين والعراق؟

ولعل الطرف الثالث الذي يبرر استخدام مصطلح (إسرائيل) هو الأخطر باعتباره يمثل النخبة من الباحثين الدارسين والأكاديميين، ومبررات استخدامه تستند إلى مقولة الموضوعية في البحث والصياغة والرؤية، ومقولة الموضوعية المستندة على التوثيق والعلمية والمقبولة في الإعلام الغربي والثقافة الغربية والعالمية.

فمفهوم الموضوعية المطاط والضبابي أوقع الكثيرين في مطب إشكالية الفهم، فأن تكون موضوعياً ليس معناه أن تكون مراقباً محايداً، وأعتقد أن الذي يكون مراقباً محايداً ليس له علاقة بالصراع، فهو ينظر من الخارج البعيد فيصف ويحلل ويطرح من خلال موقف منفصل تماماً عن قضية الانتماء والاحتراق بالنار، وحتى كبار الإعلاميين والباحثين الغربيين لم يكونوا حياديين مراقبين ولن يكونوا طالما يحكم العالم صراع بين الشعوب والحضارات والأديان والثقافات.

والموضوعية تتطلب أن تصف المجرم بما يستحق، وتصف جريمة القتل والإبادة بجريمة القتل والإبادة لا أن تصفها بأنها حادثة عابرة وصراع الأنداد والأضداد وصراع على أرض متنازع عليها وما إلى ذلك من تعابير ومصطلحات تعامل المعتدي والمعتدى عليه سواء بسواء.

فاستخدام (إسرائيل) بحد ذاته خروج على الموضوعية لأن هذا الاستخدام المجرد من الوصف الحقيقي الواقعي هو ابتعاد عن صدق الموضوعية وصحتها الإعلامية والثقافية، فالموضوعية تتطلب صدق الخبر وصدق التاريخ وصدق الواقعية، ومن ينكر أن وجود الكيان الصهيوني واستمرار بقائه هو خروج على أبسط أسس الموضوعية؟

إن الذي يحكم الباحثين الأكاديميين اليوم هو قاموس المصطلح الغربي وليس قاموس المصطلح العربي أو الإسلامي، وها هي وسائلنا الإعلامية تردد ما يصدر الغرب من مصطلحات يوماً بعد يوم، فالوطن العربي يصبح شرق أوسط. والكيان المغتصب يصبح دولة (إسرائيل) والأرض المغتصبة تصبح أرض (إسرائيل) وعرب فلسطين يصبحون عرب دولة (إسرائيل) يقيمون فيها مؤقتاً، فهم أقلية ومواطنون من الدرجة الثالثة، وقس على ذلك في كافة الأمور والقضايا.

المؤثرات السلبية لاستخدام المصطلح: يدخل الإعلام بشكل عام في عالم واسع من علم النفس، حتى أن كثيراً من الباحثين يطرح مصطلح علم النفس الإعلامي بما للكلمة المقروءة والمسموعة من تأثير في المتلقي.

والمصطلح في الإعلام جزء أساسي في تركيبه ويلعب نفس الدور في نفسية المتلقي وذهنه وردود أفعاله.

وحين نعاين أي فرد عربي ونرى مدى تأثير استخدام المصطلح (إسرائيل) عليه سنرى أنه في الواقع الراهن قد تخلى عن كثير من أساسيات فهم الصراع مع محتل احتل أرضه واغتصبها وبات يشكك بكل مقولات التاريخ التي تعلمها، وبكل المثل القومية الثورية والجهادية، وبات مستسلماً تماماً للأمر المفروض عليه فرضاً.

وتشمل تأثيرات المصطلح عدة مناحٍ من حياة الفرد بدءاً من الطفولة وحتى الكهولة، فالطفل الذي تربى على مفاهيم إسلامية جهادية إسلامية بات المصطلح يقول له: إن (إسرائيل) دولة موجودة لها تاريخها، وهي ليست عدوانية، إنما تريد أن تحيا بشعبها على هذه الأرض وقد عمل العدو الصهيوني على ترسيخ هذه المقولة في ذهن المواطن العربي ونفسيته، وسيلعب استخدام المصطلح دوره في تركيبة هذا الطفل، وينمو مع نموه، فيصل مرحلة الشباب وتكون قضية الصراع مع المحتل قد تلاشت وهذا ما راهن عليه كثيرون من زعماء الحركة الصهيونية حيث قالوا: إن الزمن كفيل بحل القضية الفلسطينية.

وعندما ننظر ملياً إلى الأجيال العربية المعاصرة نلمس عن كثب هذا التوصيف، فهذه الأجيال التي تربت على مصطلحات القبول بالأمر الواقع حتى ولو

كان خطأ لن تكـون مؤهلـة لاستمرارية الصراع، بـل ستكون معرضـة بسـهولة لكـل أشكال الغزو والتطبيع ومن ثم استسهال سحقها وإذابة كل مقومات شخصيتها.

وتنسحب المؤثرات على كافة الأجيال والقطاعـات الاجتماعيـة، فيرى الكبـار أن كل نضالاتهم وشعاراتهم القومية والإسـلامية الثوريـة ديسـت تحت الأقـدام، وأن تاريخهم وتاريخ أمتهم المعاصر ما كان سوى كذبـة كبيرة كـانوا هـم ضحاياهـا وليس سواهم.

إن الاستسلام للأمر الواقع حتـى لـو كـان بـاطلاً يعـود في أحـد جوانبـه لسبب إعلامي صرف، حيث يكرس الإعلام الاعتراف بدولة اسمها (إسرائيل) لها حدودها وأرضها وشعبها وسياستها وسيادتها، وما على الجماهير إلا أن تصدق مـا يطلبـه منـها الإعلام، ولا شك أن ذلك يخلق أزمة نفسية وفكرية ووجدانية لـدى المواطـن بفطرتـه قبل ثقافته أن الكيان الصهيوني مغتصب للحق والأرض ويعـرف أن ملايـينَ مـن أبنـاء شعبنا الفلسطيني ما يزالون مشتتين أمام عينيه يراهم كل ساعة وكل يـوم منتشـرين فـي ضواحي العواصم العربيـة، وفـي معسـكرات التجمـع فـي ألمانيـا والسـويد والدانمـارك وغيرها.

كيف يطلب منه تغيير مفاهيم الحق وهو يرى بعينه الحق، وكيف يصـدق وجـود دولة اسمها (إسرائيل) وفي الوقت نفسه يرى من شُردوا مـن نفس الأرض التي تقـام عليها هذه الدولة، إن هذا الشرخ النفسي سيؤدي بالتالي إلى انفصام فـي الشـخصية، وهـذا مـا تسـعى إليه جميـع الدوائـر الفكريـة والنفسـية والعلميـة الصهيونيـة والغربيـة المعادية لعقيدة الإسلام والعروبة.

إذن وبعـد كـل هـذا التوصيـف مـا الحـل؟ مـا البديـل؟ ومـاذا نسـتعمل مـن مصطلحات في وسائل إعلامنا على شتى أصنافها؟

إن مشـكلة استخدام المصطلـح فـي الإعـلام تقـع فـي صلـب مفـهوم صـدام الحضارات، وإذا كنا قد سقنا النموذج العربي الصهيوني كنموذج صراع وصدام، فإن أحد أهم الأسباب التي تؤدي إلى الصدام مع الغرب هو سبب مشكلة المصطلح، فهم لا يفهمون سوى ما تربوا عليه، ونحن نفهم ما تربينا عليه، إن كـان ذلـك فـي مفـهوم

الحرية والاستقلال ومقاومة الاغتصاب والاحتلال، أو كان ذلك على مستويات الحريات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها.

وقبل أي طرح لأي حل ذي جدوى وذي تأثير لا بد أن نشير إلى مسألة حساسة وخطيرة قبل أن نفكر بأي مصطلحات نخاطب بها جماهيرنا، فنحن وهذا العدو في حالة عداء أبدي طالما يحتل أرضنا ويعيث في الأرض فساداً، وحالة العداء هذه لا بد لها من إعلام تربوي توجيهي يرسخ مفهوم العداء، والعدو الصهيوني يرسخ العداء بشكل يومي بين طلاب المدارس في شتى أعمارهم، وكذلك في وحدات الجيش وكافة الإدارات المؤسسات الدينية والحزبية والحكومية ويرسخ العداء للإسلام المسيحية ولكل الأغيار على حد تعبيرهم، ولا نعتقد أنه من الذكاء والحس الإنساني أن نقابل الحقن اليهودي العنصري بحقن عربي متسامح ومتجاهل لأصول الصراع بين المغتصب والمغتصبة أرضه.

إن الصراع الطويل مرير، وإذا لم نحسن استخدام المصطلح السياسي في توجهنا وتربيتنا فإننا كمن يُجلد على ظهره ويقول: هل من مزيد، وسنخسر أجيالنا ومزيداً من أراضينا العربية، فالأجيال التي يمكن أن تواصل الصراع تحتاج لحقن صحيح يوضح دوماً طبيعة العدوان الصهيوني على أرضنا وأمتنا، ويوضح أن إدامة الصراع ليست غاية في حد ذاتها بقدر ما هي مواصلة الطريق الطويل نحو تحرير أرض فلسطين والقضاء على الفساد الصهيوني العالمي.

بعد ذلك يمكن لنا أن نعيد صياغة المصطلح الذي هو من مستلزمات العداء والكره للاحتلال والاغتصاب.

وأول هذه المصطلحات التي نحتاجها مصطلح الكيان الصهيوني الغاصب، وكلمة كيان لا تعني الثبات في المكان مثل كلمة دولة، وهو يعني بشكل أوضح سلطة تحكم وليس مجتمعاً ودولة، والواقع أن الذي يحتل أرض فلسطين هو كيان صهيوني سياسي قابل للزوال لأنه أساساً قائم على باطل.

ولا شك أن هناك قائمة طويلة من المصطلحات يجب استخدامها في هذا الشأن ومن أجل تلك الغاية. وهذه المصطلحات ترتبط بكافة جوانب هذا الكيان، ففي

الجانب السياسي علينا تكريس المصطلحات التالية، رئيس كيان العدو ورئيس وزراء العدو وزير خارجية العدو وقس على ذلك كل المصطلحات المترتبة بالجانب السياسي والدبلوماسي كسفير العدو وممثل العدو ووزارة العدو.

وفي الجانب العسكري علينا تكريس قولنا: جيش حرب العدو، قوات الاحتلال، شرطة الاحتلال، جنود الاحتلال، حرس الاحتلال، وفي الجانب الاجتماعي يمكننا استخدام التجمع الصهيوني، ثقافة التدمير الصهيوني، الفكر التدميري الصهيوني، التربية العنصرية الصهيونية، وقس على ذلك في كافة الأمور، فهي في المحصلة تكرس في عقلية المواطن مفهوم العداء للاغتصاب والاستلاب، وتكرس على المدى النفسي الاستيراتيجي إدامة الصراع بكافة أشكاله وألوانه، علينا أن نكرس مقولة فلسطين المغتصبة، وشعب فلسطين تحت الاحتلال وما إلى ذلك من مصطلحات الحق التي لا يمكن أن تحوّل أو تحرّف أو ينتقص منها أي حق.

الإعلام العربي والانتفاضة الفلسطينية:

شكلت الانتفاضة الفلسطينية المباركة مادة مهمة للإعلام العربي ولا سيما المحطات الفضائية الأكثر انتشاراً والأكثر جماهيرية.

ومن الطبيعي أن الانتفاضة الفلسطينية وتطورها إلى مقاومة ومواجهة وحرب حقيقية في جنين ونابلس وباقي الأراضي الفلسطينية شكلت وجهاً أساسياً من أوجه القضية الفلسطينية لما لها من علاقة نسيجية مع القدس والمقدسات الإسلامية، ولما لها من أبعاد على مستوى القضية الفلسطينية بشكل عام.

لكن المراقب للوضع العربي وإعلامه يتراجع خطوات إلى الخلف مصدوماً مندهشاً وقد تصل صدمته حد التحجر أو الشلل.

ليس من قبيل المبالغة أن نقول ذلك، وليس من قبيل أن الفلسطينيين يرون الأمور مختلفة عن غيرهم، فالواقع الإعلامي العربي ليس إلا انعكاساً للوضع العربي الذي لا يخفى شأنه على أحد.

إن أول ما يلفت النظر إلى الإعلام العربي كيفية التعامل مع القضية الفلسطينية، فهل شكلت هذه القضية الهم الأول للعرب ولإعلامهم؟

الواقع يقول لنا: إنها لا تشكل الهم الأول ولا حتى الثاني والثالث.

فعلى مستوى الفضائيات تفضل بعضها الحديث عن أي حدث عالمي بارز على الحديث عن الانتفاضة الفلسطينية أو حتى عن القضية الفلسطينية بشكل عام، وعلى سبيل المثال فقد أخذت انتخابات الرئاسة الأمريكية حيزاً في بعض الفضائيات وكأنها الحدث الأخطر على مستوى العالم، وفي الوقت نفسه كان العدو الصهيوني يغتال المجاهدين ويقصف البيوت الفلسطينية ويجرف الأراضي ويهدم المنازل ويقتحم القرى والمخيمات والمدن.

وتنقل بعض الفضائيات المؤتمرات الصحفية التي يجريها الرئيس الأمريكي أو زعماء الكيان الصهيوني وكأنها المفصل في كل القضايا وذلك على حساب نقل القتال الدائر بين الجيش الصهيوني والمجاهدين الفلسطينيين، أو نقل المجازر في مخيم جنين ومخيم بلاطة ورفح والخليل والمناطق الفلسطينية الأخرى، ولعل الأخطر من ذلك كله أن بعض المحطات كقناة الجزيرة والفضائية الأردنية وكذلك المصرية والموريتانية تستخدم خارطة الوطن العربي وفي قلبها (إسرائيل) وتضع خارطة فلسطين وعليها اسم الكيان الصهيوني وكأنها ألغت تماماً فلسطين من الوجود، وبعض المحطات وضعت مدينة غزة كعاصمة لدولة الضفة والقطاع وعاصمة السلطة الفلسطينية، ومعتبرة أن القدس عاصمة الكيان الصهيوني، أما على مستوى المصطلحات فإن بعض الفضائيات العربية كرست اسم (إسرائيل) مقابل مناطق السلطة، وتعامل بعضها مع الكيان الصهيوني كأمر وقع، وكما تتصل بعض الفضائيات بمسؤول بالسلطة تتصل بإعلامي صهيوني أو مسؤول يهودي لتنقل وجهة نظره في المسائل التي تجري، وكأنها تريد أن تقول عن نفسها: إنها تعبر عن مستوى حيادي حضاري موضوعي، وهذا ما يبرز موقف بعض الدول العربية التي نفضت يدها من القضية الفلسطينية وباتت تشكل إعلاماً متفرجاً على ما يجري من مذابح واغتيالات وقصف للبيوت وتدمير لكل البنى التحتية للشعب الفلسطيني، وكل ما يجري في الأراضي الفلسطينية ليس إلا مباراة لكرة القدم: وعلى مستوى الأولويات إذا رصدنا البرامج التي يبثها أغلب الإعلام العربي نجد أن البرامج الخاصة بالقضية

الفلسطينية لا تشكل 10٪ بالمائة من البرامج التي تبث، وبعض المحطات كرست نفسها لنقل مباريات كرة القدم التي تجري هنا وهناك، فتارة تنقل الدوري الإنجليزي أو السعودي أو الفرنسي أو البرازيلي وتأتي بأخبار رياضية من بلاد قد لا يسمع به المرء إلا نادراً، وبعض المحطات كرست للمخاطبة باللغة الإنجليزية فتنقل فيلماً أميركياً لمدة ساعة أو أكثر ثم يعقبه فيلم آخر قد يكون فرنسياً، وبرامج عن الحيوانات والبحار أو مسابقات الكلاب والقطط ونوادر الشاذين والمغامرين، وكأن المحطة تعيش في عالم آخر ليس موجوداً بالقرب من فلسطين وما يجري فيها.

ويطغى الإعلام القُطري في معظم الأقطار العربية فالأخبار المحلية تطغى على كل شيء، وإذا زاد متسع من الوقت تحدثوا عما يجري في فلسطين بشكل مقتضب ومكثف، وهذا السلوك الإعلامي من شأنه أن يمتص نقمة الجماهير ويلهيها عن القضية المركزية للأمة وهي قضية فلسطين.

وعلى سبيل المثال لا الحصر ظلت المحطات منشغلة عدة أيام للحديث عما جرى من اتفاق بين قطر والبحرين حول ترسيم الحدود وتقاسم الجزر والمياه، والأدهى من ذلك أن محكمة العدل الدولية التي يحكمها قضاة غربيون غير مسلمين هي التي رسمت الاتفاق، وكأن العرب افتقدوا للقضاة والمحامين والمحكّمين لحل مثل هذه القضايا، وكأن هذا الحل بين قطر والبحرين أبطل مفعول حرب عالمية كونية أوشكت على الوقوع، بينما تقع حرب حقيقية على الشعب الفلسطيني يقتل فيها أطفاله ونساؤه بالعشرات، وتُدمر بيوت أبنائه وتنتهك مقدساته وحرماته والإعلام لدى بعض العرب في أغلبه يركز همه على قضية أكبر بكثير من قضية فلسطين هي قضية تثبيت الحدود القُطرية بين البحرين وقطر. !

ومن مساوئ هذا الإعلام لهجة الاستسلام والترويج لما يُسمى الأمر الواقع، وهذا من أخطر ما تطرحه بعض المحطات العربية حيث أنها تقدم برامج سياسية وفكرية ساخنة تهدف من ورائها التسليم بالأمر الواقع وهو الاعتراف بالكيان الصهيوني الغاصب، والاعتراف بحق اليهود المزعوم في العيش بأمان في دولة ومجتمع،

والاعتراف بأنه خطأ كبير التفكير بتحرير الأراضي المحتلة، وأن الحل الوحيد المفاوضات برعاية واشنطن ولا يجوز الابتعاد عن هذا الخيار!

فالناظر إلى برنامج أكثر من رأي، وبرنامج الاتجاه المعاكس، دليل على ذلك فظاهر البرنامج الوقوف إلى جانب طموحات الجماهير المظلومة، بينما باطنه يطرح أساليب للإحباط وعدم جدوى التصلب في وجه الواقع الذي يضخمونه ويكبرون قواه المحلية العالمية، ويصغرون من شأن المقاومة الفلسطينية ومستقبلها على ضوء الواقع الراهن عربياً ودولياً وفلسطينياً.

ولعلنا نعرف أن من أهم أساليب الإعلام التضخيم والتصغير والتشويه، فمن جانب تسعى بعض المحطات إلى التقليل من العمل الجهادي الاستشهادي الذي يقوم به أبناء فلسطين، بينما تسعى لتنظيم عمل لا يكون مؤثراً على المستوى الميداني لكنه يخص جهة ما دون جهة، وهذا الأسلوب الخبيث من شأنه أن يخلق جواً من التوتر بين أبناء الشعب الفلسطيني الواحد الذي لا يهمه سوى الرد على العدو الصهيوني المحتل. وهذا الشعب ليس في حسابه من ينفذ العمل الجهادي وإنما في حسابه أن يكون هناك رد على العدو، والأمر الأبشع هو التشويه، فبعض المحطات كرست بعض برامجها للحديث بطريقة مريبة عن مجريات الأمور الاجتماعية في بعض المدن الفلسطينية والتي قام أبناؤها ليلة عيد الأضحى المبارك بشراء الحلوى والملابس الأمريكية الصنع، وأرادت من ذلك أن تقول: إن الفلسطينيين لا يعانون من حصار فهم في بحبوحة من العيش، ثم تريد من وراء ذلك تشويه صورة نضال الشعب الفلسطيني أمام العالم خاصة أن الشعب الفلسطيني يعيش أسوأ حالات الحصار والحرب الحقيقية، بينما تنقل بعض المحطات صوراً أخرى وكأنها تقول: لا تصدقوا الشعب الفلسطيني، لا تصدقوا معاناته، وهم بذلك يلتقون مع الإعلام الصهيوني الذي يروج لهذه المقولات.

وعندما جرى ما جرى في شهر نيسان وما بعده، وعندما بلغت المجازر الصهيونية في جنين ونابلس ورفح ذروتها، غيرت بعض المحطات أسلوبها بأن أصبحت تروّج لمقولة السلام ورفع الحصار طالما أن الفلسطينيين غير قادرين على صد

العدوان الصهيوني، وطالما أن العرب مشغولون عن القضية عاجزين عن فعل أي شيء لدعم ذلك الشعب الفلسطيني المحاصر.

والأدهى من ذلك أن بعض المحطات تركز على صور معاناة المدنيين اليهود جراء عملية استشهادية، ولا تركز على صور جنود الاحتلال الذين يُصرعون أثناء القتال مع المجاهدين الفلسطينيين، وعلى سبيل المثال فالعملية التي جرت في حيفا وقتل فيها الجنود الصهاينة الاحتياط لم تأخذ حقها من البث خاصة أن القتلى من الجنود كانوا على الأرض وثيابهم العسكرية تدل عليهم، بينما العملية التي جرت في القدس بعدها تم التركيز عليها مراراً وتكراراً لتُظهر امرأة يهودية وهي مصابة بالصدمة ويساعدها في التنقل اثنان من الشرطة الصهيونية.

ولابد من الإشارة هنا إلى منهج محطة الشارقة الفضائية المختلف عن بعض المحطات الأخرى فهي تلتزم القضية الفلسطينية القومية بدءاً من استخدام المصطلح وانتهاء بالدعوة للجهاد في سبيل تحرير فلسطين، فكل صهيوني مغتصب مهما كانت طبيعته عسكرية أم استيطانية، ولا تعترف بأمر واقع مفروض مثلما تفعل محطة الجزيرة أو غيرها من محطات الدول العربية التي تقيم علاقات دبلوماسية مع الكيان الصهيوني.

إن بعض الإعلام العربي تربى منهجياً على الإعلام الأمريكي والغربي بشكل عام إن كان بكوادر من المشكوك بانتمائها وعقائدها، أو كان بأساليبه التي اكتسبها من خلال الدورات والخبرات الإعلامية التي جرت وتجري في الإعلام الغربي المعادي لقضية فلسطين وطموحات أبناء الأمة، إن معاناة حقيقية يعيشها المواطن العربي وسببها الهجوم الإعلامي التخريبي للإعلام التغريبي المتصهين، فهذا الإعلام كما رأينا نشط كثيراً واتخذ من الوسائل والأدوات ما هو أكثر خطراً على الأمة وأكثر مكراً وخبثاً من الإعلام الغربي ذاته.

فعلى الرغم من أن كثيراً من المثقفين والمفكرين العرب والمسلمين يحذرون دوماً من الانجرار وراء دعايات الإعلام التغريبي، إلا أن كثيراً من الظواهر التي كان هو سببها بدت منتشرة في جوانب عدة من حياتنا المعاصرة، حتى أن بعض المنظرين يقول

مثلاً: إن العولمة سيل جارف لن تقف أمامه أي قوة من القوى الوطنية أو القومية أو الإسلامية، وإن الغزو الثقافي لا بد حاصل في منطقتنا مهما تصدت له العقول والأفكار.

والواقع أن القوى المعادية للأمة من صهاينة وعنصريين غربيين لم يعد يهمها خاصة بعد أحداث 11/9 التي استغلت هذا السياق لأقصى حد ممكن أن تصطدم بالفكر الإسلامي مباشرة ولا بمخزون الأمة من رصيد عقيدي لأنها استطاعت بتأثيراتها أن تزرع في نفوس الكثير من أبناء الأمة أفكاراً تغريبية، وأصبحوا امتداداً للفكر الغربي يزرعون عدم الثقة بالذات والتراث، ويزرعون اليأس ويروجون لأفكار ظاهرها إنساني وباطنها إلغاء الهوية والدين وما استقر وتوارث من عادات وتقاليد ومثل حميدة.

ولعل الأخطر من ذلك أن أصحاب الإعلام التغريبي باتوا كما رأينا يمتلكون وسائل إعلامية غاية في التطور والاتساع، من محطات فضائية وصحافة ومجلات وعقد ندوات ومؤتمرات وطباعة كتب وكراسات تتجه جميعها لقلب كثير من المفاهيم الإسلامية وتطويعها وفقاً للمنظور الغربي ولمصالحه الفكرية والثقافية والسياسية، وهذا أمر يستدعي التوقف والتفحص لأساليب المواجهة والتحصين أمام كل أشكال التغريب.

1 - على المستوى السياسي أو مستوى الصراع مع العدو الصهيوني نشطت وسائل الإعلام التغريبية في حملة الإقرار بوجود الدولة الصهيونية على أرض فلسطين، وعلى العربي والمسلم أن يقبل بالأمر الواقع، وإمعاناً في ذلك راحت أجهزة الإعلام المرئية والمكتوبة تُجري اتصالات صحفية وفكرية مع رموز الكيان الصهيوني وتفرد لهم مساحات واسعة على شاشاتها وكأن ذلك أمر طبيعي وكأن لهم الحق ابتداءً في الوجود على أرض فلسطين، وكأن لهم الحق في الحوار، ولهم الحق في الدفاع عن جرائم الكيان اليومية تجاه الشعب الفلسطيني، وأصبح من ينادي بعروبة القدس وأرض فلسطين عدمياً لا علاقة له بالواقع المعاش، أو أنه من عصر متخلف لا يستوعب الحاضر، وحذف هذا الإعلام الأولويات

الفلسطينية والعربية والإسلامية كحق الجهاد، وشرعية المقاومة حتى تحرير كامل التراب الفلسطيني، وحق عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم، واعتبار العدو الصهيوني العدو الأساس للأمة العربية والإسلامية، منذ وجوده وحتى الآن.

وعلى مستوى التفاصيل تجد المصطلح الإعلامي الذي يتداولونه مشبعاً بهذه الوضعية وهو ما يمكن ملاحظته ببساطة في التعابير التي تصف العمليات الاستشهادية بالعمليات الانتحارية، أو القول مثلاً: (قتل الجنود الإسرائيليون عدداً من المتسللين الفلسطينيين إلى إحدى المستوطنات الصهيونية، أو اعتقلت السلطات الإسرائيلية عدداً من الفلسطينيين يشتبه بقيامهم بأنشطة معادية (لإسرائيل) وهي تعابير واضحة في هذا المجال ولا تتطلب توضيحات إضافية.

وحين ركز الغرب على مقولة الدولة القومية القطرية وكرسها، بات أبناء الأمة على قناعة بهذه المقولة، حتى أن بعض دهاة السياسة البريطانية يصرح بأن بروز الدولة القومية القطرية طغى على كافة التيارات القومية العربية أو التيارات العربية الإسلامية، وظهر أن وجود الأقطار العربية بهذا الشكل الانقسامي قد أصبح جزءاً من مستقبلها، ولا وجود لأية طموحات وحدوية سياسية أو اقتصادية.

أما عن الارتباط السياسي فقد آلت الأمور إلى الارتهان لسياسة القوة الغربية وعدم القدرة على تحقيق الاستقلال الذاتي السياسي، وقد لعب الإعلام التغريبي دوره في تثبيت التبعية السياسية وذلك من خلال تهميش قدرات الأمة وتوجيهاتها المستقلة النابعة من ذاتها والواعية لظروفها وخصوصيتها على الساحة الدولية والإقليمية.

2 ـ على المستوى الثقافي والفكري فإن مظاهر الإعلام التغريبي تظهر بشكل أوضح وأفظع، فمجموعة المنظومات الثقافية والفكرية التي كانت تمتلكها الأمة باتت مهددة، إما بالتشويش والتشويه، وإما بالبتر والقطع، وإما باستبدال مصطلح بمصطلح، أو استبدال فكر بفكر، وكل ذلك يشكل جزئيات في تيار كبير يصبه الإعلام التغريبي باتجاه تخريب قيم الأمة ومثلها على المستوى اللغوي، مثلاً لم يعد هناك حرج في أن تقدم وسائل الإعلام كل برامجها وأخبارها باللهجات

المحلية العامية وذلك بحجة أن العربية كلغة غير صالحة للتخاطب مع الجماهير، وأن العامية تفصح عن خصوصية كل شعبٍ وكل بلد، وقد أحيت بعض وسائل الإعلام التغريبي المقولات المحلية اللغوية التي ظهرت في العشرينات من القرن الماضي في قُطر أو أكثر.

3 ـ على مستوى الإبداع الأدبي فقد دعا الإعلام التغريبي للتحلل من الشكل الفني ومن المضمون، وأصبح من الواضح أن هناك هوة سحيقة بين الشعر وبين الجماهير، فقد زهد جيل الشباب بكل النتاجات الشعرية إلا ما ندر وذلك بسبب تهافت هذا الفن وفقدانه لمضامينه التي درج عليها في الستينات والسبعينات من القرن الماضي، وكأن ظروفنا العامة قد تغيرت لصالحنا، حقاً وكأننا قد حررنا فلسطين وبنينا المجتمع المستقل حقاً، وحلت مشاكل جماهيرنا فعلاً.

وإذا تلمسنا الرواية والقصة وجدنا أن أكثر حالات المضمون لا تخرج عن الطابع الاغترابي أو الحسي الفظ، وقد رأينا العديد من الأعمال الإبداعية في أكثر من بلد قد تهافتت لدى كثير من المبدعين.

أما الجانب الأخطر في المستوى الثقافي، فهو تقبل الغزو الثقافي الغربي الصهيوني والترويج له تحت شعار الثقافة الإنسانية الواحدة، والإبداع الإنساني المشترك، فالأفلام الأمريكية الصهيونية تطرح بشكل واضح على بعض الشاشات المرئية مركزة على التعاطف مع اليهود المضطهدين الذين راحوا ضحية المحرقة النازية المزعومة، وقد بُثت بعض البرامج الملغومة في هذا الشأن على مدار الأعوام الماضية في بعض المحطات، بينما يحاكم ورجيه غارودي وغيره من المؤرخين الغربيين بتهمة التحريض ضد اليهود لأنه وأمثاله قد كذّبوا الدعايات الصهيونية الملفقة والقائلة بوجود محرقة نازية راح ضحيتها ستة ملايين يهودي.

أما على مستوى الكتاب فقد وجد دعاة التغريب أن الكتاب من أهم الوسائل الناجحة في الطعن بالدين والأخلاق والشخصيات... وراح بعضهم ينادي بعدم الأخذ بالسنة النبوية الشريفة، وبعضهم الآخر راح يروج بأن القرآن الكريم كتاب تراثي وليس كتاب الله المنزّل، وليس دستور المسلمين الباقي والصالح لكل زمان

ومكان، وقد روج الكثيرون أمثال سلمان رشدي المرتد من الذين يقتنصون الظروف كي يثبتوا أفكارهم المماثلة في المجتمعات العربية والإسلامية، ونذكر على سبيل المثال كتاب إنذار من السماء لنيازي عز الدين، والكتاب والقرآن لمحمد شحرور، وبعض الكتب التي كتبها الأستاذ الحداد (كالقرآن والمسيحية) ومؤلف كتاب (قس ونبي) الحريري.

أما على المستوى الاجتماعي، فقد استطاع الإعلام التغريبي أن يروّج للانحلال الخلقي والتمرد على كثير من القيم والمثل الإسلامية، وكانت أهم وسائله الدعوة إلى تمثل المجتمعات الغربية التي رفضت القيود وتحللت من الإطار القانوني والقانون الأخلاقي الضابط للسلوك والعلاقات بين الناس، وروجت لمفهوم الحرية الغربية بشكل فج وجريء بل إن هذا الإعلام دافع عن الدعوات الشاذة التي أطلقها الشاذون في مؤتمر بكين للمرأة، ومؤتمرات السكان والتنمية التي عقد بعضها بالقاهرة وأمريكا اللاتينية، وإضافة لهذا الترويج فإن وسائل الإعلام التغريبي هاجمت وبشكل ملفت للنظر منظومة القيم والمثل الإسلامية التي يتمسك بها الكثيرون من جيل الشباب والشابات، وبدت تظهر في وسائل الإعلام مقولات خطيرة تخص الأجيال الناشئة كمقولة الإرهاب والأصولية، أو مقولة الكبت النفسي والعصاب والأمراض النفسية الأخرى كانفصام الشخصية.

وحاولت هذه الوسائل ربط كل السلبيات النفسية وآثارها بالإسلام وقد استغلت إلى أقصى حد ممكن فيما بعد أحداث نيويورك وواشنطن، فلذلك روجت للخروج عن الإسلام وأحكامه، وكان من أثر ذلك أن أوجد بعض مروجي التخريب من اليهود بعض التجمعات الشبابية في بعض البلدان العربية تدعو إلى عبادة الشيطان ومحاربة الإسلام، وقد استخدموا في ذلك كافة الوسائل اللاشرعية في الوصول إلى هدف تدمير شامل للشباب كوسيلة إباحة الجنس، وشرب الدماء، وحفر القبور، وإخراج الجماجم وما إلى ذلك من أمور لا يتقبلها عقل ولا منطق ولا دين.

وعندما نعود متفحصين الموقف التربوي القرآني، فهي في البداية تحصين للذات المسلمة أمام المؤثرات النفسية والفكرية التي يصبها الإعلام التغريبي باتجاه الجوانب النفسية والعقلية لدى المسلم.

والواقع أن الاستجابة النفسية هي أولى الخطوات باتجاه تقبل الإعلام التغريبي فما لم يكن لدى المسلم أو الإنسان بشكل عام ميل عاطفي بهذا الاتجاه فلا يتأثر، ولا يكون فريسة يصطادها المغتربون، لهذا كان القرآن الكريم دقيقاً في وصف هذا الميل وكان شديداً في التحذير منه.

يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: 165] ومن الطبيعي أن الحب البشري يولد في الذات انشغالاً عن حب الله.

ولكن هذا الميل وهذا الحب لا يتوقف عند ظاهرة نفسية فردية فهو قد يتطور باتجاه الموالاة والنصرة والدفاع عن موقف.

يقول تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: 28]. فهذا النهي لا يقتصر على حالة التحالفات والحروب إنما هو نهي مطلق، فكل ما يصدره أعداء الإسلام هو في المحصلة لتشويه الدين وتشويه الذات المسلمة.

يقول تعالى: ﴿ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: 73].

فهنا قانون إلهي، دستور رباني يبيّن للمسلمين منهج التعامل مع الذين لا يتبعون الدين القيم، بل هو يطلب الحذر وعدم التهاون النفسي والأمني مع أعداء الدين من يهود وغيرهم.

وحين نعود إلى بعض أساليب الإعلام التغريبي نرى أنها ذات مصدر يهودي استعماري، وهي كما أوردنا سابقاً تحاول أن تشوه في آيات الكتاب المبين، وتشوه في شخصية رسول الله ـ ﷺ ـ وتحاول أن تكرس أخلاقاً غير الأخلاق الإسلامية.

يقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [المائدة: 57].

فمن هم الذين يتخذون الدين لهواً وهزواً أو لعباً وسخرية غير الصهيونية اليهودية التي تمتلك وتنفذ مشروعها في هزيمة العرب والمسلمين والسيطرة عليهم واستغلال ثرواتهم؟

والواقع أن الإعلام التغريبي الذي يروج لثقافة الغرب ومقولاته السياسية والفكرية لا يضع ضمن أهدافه صالح الأمة ولا صلاحها، إنما يضع في أولوياته تخريب القيم التي تربي المسلم على حب الجهاد وعزة النفس وعدم الذل والتصدي للظلم.

يقول الله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ﴾ [آل عمران: 119 ـ 120]

فالحب كما أشرنا هو الميل، وإذا كان الميل لأعداء الدين من يهود وغيرهم فإنه أيضاً حب لما يقوله هذا العدو.

أليس حب المطبّعين ينطلق من ميل لأعداء الدين من يهود وغيرهم؟

أليس الميل إفساحاً لطرق دخول الغزو الفكري والحضاري الغربي المادي؟.

والواقع أن جل ما يهدف إليه الأعداء من خلال الإعلام التغريبي هو أن يزحزحوا المسلم عن دينه وأخلاقه، ومن ثم يَسهُل اصطياده والسيطرة عليه والتحكم بمصيره ومصير ثرواته.

يقول تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران: 149 ـ 150]

ففي مواجهة الإعلام المعادي والإعلام التغريبي الذي يروج للصلح والاستسلام مع المحتلين الصهاينة لا بد من العودة إلى التحصين الحقيقي المستند إلى القرآن الكريم فالتشكيك بالإيمان بالله لا بد أن يواجه بترسيخ الإيمان بالله، والتشكيك بقدرة الأمة على النصر وتحقيق الذات على كافة الأصعدة لا بد أن يوجه بترسيخ الثقة بالله وبقدرة الأمة على بناء الذات والنصر في كافة مجالات حياتها.

والطعن في القرآن ولغته لا بد أن يواجَه بمزيد من الحرص على القرآن الكريم ولغته العربية، والترويج لمقولة أن الكيان الصهيوني موجود في فلسطين كأمر واقع لا بد أن يواجه بآيات القرآن الكريم التي حثت على اقتلاع الفساد اليهودي والعلو الصهيوني.

عودة إلى القرآن الكريم ترينا سبل التحصين أمام الهجمات التغريبية الصهيونية التي لا تريد لأمتنا الخير ولا التقدم، إنما تريد لنا أن نكون مذلولين مهانين لا حول لنا ولا قوة.

الإعلام والعلاقة بين المسلمين وفلسطين

كيف ينظر الغرب لها وما هي حقيقتها؟

تحدثنا في سياق الفصول السابقة عن قضية فلسطين في الحوار بين الشرق الإسلامي والغرب، واستكمالاً لما سبق رأينا أنه لا بد من التوقف عند بعض الوقائع التي استجدت على الساحة الفلسطينية والتي كشفت بالكامل موقف الغرب من هذه القضية إن كان موقفاً عقيدياً أو سياسياً، وهذه المواقف تؤكد ما تحدثنا عنه سابقاً من

أن الغرب سيظل على رؤيته القاصرة لقضايانا مما يحول بالتالي دون الحوار إن كان حوار حضارات أو حوار أديان وشعوب.

وقد بدا واضحاً أن الفكر الغربي يفهم الصراع الدائر في فلسطين مجرد صراع على الجغرافيا فحسب، ويبدو أنه يرى تمسك الأمة العربية والإسلامية بأرض فلسطين مجرد هوس له أبعاده النفعية ـ التجارية ـ وليس له أية أبعاد أخرى، وهذا ما يدفعنا لتناول هذه المسألة إضافة لملامسة الواقع والفهم الغربي لقضية فلسطين وارتباط العرب والمسلمين بها.

1 ـ الوسيط الدولي السابق في أفغانستان وفي (20/ 9/ 2001) بيار لافرانس أدلى بكلام لمجلة الوسط يفصح فيها عن الرؤية الغربية وفهمها لقضية فلسطين وقال في هذا: (من المؤكد أن العالم المعاصر يولد اليأس في بعض المناطق خصوصاً الشرق الأوسط حيث يعيش العرب والمسلمون حال هوس بالمسألة الفلسطينية.

بداية قد نعذر السيد بيار لافرانس لأن الفكر الغربي بشكله العام مازال يفهم قضية فلسطين وعلاقتها بالعرب والمسلمين فهماً أحادي الجانب، يتوقف عند المسائل الظاهرة البعيدة عن عمقها الديني والنفسي علاوة على أبعادها الوطنية والقومية والجغرافية وما إلى ذلك.

ومنذ زمن استطاعت الصهيونية غير اليهودية (البروتستانتية) أن تزرع في العالم الغربي برمته فكرة أن فلسطين هي حق لليهود، وهذا الحق منحه الله لشعبه المختار، وترسخت هذه المقولة في عقول الشعوب الأوروبية ونفوسهم وطقوسهم الدينية.

فعندما يقيّمون الصراع الحاصل في فلسطين بين العرب والمسلمين من جهة والصهاينة من جهة أخرى لا تغيب عن أذهانهم تلك الأساطير التوراتية عمّا يسمى أرض الميعاد أو أرض (إسرائيل) وقد يجد بعضهم أنه من الغريب أن يطالب العرب والمسلمون بفلسطين كونها حسب فهمهم منحة إلهية للشعب المختار أي: اليهود، ومن هذا المنطلق الأسطوري تتحرك السياسات الغربية تجاه القضية الفلسطينية والصراع العربي الإسلامي الصهيوني حولها.

حتى أن تَصوُر أي حل للمشكلة الفلسطينية والصراع العربي الصهيوني في الرؤية الغربية لن يطالب الصهاينة وقوات الاحتلال الانسحاب من القدس مثلاً أو رفع اليد المحتلة عن المسجد الأقصى والأماكن الإسلامية والمسيحية المقدسة هذا على أقل تقدير، لأن الرؤية العربية الإسلامية ترى في فلسطين حقاً دينياً قومياً وطنياً مقدساً.

وتتوقف الرؤية الغربية عند حدود الفهم لما تقدمه الحركة الصهيونية من أبعاد دينية توراتية، فإذا أراد الغربيون تحليل الموقف العربي الإسلامي تجاه فلسطين توصلوا إلى ما يصفونه بحالة هوس أو جنون كما قال بيار لافرانس.

لماذا لا يتجاوز المفكرون السياسيون الغربيون هذه الحدود؟

لماذا لا يبحثون عن هذا الذي يسمونه هوساً أو جنوناً من قبل العرب والمسلمين تجاه فلسطين؟

ما الذي تشكله فلسطين في المخزون الديني العربي الإسلامي؟

أسئلة من المفترض أن يفتش الغربيون عن أجوبتها بشكل موضوعي لا تحيّز فيه حتى يدركوا أن حالة العرب والمسلمين تجاه فلسطين ليست هوساً أو جنوناً.

ففي المنظور العربي المسيحي تشكل فلسطين مهد المسيح ـ عليه السلام ـ ونقطة إشعاع العقيدة النصرانية إلى العالم وأرض الشهداء النصارى الأوائل الذين عانوا الظلم والرفض والاضطهاد من قبل الرومان الوثنيين المحتلين والمتهودين من الفرّيسيين وغيرهم.

وإن كانت دعوة المسيح ـ عليه السلام ـ أولى ضحايا الظلم الوثني اليهودي المارق فإن شعب فلسطين العربي الكنعاني هو الذي تلقى أقسى أنواع الهجمات البربرية قبل مجيء المسيح ـ عليه السلام ـ بألف ومائتي عام، وفي هذا المنظور العربي المسيحي فإن السيد المسيح لم يرض ولن يرضى أن تكون الأرض المباركة التي تجول فيها يدعو إلى الحق والصواب عرضة للرجس أو أن تداس من قبل أي غازٍ أو محتل منحرف عن عقيدة التوحيد الإنسانية التي نبعت من الشرق وروح الشرق العربي الإسلامي.

وفي هذا الإطار لا بد أن نتوقف طويلاً عند الموقف المسيحي الغربي تجاه ما حدث لأرض المسيح وكنيسة المهد في شهر نيسان من عام 2002.

فبعد أن أطبقت قوات الاحتلال حصارها على مدينة بيت لحم لجأ إلى كنيسة المهد أكثر من مائتي مواطن فلسطيني وبينهم قساوسة ورهبان يخدمون الكنيسة، فأقدمت قوات الاحتلال على حصار الكنيسة ومنع الطعام والشراب عمّن فيها ثم عمدت إلى قصفها فاحترقت بعض جوانبها، وراح القناصة من الصهاينة يطلقون النار على كل رأس يطل من نافذة أو على أي شخص يحاول الهرب منها وقد بلغ عدد الشهداء من المواطنين الفلسطينيين داخل الكنيسة سبعة وجُرح آخرون، ومرة أخرى وثالثة ورابعة قصفت الكنيسة وشبت النيران في بعض البيوت التابعة لها.

ودام حصارها أكثر من شهر فماذا كان الموقف الغربي المسيحي مما حدث؟

لقد سقنا هذا السؤال لنبين أن أرض فلسطين وكنيسة المهد هي ألصق بالمسيحية الشرقية، وما المسيحية الغربية سوى وجه سياسي آخر لأوربا يتستر بستار الدين المسيحي، فلو أن المسلمين هاجموا كنيسة المهد وحاصروها وقتلوا ممّن بداخلها شخصاً أو أكثر لقامت الدنيا ولم تقعد ولأعلنت الغرب حرباً صليبية نووية على المسلمين وبلادهم، ولكن طالما أن اليهود الصهاينة هم الذين حاصروها وقتلوا بعضاً ممن احتمى بها فالأمر مختلف تماماً، ويبدو أن الغرب مستعد لكشف وجهه الحقيقي البعيد كل البعد عن العقيدة المسيحية، ومستعد كي يقول: إن الغرب ليس له علاقة بالمسيح طالما أن المسيح فلسطيني من بيت لحم وبيت المقدس والناصرة.

وهنا لا بد أن نذكر أن حوار الأديان الذي يُطرح كجزء مما يسمى حوار الحضارات أو الشعوب يفقد جوهره وأسبابه لأن الغرب لا يمثل المسيحية ولا بأي وجه من الوجوه، فمن يحاور المسلمون؟

ومن أجل ماذا؟

ما موقف الكنيسة البابوية الفاتيكانية مما حدث في بيت لحم؟

لا نريد أن نعيد المواقف النظرية التي أعلنها البابا ولم تتجاوز آذان العالم المسيحي الغربي ولا آذان قوات الاحتلال الصهيوني.

وصمت العالم الغربي المسيحي صمت القبور، إن ما يحدث في كنيسة المهد وأرض فلسطين يخص العقيدة النصرانية العربية حتماً، وليس له علاقة بالغرب الذي يدعي المسيحية كذباً وبهتاناً وإذا انطلقنا نحو المنظور الإسلامي فإن فلسطين تشكل محور الكون العربي الإسلامي العالمي ليس فقط لمكانتها الجغرافية، بل لمكانتها العقدية التي لا تضاهيها مكانة في الأرض كلها سوى مكانة البيت الحرام في مكة، ففي كافة أقطار الدنيا يعيش المسلمون مع عقيدتهم من خلال القرآن الكريم وسنة المصطفى عليه الصلاة والسلام.

فهذا القرآن على الرغم مما فيه من أحكام التشريع وقوانين الحياة الدنيا والآخرة إلا أنه يمنح قارئيه تعرفاً فريداً من نوعه لمكانة فلسطين وقدسيتها.

وذلك من خلال سورة الإسراء التي تنفرد بين سور القرآن كله بربطها للمسجد الأقصى بالمسجد الحرام.

فجميع المسلمين الذين يرون في القرآن الكريم كتابهم المقدس المنزل من السماء يرون في سوره منهجاً متكاملاً للحياة ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ولا شك أن أكثر من مليار مسلم يقرأ سورة الإسراء ويفهم على أقل تقدير أن هناك مكانين مقدسين خاصين لله سبحانه هما المسجد الحرام والمسجد الأقصى ورد ذكرهما في آية واحدة من سورة واحدة.

إن الرؤية الإسلامية يمكن أن تتخلى عن هذا الفهم إذا تخلت عن سورة من سور القرآن الكريم وتناستها، وهذا بالطبع يسلخ المسلم من عقيدته ويفصله فصلاً تاماً عن قرآنه العظيم بل وتُنزع عنه صفة الإسلامية.

وما الذي يعنيه ربط القرآن الكريم المسجد الأقصى بالمسجد الحرام؟

فهذا حسب رأي بعضهم تقديس إلهي لا يعني أكثر من التعلق الروحي بهذين المكانين وهذا التعلق لا يتجاوز الجانب الغيبي للمسألة.

وقبل أن نجيب عن السؤال الذي يبحث عن الربط بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى وأبعاده في الرؤية الإسلامية نضع أمام الذين يصفون العرب والمسلمين

بالمهووسين تجاه فلسطين مسألة لا شك أنها تعيد نصف التوازن للرؤية الغربية تجاه ذلك التحليل وتلك المقولات.

كيف ينظرون إلى العلاقة بين فلسطين واليهود أليست الرؤية التوراتية والأبعاد الدينية حكمت الفكر الغربي فاعتبرت فلسطين أرض ميعادهم ويجب أن يعودوا إليها؟

فإذا كانوا يؤمنون بأن خرافات التوراة حقيقة إلهية أو حقيقة ميتافيزيقية يجب أن يتقيدوا بها فعليهم أيضاً أن يدرسوا الأبعاد الدينية لمكانة فلسطين لدى المسلمين، ولا يجوز في المنطق الموضوعي أن نقر هذا ونرفض ذاك، لقد سعوا منذ أمد بعيد إلى خلق تصور عملي لتهجير متهودي العالم إلى فلسطين، وإقامة كيان يهودي خالص في المنطقة، وأصبح من المعروف الآن أن الكيان الصهيوني يضم في تجمعاته عشرات العروق والأجناس غير المتجانسة لا في اللون ولا في الثقافة ولا في المنبت والأصل، واخترعوا لهذه العروق والأجناس عقيدة غربية في استعمار فلسطين وتهجير أهلها منها.

ويبدو أن الغرب لا يريد أن يعترف بالبعد الديني الإسلامي والمسيحي العربي لفلسطين طالما هو لا يعترف أصلاً بالدين الإسلامي ولا بالمسيح العربي الفلسطيني ولا بالرسالة التي كُلف بها رسول الله ـ ﷺ ـ فهو يريد إسلاماً على مقاسه إسلاماً يلغي أية علاقة بين المسلمين وفلسطين وخاصة المسجد الأقصى.

وقد ظهر ذلك مراراً وتكراراً في تفكيره السياسي وحتى في تطلعاته الاستراتيجية، وحسب ذلك التصور فإن الإسلام الذي يرى في فلسطين محور الصراع بين العرب والمسلمين من جهة، والصهيونية وحلفائها من جهة أخرى، هو إسلام إرهابي تجب محاربته والقضاء عليه، أما اليهودية الصهيونية التي ترى في فلسطين -إسرائيل- وترى في المسجد الأقصى الهيكل الخرافي فهي على حق، وحسب تصوره فإن من حق هذا الكيان المغتصب الدفاع أو الهجوم من أجل الحفاظ على وعد خرافي ينسبونه لله، بل إن التصور الغربي يؤمن إيماناً راسخاً بأن دعم الكيان الصهيوني بالمال

والسلاح والدعم غير المحدود هو واجب مقدس من يقصر به فهو آثم ويعمل ضد إرادة الله .

وفي كل الأحوال فإن التصور الغربي لم يفهم بعد العلاقة بين المسلمين وفلسطين ، أو لنقل إنه لا يريد أن يفهم تلك العلاقة المتجذرة بين فلسطين ومن يفهم مقاصد القرآن الكريم ويتضح ذلك حين يُبرِز صوتٌ إسلامي في أفغانستان أو نيجيريا أو جنوب الفلبين أو في المنطقة العربية العلاقة الحقيقية بين الإسلام وفلسطين تلك العلاقة التي تؤكد تأكيداً راسخاً أن الصراع في فلسطين هو محور التصادم بين الغرب والشرق الإسلامي ، وكل الصدامات والصراعات بين المسلمين من جهة والغرب الصليبي والصهيونية من جهة أخرى في بلاد الله الواسعة ليست إلا صدى للتصادم أو الحوار مع الغرب .

لقد صور الغرب النظام العربي أو الإسلامي المعاصر على أنه يمثل الإسلام في موقفه تجاه قضية فلسطين ، فاتخذ إجراءاته من قتل وملاحقة لكل من يتجاوز تصور النظام العربي الإسلامي السائد ، واعتبر أن أي صوت عربي أو إسلامي يرى في فلسطين مركز الصراع الكوني بين قوى الإسلام وقوى الغرب والصهيونية هو إرهابي يجب القضاء عليه . ويدرك التصور الغربي إدراكاً أكيداً أن النظام السياسي السائد في بلدان العرب والمسلمين لا يمثل الوجه الإسلامي والموقف الإسلامي الجماهيري الحقيقي تجاه فلسطين ، ولذلك يظل الغرب قابلاً راضياً عن الوجه الإسلامي السائد في النظام العربي ، لأنه يرى في حل القضية الفلسطينية تأكيد وجود دولة للصهاينة على أرض فلسطين ، ودويلة فلسطينية مسخ في بعض أجزاء متفتتة من الضفة الغربية وقطاع غزة ، وبمعنى آخر فإن الغرب والنظام العربي السائد يتفقان في الرؤية تجاه فلسطين ويتفقان على بقاء الصهاينة على أرضها .

إن حالة الهوس التي تصورها بيار لافرانس وغيره من الغربيين لا تنطبق على الوجه الرسمي العربي لأن هذا النظام يعيش واقعياً على هامش القضية الفلسطينية ، فهو منذ نكبة (1948) استسلم تماماً لتصورات الغرب وسياسة الغرب تجاه المنطقة بل تجاوز ذلك حيث تشظى موقف هذا النظام وطالت شظاياه إقامة العلاقات الرسمية

الدبلوماسية مع المحتلين الصهاينة، وبقيت الشظايا الأخرى عاجزة عن تصور حل جذري لقضية فلسطين يستند إلى رؤية إسلامية حقيقية ليس إلى رؤى قطرية عاجزة عن حماية نفسها في أقل تقدير.

إذن كيف يفهم الصراع العربي الإسلامي مع الصهيونية والكيان الصهيوني في الوطن المحتل؟

ما هو المنظور القرآني للصراع والذي غاب أو غُيِّب عن العقلية الغربية وتجاهله العقل العربي الرسمي؟

لقد أصبح معروفاً وراسخاً في أذهاننا أن العقلية الغربية تصب كل قوتها لدعم الكيان اليهودي الصهيوني تدعمه في ادعاءاته الخرافية التوراتية، وفي تصوراته السياسية والعسكرية التوسعية، وهذا أيضاً ما يرسخ مفهوم الصدام الشمولي حول فلسطين، فالصراع ليس مع الاحتلال اليهودي الصهيوني لفلسطين إنما هو صراع بين طرفين كونيين يمثل الطرف الأول التحالف الصهيوني الغربي الأمريكي الذي يرفض الحق العربي الإسلامي في فلسطين، ويمثل الطرف الثاني القوى الجماهيرية العربية التي ترى في فلسطين حقاً عربياً وإسلامياً لا يمكن التنازل عنه، لأن التنازل عنه يعني التنازل عن ركن أساسي من أركان الإسلام.

ولهذا فإن أي مسلم في العالم يرى في فلسطين مركز الصراع الكوني لا بد أن يسعى لمقاومة التصور الصهيوني الغربي المتجاهل لحق المسلمين في فلسطين، وليس الحديث الإسلامي عن فلسطين كمركز للصراع الكوني حديثاً تجارياً عاطفياً، فالذي يتمعن في سورة الإسراء يدرك أن فلسطين ليست قضية تجارية ولا تحتمل أن تكون كذلك، والذين يفهمون المقاصد القرآنية لا بد أن يكونوا في دائرة الطرف المقاوم للمشروع الصهيوني الغربي حتى لو كانوا في أقصى الكرة الأرضية شمالها وجنوبها.

فالمسألة ليست حالة هوس وجنون كما يتصورها الفكر الغربي إنما هي حالة وعي متقدم لمدلول الصراع، وحالة فهم حقيقي لواجب المسلمين تجاه فلسطين، بل هو فهم جوهري لعلاقة راسخة بين المسلمين والأرض المباركة التي خصها الله

سبحانه بذلك، فالقرآن الكريم يخص المسلمين، ومن حق المسلمين أن يروا أن الصراع من أجل فلسطين لا ولن يتوقف عند حدود.

إن أي مسلم في العالم يفهم مقاصد سورة الإسراء يرى أن أي صراع بين المسلمين وقوى الاستكبار العالمي أياً كان نوعها لا ينفصل قطعاً عن الصراع حول فلسطين. بل إن فلسطين في مفهومه هي أساس ميزان الصراع في كافة أرجاء المعمورة، وإذا كان الغرب يحاول أن يحيد الكيان الصهيوني في بعض الأزمات الكونية العالمية كما حدث في أفغانستان والشيشان أو العراق ليظهر حيادية هذا الكيان فإن ذلك ليس إلا محاولة يائسة لفصل الصراع الكوني بين المسلمين وقوى الاستكبار عن قضية فلسطين، فالاعتداء على المسلمين في أي مكان في العالم ليس منفصلاً عما يجري في فلسطين، ولو أمعنا النظر ودققنا في كافة العلاقات الدولية سنجد أن الصهاينة حاضرون بكل قوتهم فيها، بل ومعهم رؤيتهم التوراتية الاستعمارية الغربية تحت شعارات مزيفة وخادعة اعتادوا على ترويجها منذ آلاف السنين وحتى وقتنا الحاضر.

فمقياس العلاقة الحسنة أو السيئة بين الغرب وبين أي دولة في العالم يرتبط بما تقدمه هذه الدولة للكيان الصهيوني بدءاً من الاعتراف، وانتهاء بالخضوع الاقتصادي أو التحالف التكتيكي أو الاستراتيجي.

ولا أدل على ذلك مما يحدث في تركيا وأندونيسيا أو أي دولة عربية فبقدر العلاقة الطيبة بين أي دولة والكيان الصهيوني تكون معاملة الغرب لهذه الدولة طيبة، وبقدر ما تكون العلاقة سيئة سيكون التعامل الغربي سيئاً.

وبهذا المفهوم يمكن لأي مسلم أن يدرك معنى قولنا: إن فلسطين محور الصدام الكوني بين قوى الشر وقوى الحق في العالم، ومهما حاول الغرب أن يصور ما يحدث هنا وهناك بأنه ليس له علاقة بالإسلام وليس له علاقة بالقضية الفلسطينية فلن يستطيع خداع العقول المسلمة التي تستمد موقفها من الموقف القرآني وليس من موقف فلسفة وضعية قابلة للتبدل أو التغيّر، إن مركزية فلسطين في الصدام الحضاري بين المسلمين وبين قوى الصهيونية بكل أشكالها اليهودية وغير اليهودية هي مركزية

قرآنية ثابتة. وهذا ما لم يفهمه الغرب ولن يفهمه طالما تسيطر عليه خرافة المقولات التوراتية اليهودية، ولا شك أن الخرافة أحياناً تستهوي بعض العقول والنفوس أكثر من الحقيقة ولو كانت واضحة كالشمس، وهذه هي مصيبة الغرب الذي وقع في فخ الأساطير ويحتاج ربما لغسيل دماغ ليصحو ويدرك الحقيقة، إن ما نريد قوله هو أن الإعلام الغربي الذي هو بوق المفكرين والسياسيين الغربيين لا يدرك حقائق الصراع ولا يفهم جوهرها، وهو بالتالي لن يرى إلا بعين واحدة، لن يشعر إلاّ بشعور واحد يمتلئ محبة وخوفاً ومحاباةً وتحالفاً مع الصهيونية الشريرة.

ختامٌ وليس خاتمة المطاف

من الذي يفترض صدام الحضارات؟ يبدو أن هذا المصطلح يأتي تغطية على مصطلح آخر هو جوهر التحرك الأمريكي الصهيوني، فهو العدوان على الحضارات، ويظهر مصطلح صراع الحضارات مظلوماً أمام العدوان . . .

فلو نظرنا إلى خريطة العالم السكانية وأردنا أن نعين مناطق الاستهداف الأمريكي، وجدنا أن المسلمين هم سكانها وهم المستهدفون بتحركها العسكري والاقتصادي والثقافي، ويتضح أن الصدام الذي غلفوا لفظه ومعناه ليس سوى عدوان يريد استئصال العقيدة الإسلامية وإبادة معتنقيها.

لقد وجد التحرك الأمريكي في كافة العنصريات الدينية والقومية أنصاراً له يشتركون في هذه الحملة الإرهابية على الإسلام والمسلمين، ووجد هذا التحرك فرصته لتقديم كل وسائل العون المادي والتكنولوجي لكل العنصريات.

في جنوب الفلبين يشارك الجنود الأميركيون الجيش الفلبيني للقضاء على حركة تحرير مورو، في جنوب بورما ترتكب البوذية العسكرية أبشع المجازر بحق مسلمي إقليم أراكان المحاذي لبنغلادش، والأمريكان سعداء بهذه الحملات لأنها تخفف من المسلمين في العالم، في الهند يُحرق المسلمون أحياء في ولاية كوجارات وتنتهك أعراضهم وتدمر منازلهم، وقوات الأمن الهندية تندمج مع الغوغائيين الهندوس فتزيد النار جحيماً، وتجعل القتل إبادة، أما في فلسطين فإن أبشع جريمة عصرية يرتكبها اليهود الصهاينة بإشارة من البيت الأبيض، وقس على ذلك بعض دول أفريقيا وآسيا وغيرها وغيرها.

إذن ليس هو صدام الحضارات، إنما عدوان على الحضارات، بالتحديد عدوان على حضارة الإسلام وقيمها ومثلها، عدوان على ما في نفوس المسلمين وعقولهم من تمسك بالقرآن العظيم، ومن انتماء لعقيدة التوحيد التي حاربت الوثنية والشرك والظلم منذ ظهورها في مكة، وما زالت تحارب الوثنية الجديدة والشرك المعاصر والظلم العنصري الرافض للمساواة بين بني البشر.

وإذا كان المسلمون يبدون ضعفاء لا يمتلكون صنع القرار والتحكم في ثروات بلادهم والتصدي للهيمنة الرأسمالية الاستغلالية، إلا أنهم ما يزالون يمتلكون ما هو أدوم لبقائهم وعزتهم، وهو الإسلام بجوهره القرآني والنبوي، وهذا هو ما يجعل الهجمة الأمريكية الصهيونية والعنصرية تزداد شراسة ووحشية، وهذا هو ما يقصدونه بصراع الحضارات أو صدامها، وهذا الصدام ليس بالمحصلة صدام السلاح أو التكنولوجيا أو صدام الغنى والفقر أو التطور والتخلف، إنه صدام بين نمطين من التفكير، وأسلوبين من أساليب الحياة بل هو صراع بين قيم عقيدية، وتركيبة انحطاطية درج عليها الغرب وتمثلها حتى أصبحت جزءاً من حياته وسلوكه ومعيشته ومعاشه.

إنه لا يروق لهم أن يظل المسلمون بعيداً عن دائرة تركيبتهم، لا يريدون أن تبقى قيم الإسلام عقبة كبرى في طريق تعميمهم للفوضى السلوكية، وهذا هو سبيلهم منذ أربعة عشر قرناً.

يقول تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: 120] فإذا كانوا لا يريدون أن يبقى المسلمون متمسكين بعروتهم الوثقى فلأنهم يدركون تماماً أن حربهم على سبيل الله، ومنهجه هو الهجوم الأول على المسلمين، ولقد ارتضى الله سبحانه لهذه الأمة أن يكون الإسلام منهجها، وهم ليسوا راضين عن ذلك، فكيف إذاً يحاربون المسلمين؟ إنهم يحاربونهم ليقطعوا هذا الرابط بينهم وبين حبل الله ورضاه، واختيار عقيدة الإسلام ديناً وحيداً موحداً.

يقول تعالى: ﴿ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: 3].

وهذا هو السر الذي يكمن وراء هذا العدوان، كيف يكون الإسلام لهذه الأمة خياراً وحيداً لها؟ وكيف يكون هذا الخيار دستوراً إلهياً وليس فلسفة وضعية؟ ألم توضح هذه المسألة أن الصدام صدام بين الكفر والتوحيد؟ صدام بين المنهج الرباني والكفر الشيطاني؟ وحين نراجع ما قاله المتفلسفون أمثال فوكوياما، وهنتغتون

وغيرهما، نرى أن افتراضاتهم حول الصدام الحضاري متركزة على طرفين أساسيين أحدهما هو الطرف الإسلامي والآخر كما يزعمون هو الطرف المتحضر الحضاري المتمثل بالغرب وقيم الغرب.

لماذا لم يفترضوا أن الصدام الأساسي سيكون مع الصين مثلاً أو روسيا باعتبارهما قوتين عسكريتين كبيرتين وتمتلكان أسلحة دمار شامل بقدر ما تمتلك أمريكا أو الغرب؟ لماذا لم يفترضوا أن الصدام الأساسي هو مع الهند أو اليابان إذا كان المقياس مقياس العدد السكاني في العالم.

فالحقيقة أن مقياس الصدام ليس مقياس العدد السكاني أو مقياس القدرة العسكرية التدميرية! إنما هو مقياس صدام القيم الإنسانية الإسلامية مع الفكر العنصري الرأسمالي الذي يريد سحق شعوب ليسود نمط شعوبٍ آخر اعتبروها متحضرة راقية تستحق الحياة بل وقيادة العالم.

قد يرى بعض المفكرين وعلماء الاقتصاد والمخططين الاستيراتيجيين أن أمريكا تريد أن تبقى متحكمة باقتصاد العالم، ببترول الخليج، وبالممرات المائية العالمية المهمة، تريد أن يسود النمط الرأسمالي الأمريكي دون منازع ودون عقبات أو معارضة، ففي هذا المقياس المادي الذي يرونه يتجاهلون جوهر الأهداف الأمريكية الغربية، وجوهر الرأسمالية بل جوهر العولمة، وجوهر أعداء العقيدة الإسلامية أياً كانوا، ومن أي بقعة جغرافية انطلقوا، وفي أي اتجاه تحركوا.

فالشخصية المسلمة بنيت أساساً على قيم افتقدها الآخرون. وهذه القيم رسخها القرآن الكريم والسنة النبوية حتى باتت جزءاً من تركيبة هذه الشخصية إن تخلت عنها أو أهملتها فقدت مبرر وجودها، إن كان وجوداً جسدياً مادياً، أو كان وجوداً روحياً نفسياً معنوياً.

1 ـ ولعل أول هذه القيم الولاء لله سبحانه، ولعل هذا ما يجعل أصحاب العولمة والفكر الغربي يزيدون من وتيرة حملتهم، فكيف يمكن أن يفصلوا المسلمين عن ولائهم لله؟ كيف يمكن أن يحوّلوا الولاء من ولاء لله إلى ولاء لأمريكا وللرأسمالية العالمية والعولمة؟

فهم يدركون أن هذا لن يتم إلا إذا كانت الحملة طويلة الأمد، وذات أساليب كثيرة ومتنوعة، ولكنها في كل الأحوال ستستمر على الشخصية الإسلامية لأن الولاء لله هو جوهر بقاء الشخصية المسلمة، وجوهر اعتزازها وعزتها، وهم لا يريدون أولاً أن تبقى هذه الشخصية عزيزة كريمة.

ولا شك أن تحويل ولاء المسلم يعني بالضبط إذلاله، والإذلال مسألة نفسية تؤدي بصاحبها إلى فقدان التوازن والصمت والقبول بما يفرض عليه دون احتجاج أو معارضة، يقول تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَـٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴾ [النساء: 119].

ويقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ [النساء: 139].

ويقول تعالى: ﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ [هود: 113].

2 ـ وثاني هذه القيم الإرادة الحرة، والإرادة أيضاً عامل نفسي مهم في تكوين الشخصية وسلوكها وتصرفاتها على كافة المستويات، ومن دواعيها أن تكون الشخصية حرة في اختيار قرارها النابع من مصلحتها، ومصلحة الأمة الإسلامية، وأن الهجمة العدوانية الأمريكية الغربية تريد المسلم بلا إرادة أي: بلا حرية في اتخاذ القرار فقد لجأت إلى تحطيم هذه الإرادة من خلال استخدام العنف وأرهب وأشرس أنواع الهجوم على الأمة الإسلامية.

ولعل ما حدث في فلسطين وتحديداً في مخيم جنين وباقي المخيمات الفلسطينية واضح على أن تنفيذ مثل هذه المجازر وهذا التدمير، كان يُقصد من ورائه تدمير إرادة المسلمين تدميراً كاملاً وليس فقط تدمير ما يسمى البنية التحتية من مؤسسات ومتاجر وكهرباء ومياه وما إلى ذلك.

ولعل ما فعلته القوات الأمريكية في أفغانستان دليل على نية أعداء الأمة ضرب الإرادة المسلمة فتحطيمها يعني التخلص من عامل مهم جداً داعم للشخصية العربية وداعم للثقة بالبقاء والوجود مع الحفاظ على الكرامة والعزة.

ولعل أصحاب نظرية التصادم (العدوان) يدركون أن تلك العوامل النفسية الإيمانية في الشخصية المسلمة هي التي تصنع الموقف الثابت، حتى وإن حاولت أنظمة الحكم القائمة تغيير العوامل من عوامل إيجابية إلى أخرى سلبية، أو حتى لو حرفت مسارها عن الطريق الصحيح الذي رسمه لها القرآن الكريم وكذلك سنة المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد وصف القرآن الكريم بدقة متناهية طرق وأساليب أعداء الأمة التي تريد من ورائها زعزعة الإرادة وإضعافها فقال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ هَـٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَـٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران: 118 ـ 120]

فهذه الآيات الثلاث يأمر بها الله سبحانه ألا يُتخذ من أعداء الأمة أناس تؤمن لديهم أسرار المسلمين لأن هؤلاء لا يقصرون في الفساد ولا يتوانون عن إيصال الضرر لأبناء الأمة، إنهم يتمنون إلحاق الضرر بهم، لقد ظهرت العداوة على أفواههم لأنهم لا يتمالكون الإخفاء لفرط عداوتهم، وفي صدورهم ما هو أكبر وأعظم، وبعض المسلمين يخطئون بحبهم لأعداء الأمة الذين لا يؤمنون بالإسلام ورسالته. وهؤلاء الأعداء يظهرون المحبة إذا واجهوا بعض المسلمين وتحدثوا إليهم وإذا انفردوا أظهروا من الحقد والغيظ ما يجعلهم يعضون على أصابعهم.

ونصل إلى الآية الثالثة التي أوردناها لنجد أنها تركز على الجانب النفسي أيّما تركيز وتُبرز مفهوم الإرادة من خلال عدة ملامح نفسية.

فالملمح الأول يقول: إنْ يصبْكم خير فإنهم يستاؤون، وإن يصبكم شر يفرحوا، ويخاطب الله سبحانه المؤمنين قائلاً: إن تصبروا وتحجموا عن موالاتهم التي حرمها الله عليكم فإنهم لن يضروكم بشيء ولن يضركم كيدهم ونفاقهم.

فأصحاب الصدام الحضاري (العدوان) لا يريدون أن يمتلك المسلمون إرادتهم ويصبروا، بل يريدون أن تفقد الإرادة صبرها فيتنازل المسلم عن مبادئه وعن أوامر ربه وينصاع لأعداء الأمة.

إن تدمير الإرادة الإسلامية يحقق النجاح الأمثل لحمْلة الصدام الحضاري حسب وجهة النظر العولمية الرأسمالية، وتدميرها يعني أن يكون من السهل على المسلمين أن يقلدوا الغرب وماديته.

ويعني أن يصبحوا منقادين لإرادة الأعداء، وعندها لن يكون غريباً أن يلحق المسلمون أعداءهم مقلدين منصاعين حتى لو دخل الأعداء جحر ضب لدخله المسلمون لأنهم ساعتئذ سيكونون بلا إرادة تحميهم ولا حصن يحصّنهم.

3 ـ وثالث هذه القيم الفاعلية في الحركة الكونية: فعند دراستنا لوقائع التاريخ منذ البعثة وحتى الآن تمتع المسلمون بفاعلية على الحركة في كل أرجاء الأرض، وهذه الفاعلية ظلت وما تزال تنجح في نشر الدعوة بين الشعوب.

وبدا أن الإسلام على عكس العقائد الأخرى قادر على استقطاب أبناء الأمم لأنه يدعوهم إلى العقيدة ليخلصهم من وثنية البشر وسلوك الحيوان دون أن يطلب منهم مقابلاً أو يضع في حسابه المنفعة الدنيوية المنقطعة الصلة بالمنفعة الدينية المعنوية والأخروية.

ولعل ما يميز فاعلية الإسلام المرونة في الحركة الدعوية، وهذه المرونة هي أحد أهم العوامل في استقطاب الكثير من أبناء أوروبا وأمريكا إلى الإسلام، فأصحاب الصدام الحضاري (العدوان) لا يروق لهم أن يروا العقيدة الإسلامية تنتشر في صفوف الأوربيين والآسيويين والأفارقة انتشاراً سليماً واعياً، فكان لا بد من

التخطيط لضرب هذه الفاعلية والمرونة المسلمة، وحتى تنجح دعوة الصدام ألبسوا هذه الفاعلية لباساً آخر أطلقوا عليه الإرهاب تارة، والأصولية تارة أخرى، والتزمت تارة ثالثة، ومعاداة السامية تارة رابعة.

ولعل أخطر ما أشاعوه لضرب هذه الفاعلية الأنانية والانسحاب من الحركة حتى بات الكثيرون من المسلمين في حل من الإحساس بالآخر وصار شعار الفرد التخلص من مسؤولية الأخوة والتكاتف الاجتماعي والتصدي الجماعي للمحن الفردية والاجتماعية الجمعية ويصبح هدف أصحاب نظرية الصدام خَلْقَ فرد مسلم مهتم بفرديته وهمومه وطموحاته الشخصية فحسب، كل فرد يظن نفسه محور الوجود بعيداً عن التفكير في بناء اجتماعي جمعي تكون غايته الكلّ وليس الفرد المنفصل نفسياً ومادياً وفكرياً.

وفي كل الأحوال فإن الغرب وعلى رأسه أمريكا هو الذي فرض ما يسمى صدام الحضارات وليس المسلمون أو العرب.

وعليه فإن الأمر الطبيعي أن يتصدى العرب والمسلمون لهذا العدوان الغربي على حضارتهم وقيمهم تاريخهم وعقيدتهم.

وإذا كان بعضنا يرى أن التصادم سيؤدي إلى خسارتنا إن عاجلاً أو آجلاً باعتبار أننا لا نملك قوة عسكرية أو تكنولوجية مماثلة للقوة العسكرية والتكنولوجية الغربية فإن رؤيتنا نحن كبعض آخر من أمتنا تحتم علينا أن نبعد من هويتنا العربية والمسلمة أزمة فُرضت علينا، فهويتنا وصونها والحفاظ عليها مهام علينا أن نعمل فيها ونسعى لتحقيقها وتحقيق أهدافها وغاياتها.

هوية تقابل هوية أولاً، أما الأمر الثاني فإن تحقيق الحفاظ على الهوية لا يأتي دون التمسك بالثوابت العقيدية والتاريخية والدور الذي رسمه لنا رب العالمين كأمة مسلمة موحدة مكلفة بالدفاع عن حقها في الوجود والدور، منذ النبي إبراهيم - عليه السلام - وحتى خاتم الأنبياء - عليه الصلاة والسلام - وإلى أن يرث الله الأرض ما عليها.

المؤلف في سطور

حسن مصطفى الباش مواليد فلسطين بتاريخ 24/ 11/ 1947 . خرج مع أهله إلى دمشق أيام النكبة الأولى عام 1948 . وكان عمره خمسة أشهر ونصف . درس المراحل الدراسية جميعها في مدارس وكالة الغوث وثانويات دمشق وتخرج من جامعة دمشق قسم الآداب اللغة العربية عام 1973 . عمل بالتدريس مدة خمسة عشر عاماً بدأ حياته الصحفية والبحثية منذ عام 1975 .

أكمل دراساته العليا فحصل على الماجستير في مقارنة الأديان . وكان كتابه القرآن والتوراة أين يتفقان وأين يفترقان من ثلاثة أجزاء بحث الرسالة . وذلك من جامعة الدراسات الإسلامية في باكستان فرع القاهرة عام 2001 .

حصل على رسالة الدكتوراة وهي في مقارنة الأديان وكان كتابه العقيدة النصرانية بين القرآن والأناجيل بحث الرسالة من جامعة الدراسات الإسلامية في باكستان فرع القاهرة مدرّس لمادة مقارنة الأديان في كلية الدعوة الإسلامية فرع دمشق . عضو الأمانة العامة لاتحاد الكتاب والصحفيين الفلسطينيين عضو اتحاد الكتاب العرب لجنة الدراسات والبحوث منذ عام 1986 . شارك في العديد من المؤتمرات المحلية والدولية . في الجمهورية العربية السورية . وليبيا وتشاد وسيرالانكا وإيران والعراق ولبنان .

إصدارات المؤلف :

في الشعر :

1 ـ من الجرح يبتدئ البرق مجموعة شعرية اتحاد الكتاب العرب عام 1977 .

2 ـ مسافر وزادي معي مجموعة شعرية اتحاد الكتاب العرب عام 1983 .

في التراث الشعبي:

1 ـ الأغنية الشعبية الفلسطينية دراسة ط1 1977 ، ط2 1986 دار الجليل دمشق .

2 ـ أغاني وألعاب الأطفال في التراث الشعبي دراسة ط1 1984 ـ ط2 1985 دار الجليل دمشق .

3 ـ المعتقدات الشعبية في التراث العربي بالاشتراك مع محمد توفيق السهيلي دراسة ط1 دار الجليل دمشق 1986 .

4 ـ الميثولوجيا الكنعانية والاغتصاب التوراتي دراسة دار الجليل دمشق 1987 .

5 ـ البيت الشعبي الفلسطيني دراسة مختصرة درا المبتدأ دمشق 1989 .

6 ـ العرس الفلسطيني دراسة موجزة دار المبتدأ دمشق 1992 .

في الصراع العربي الصهيوني:

1 ـ الفكرة الصهيونية والأدب العنصري دار الإمام البخاري دمشق 1978 .

2 ـ بروتوكولات صهيون من التنظير إلى التدمير دراسة دار قتيبة دمشق 1990 .

3 ـ التربية الصهيونية من عنصرية التوراة إلى دموية الاحتلال دراسة دار قتيبة دمشق 1990 .

4 ـ العقائد الوثنية في الديانة اليهودية دراسة دار قتيبة دمشق 1991 .

دراسات إسلامية:

1 ـ موقف الإسلام من السحر والخرافة دار حطين دمشق 1993 .

2 ـ منهج الجهاد القرآني دار ميّ للدراسات بيروت 1991 .

3 ـ زحف العنصرية ومواجهة الإسلام دراسة دار قتيبة دمشق 1997 .

4 ـ عز الدين القسام شيخ المجاهدين دراسة مختصرة درا المبتدأ 1993 .

5 ـ الأماكن الإسلامية المقدسة حق المسلمين الضائع دار ذي قار لندن 1995 .

6 ـ القرآن وحوار العقل جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس ليبيا 1996 .

7 ـ الإنسان في ميزان القرآن دراسة تربوية جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ليبيا طرابلس 1990 .

8 ـ مولد محمد مفتاح التاريخ الإسلامي جمعية الدعوة الإسلامية العالمية طرابلس ليبيا 1996 .

9 ـ ختم النبوة وآفاق المشروع الحضاري الإسلامي جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس ليبيا 2000 .

في مقارنة الأديان:

1 ـ حقوق الإنسان بين الفلسفة والأديان جمعية الدعوة الإسلامية طرابلس ليبيا 1997 .

2 ـ القرآن والتوراة أين يتفقان وأين يفترقان ثلاثة أجزاء دار قتيبة ط1 1999 ـ ط2 2001 .

3 ـ القدس بين رؤيتين دراسة مقارنة دار قتيبة دمشق 1998 .

4 ـ العقيدة النصرانية بين القرآن والأناجيل ج1 ـ ج2 دار قتيبة 2000 ـ 2001 .

5 ـ عبدة الشيطان وحركات انحرافية أخرى دار قتيبة دمشق 2001 .

دراسات حول القدس:

1 ـ القدس في ظل الدولة الإسلامية القيادة الشعبية الإسلامية العالمية طرابلس ليبيا 2001 .

2 ـ مكانة القدس في القرآن الكريم والسنة النبوية القيادة الشعبية الإسلامية العالمية طرابلس ليبيا 2001 .

3 ـ القدس بين مشروعية الجهاد والخضوع لأعداء الإسلام القيادة الشعبية العالمية طرابلس ليبيا 2001 .

الفهرس التفصيلي

هذا الكتاب

صراع، صدام أم حوار....؟

مفهوم الصدام ومفهوم الحضارة...؟

إن صدام الحضارات غطاء على أمر أخطر، إنه العدوان على الحضارات ولاسيما الحضارة العربية الإسلامية فهو يريد أن يمحوا الهوية العربية الإسلامية ولابد من إيقافه وفي هذا الحال سيحدث الصدام، وهذا العدوان لايقابل بالخنوع والسلبية والإنسحاب من المواجهة.

إنه صدام بين قوى الحق الخير وقوى الباطل الشر.

وهذا الكتاب يؤسس لموقف عربي إسلامي شمولي.

إنه خلاصة تجربة وخلاصة قراءة للماضي والحاضر والمستقبل.

Designed by ROOTS Telfax:2324476